رواية

# " غيابة الجُبِ "

## هند مصطفى

دار بيوند للنشر والتوزيع والطباعة والترجمة

**بيوند للنشر والتوزيع والطباعة والترجمة**
**٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم**
**٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧**
**Beyond.dbh@gmail.com**
**جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر**

**الكتاب: غيابة الجب**

**المؤلف: هند مصطفى**

**تصنيف الكتاب: رواية**

**تصميم الغلاف: أحمد مصطفى**

**الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي**
**رقم الإيداع: ٧٧٢٩ / ٢٠١٩**

دار (بيوند) للنشر والتوزيع والطباعة والترجمة

**+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧**

**beyond.dbh@gmail.com**
**www.facebook.com/beyond.PDH**

**هذه الكلمات**

**حديث داخلي بيني وبين العديد من الأشخاص القابعين بأعماقي،**

**الخاضع، الثائر، العاصي، الصادق، الخائن، الخائف، الزائف، الضائع.**

لم أكن أعرف أن هذا الاسم مثير للريبة والجدل لهذا الحد، خاصة عندما قرأه الكثيرون "غيابة الحُب" معتقدين أنه اسم مثالي ومتفاجئين كونه في الحقيقة "غيابة الجُب"، ما هذا الاسم الغريب و كانت هذه معظم الإشارات له، لكني بالمقابل كنت أتعجب أيضًا من سؤال أحدهم "إيه الجب ده"!!!

في البداية ما أوحى لي بإسم هذه الرواية هي قصة سيدنا يوسف، وقد صدق الله تعالى حين لقبها ( أحسن القصص)، حين قرر أخوة (يوسف عليه السلام) عدم قتله وتركه في البئر أو (الجُب)،" قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ "

لأني في هذه الرواية حاولت طرح نفس هذه القضية الأبدية في الخلاف بين(اللوم) و(تحمل المسؤولية)، ففي هذا الموقف كانت اللائمة من نصيب أخوة (يوسف عليه السلام) على هذا الظلام الذي

سقط به دون حول منه ولا قوة ، ولكن بلا شك كان تحمل المسؤولية لهذا الحدث من نصيب (يوسف عليه السلام) ، كيف يتولى شخص مسؤولية حياته ليصل بها من أعماق الجب إلى عزيز مصر، ما هي اللحظة الحاسمة والفاصلة التي تحول حياة إنسان بشكل قاطع وتعيد تشكيله، هذا الموقف المصيري لم يمر على يوسف فقط بل يمر كل إنسان بحياته بهذا الموقف وهذه اللحظة الحاسمة حتى أبطال روايتي مع إختلاف الحدث والظروف والأشخاص، السقوط في غيابة جُبٍ ما أمر لا مفر منه في الحياة، تلك العقبات والمشكلات التي تقف أمامنا دون أن تقع علينا لائمة، نحن من نتحمل مسؤولياتها بالنهاية، مسؤولية الشعور تجاهها والتفاعل معها وما يتبقى من أثرها داخلنا، مسؤولية السماح لها بالعبث بعقولنا، كلما اخترنا أن نتقبل المسؤولية تجاه ذلك بكل ما به من عواصف وتقلبات دون إلقاء اللوم دائمًا على

شـيء أو شـخص مـا، كلمـا تغيـرت نظرتنـا تجـاه الأشياء، كلمـا تقبلناهـا وكلما أحكمنا زمام السيطرة على الأزمات.

فقبول المشكلة أول خطوات التخلص منها، ما حاولت طرحه هنا في هذه الرواية هو المعنى الذي أعتقده عن "تطوير الذات"، كيف تختار قيمتك و أولوياتك التي تستحق الإهتمام، ففي وقت ما بعد ذرف القدر الكافي من الدموع على أمور سابقة، سيبدأ تفكيرك باتخاذ اتجاه آخر لم يكن متوقعًا، وتتغير وجهة نظرك وتقوم بإصلاح حياتك بنفسك لأنك المسؤول الوحيد عنها.

غيابة الجُبِ

هند مصطفى

## فِي غيابةِ الجُبِ

**تسقطنا الحياة جميعًا، وأما الصعود فلا نتعلمه إلا بعد ضياع الفرص!**

# (١)

(يوسف)

وقفت في وسط حجرتي أنظر إلى المرآة، كم تناسبني البدل والكرافتات بعد أن اعتدت شكلي بالجينز والتيشرتات، أتأمل وجهي وأعدل من خصلات شعري، عيون سوداء، وجه خمري، شعر أسود مموج، وجه يبدو مثل آلاف البشر التي تسير في الشوارع، ما من شيء مميز في ملامحي لأكون بهذه الوسامة التي يخبرني بها أبي، الذي يتشدق بابنه الشاب أمام الجميع، أحاول أن أبدو في أبهى صوري.

لكنني لا أرى أمامي سوى شبح إنسان لا أعرفه، أين كياني الحقيقي داخل كل هذا الإنسان الذي أراه وحدي، وحدي، سنوات طويلة أنا وحدي دونها.

ما نفع الوسامة والجمال في غيابها!

ها أنا تأنقت وارتديت أجمل ملابسي؛ لكن عيونها لن تراني، وقلبها لن يباركني وحبها لن يكللني، لماذا فقدت كل الأشياء لونها في غيابها!!

حتى الحلم الذي انتظرته وتخيلت أن فيه سر سعادتي، لم أجد داخله تلك السعادة والبهجة التي توقعتها، كعادة كل شيء تمنيته، لماذا لم أبلغ يومًا تلك السعادة بعد، أين تكمن سعادتي التي لا أعرف لها طريقًا.

كم كنت أنتظر هذه اللحظة، عندما أنهى مشروع عملي الذي سهرت لأجله ليالي طويلة وحان وقت الإحتفال به، لحظات السعادة التي شغفت بها فقدت طعمها كأنها لم تكن أبداً، كأنها تعاقبني أني انتظرت السعادة بدونها.

تعطرت بشذى خيبة أمل بدلًا من عطري، مرت بذاكرتي ذكريات بعيدة جدًا تتساقط مثل أطلال تسكنها أشباح بلا ملامح واضحة، لا أذكرها كاملة ولا أنساها أبدًا .

مجرد صور باهتة غير واضحة بلا أصوات ولا ألوان ولا معنى، كل ما مررت به في سنوات عمري معكِ تمثله ذكرى بلا ملامح، لاحت على شفتي بسمة ساخرة وأنا أنظر إلى كل هذه الخطابات هناك، كم من أمنية كتبتها، وكم من حلم رسمته، وكم من شعور بثثته وكم من قبلة أهديت.

لم يعلم أحد أبدًا أني كتبت من أجلكِ كل هذه الكلمات، ولا أدري من أهديها غيركِ، شعور قوي بالأسى لا يساعد قدمي على الإستمرار واقفًا، إحباط شديد يغمرني في غير يومه وغير مكانه، شعور بالأسى يخبرني ألا أستمر، يخبرني ألا أقاتل، ألا أقاوم؛ لكن دقات الساعة التي تعلن الثامنة ليلاً لها رأي آخر.

تأخرت! عليّ أن أسرع، ألا أستسلم لطاقتي السلبية، علىّ أن أكمل هذه المسرحية الهزلية من حياتي، إلى آخر نبضة قلب، إلى الأبد.

تهددني دقات الساعة أن وقتي قد نفذ وأني لن أنهي بث كل شعور كننته لكِ، ومن أجلكِ الآن، أنا لن أنهى يومًا بث كل شعوري ودقات الساعة دائمًا تعلو على صوت قلبي، وتجبرني أن أستمر، نعم مهما حدث فالحياة تستمر.

ساعة واحدة فقط؛ وسأبدأ حلمًا جديدًا، تلك الساعة التي لطالما انتظرتها، ستمضي لتؤكد لي مدى ضعفي الذي اعتقدته قمة نجاحي، وضعت لمستي الأخيرة واخترت رابطة عنقي، وثقتها وها أنا ألتقط أنفاسي الأخيرة وأبتسم.

أتتساءلون عن سر ابتسامتي؟؟!!

لم أستطع التخطيط لشيء أسعد به يومًا سعادة كاملة، مضى عمري كله خيبات أمل تُصارع لحظات فوزي، في هذه اللحظة لن أمنع يدي من اِستراق خطاب قبل خروجي.

نزلت درجات السلم ببطءٍ وخنوع ؛ أجر نفسي مطأطىء الرأس، يهمس بقلبي حزنٌ ثقيلٌ لا يريد أن يختفي، أتحسس جيبي لأتأكد أن الخطاب بمكانه، وأني أحتفظ بمشاعري ونبضات فؤادي في مكان آمن بعيّدًا عن النسيان.

أصارع أفكاري؛ وتصارعني دون رحمة، ركبت سيارتي وقبل أن أدير المفتاح بها، سمعتُ رنات الهاتف المتتابعة التي بدأت تزعجني، لا أرغب كثيّرًا بالحديث ولا أعلم مَن المتصل ولا أريد أن أعرف، لذا

تجاهلت الهاتف، لكن عادت رناته للحياة تزعجني من جديد، وأمام الطريق المزدحم وضجيج تلك النغمة التي زادت من ضيقي داخل السيارة وذاك الرقم المجهول.

إضافة إلى إلحاح المتصل الذي أخرجني من صبري اضطررت أن أجيب.

- ألو...

- مفاجأة!..

- مَن؟...

- حبيبي!.

قالها بصوت عالٍ مقهقهًا، سعيّدًا منتشيًّا.

لم أصدق نفسي، كاد قلبي أن يتوقف من المفاجأة!..

- أحمد.. هل أنتَ في مصر...؟

- نعم... أين أنتَ؟ أريد لقاءك الآن...

- الآن؟ مجنون.. اليوم حفل إنتهاء مشروعي.. أين أنت سأمر لآخذك معي.. أتمنى وجود أحد ما أحبه بجواري.

- لالالالا!... لا طاقة لي بحفلات، كما أنني متعب من السفر، سأنتظرك حتى تنتهي، ثمَّ نسهر حتى الصباح.

أغلقت الهاتف مبتهجًا بعد تبادل حديث ليس بقصير عن أحواله وسفره المفاجئ هذا، حديث طال حتى وصولي إلى الحفل وكنت قد بدأت أشعر

ببعض السعادة والإبتهاج المؤقت من أثر هذا الحديث، بدلاً من العبوس في وجه الناس حولي.

اِختلطت بزحام الحفل منشغلًا بعرض مشروعي الكبير الذي أنهيته مع فريق عملي، يشغلني إنتظار لقائه عن شعور تعاستي وإحباطي الدائمين.

عندما اِنتهى الحفل؛ كُنتُ أولَ المودعين، تستنفذ هذه الحفلات طاقتي ولا أصبر عليها طويلاً، شَعرتُ بالراحة والحرية لحظة إنتهاء مراسمَ الحفلِ الروتينية والكلام والسلام والمجاملات الباسمة من وراءِ قلوب زجاج لا تهتم بأحدٍ سوى مصلحة العمل، وقد كان مبدئي في الحياة، أن أعتنق الصمت وأبتعد عن الأغبياء دون أن أتخذهم على محملِ الجد، كُنتُ أحاول أن أقضي حياتي دون أن أتعمق كثيّرًا في علاقات العمل؛ محاولاً عدم أخذ الحياة على عاتقي، مجرد سنوات تمر ونرحل إلى العدم، وأنا لا أحب أن أبالغ في عاطفتي أو أتورط في تلك العلاقات الإنسانية التافهة، أنا لا أحب أن أضطر لإرضاء أحدٍ رغمًا عني، إلا (أحمد)، إنه علاقتي الوحيدة الحقيقية في ذلك المجتمع، إنه الإستثناء الوحيد بحياتي..

ركبت سيارتي سريعًا واتصلت بصديق الغربة الذي فرقت بيني وبينه المزيد من البلاد.

- أحمد، أين نلتقي؟

- في مكاننا المعتاد، اشتقت النظر إلى صفحة النيل.

أنا أيضًا أفتقد مكاننا القديم وأشتاق الجلوس أمام النيل، وتأمل سواد الليل والإستمتاع بحديث سمر مع صديق الطفولة.

منذ أن سافرت مع أبي إلى الكويت وأنا صغير بعد وفاة أمي، فقدتُ جميع أصدقائي ولم يكن لي سواه هو وأخته (حور)، لم يكونا مجرد أصدقاء؛ بل كانا إخوة لم أحصل يومًا عليهما، لم يواسِني إلا وجودهما، خاصة عندما تزوج أبي، وأتت تلك الغريبة للعيش معنا، نعم تزوج أبي ونسي أمر أمي، وجد البديل كأن شيئًا لم يكن، لكنني لم أجد البديل أبدًا عن أنفاس أمي ورائحتها العطرة.

بدا أبي سعيّدًا جدًا في البداية، حتى أنه لم يكد يراني أمامه.

أنا ابنه الذي لم أكن أعرف غيره في هذه الحياة الجديدة، رغم صغر سني لا أنسى أبدًا غصة ذلك الشعور بالوحدة الذي لم يخرج من صدري بعد، لم أفهم كيف واتته الجرأة ليعيش مع امرأة أخرى غير أمي!..

كان دائم الإنشغال وتلك السيدة كانت مسؤولة عني، أذكر أنها كانت تطعمني، وتلبسني وتنظف مكاني لكنها أبدًا لم تحبني.

لم تفتح قلبي وتهزه تلك الهزات العميقة التي كنت أستشعرها بوجود أمي ذلك الشعور الذي لا يمكن وصفه بالكلمات لكن تدركه القلوب الصغيرة بكل قوة، لا ألومها، أفهم الآن أنها لم تكن مضطرة أن تحبني، يكفي أنها تحاملت لتقوم برعايتي في غياب أمي وأبي، لكن قلبها لم يكن مضطرًا لإيوائي.

عِشتُ بذلك المنزل لا أنا ضيف ولا أنا مواطن من الدرجة الأولى، لم أرقَ إلى أي رتبة في هذا المنزل الجديد، لكن توالت الأيام وبدأت الأمور تتغير بسبب ما لا أفهمه.

علت الأصوات ثمَّ أصبحت تعلو بالصياح كل ليلة حتى رحلت يومًا ما وتركتنا، كنت في قمة فرحتي يوم أن رحلت وتركته مكسور الخاطر رغم صغر سني شعرت أن القدر يثأر لوجعي لتلك الأيام التي جلستها وحدي مكسور الخاطر يثأر لذكرى أمي.

لست قاسي القلب على أبي أعلم الآن أنه كان بحاجة لامرأة في حياته، الآن أشفق عليه وعلى وحدته؛ لكني كنت طفلاً يشتاق أمه، كانت تملأني حسرة كبيرة ناحيته.

رحلت تلك السيدة اللامبالية وتركتنا خلفها، وبدأت رحلة جديدة من نوع آخر لم أعرفه من قبل، ذلك التقلب بين منازل الغرباء، وتنقل الغرباء داخل منزلنا، يتركني أبي أمام أبواب سيدات غريبات ترعاني مقابل المال، أو تأتي السيدات إلى بيتنا لتجلس معي جلسات مملة لا يفعلن شيئًا إلا إحكام المراقبة، كل يوم وجه جديد أو بيت غريب وأنا بين ذلك وحدي، كالعادة لطالما كنت وحدي..

ظللنا وحدنا بالغربة، نعيش تلك الحياة الصعبة المملة، لا يواسني سوى أسرة صديق أبي، وولديه (أحمد) و(حُور)، عندما وصلت أخيّرًا إلى المقهى نفضت عني كل هذه الأفكار، وأنا أتلفت حولي أبحث عن

(أحمد)، جريت أحتضن صديقي العزيز، لم أكن أصدق عيني، وأخيّرًا اِلتقينا مُجددًا.

- أحمد! ما هذه المفاجأة، لِمَ لم تخبرني بقدومك؟

- لم أكن متأكدًا أن باستطاعتي ترك العمل، والقدوم إلى مصر.

- متى وصلت؟

- قبل أن أتحدث إليك بقليل.

- كيف حالك؟ اِشتقت إليك كثيرًا.

- أنا في أفضل حال صديقي، يعلم الله أني أيضًا اِشتقت لكَ أيضًا.

- وكيف حياتك في بلادك الجديدة أمريكا؟

اِبتسم ونظر للجهة الأخرى.

- أكيد سيسعدك شعوري بالندم نوعًا ما.

اِبتسمت ببلاهة وهززت رأسى متعجبًا غير مصدقٍ.

- أنتَ تعلم أني كنت أغار منكَ أنكَ سبقتني، أرجوك لا تقل لي أنكَ نادم، أرجوك.

ضحك بدوره ساخرًا، ونكزني في كتفي.

- أعلم تمامًا أنك غيور، وكنت تحقد عليَّ؛ لأنني سبقتك وكنت ستتوسل إليَّ لأجد لك فرصة عمل قريبًا.

- للأسف، يبدو أنك تفهمني دائمًا!.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، لا ندري لمَ نضحك، فقط دائمًا ما نبتسم ونضحك في وجود أعز الأصدقاء، على كلمات لا معنى لها، أو نكات قديمة مملة.. فقط بلا سبب كنا نضحك ونبتسم ثمَّ ساورني الفضول لسؤاله.

- لم تشعر ببعض الندم يا أحمد؟ هل الحياة هناك ليست كما تتوقع؟

- بل أفضل مما كنت أتوقع، كل شيء منظم وكل شيء في مكانه الصحيح.

ثمَّ طأطأ رأسه وهز كتفيه وقال أسفًا:

لكني لست سعيد السعادة التي توقعتها.

- وما السبب؟

- حُور يا يوسف، "حور"!.

شعرت بغصة قوية في قلبي، وتسارعت نبضاته عند ذكر اسمها، تحشرجت حنجرتي قليلاً وأنا أسأله:

- ما بها "حور"؟

- لا أعلم ما بها، لاأعلم! لكني أشعر أنها ليست بخير، تحتاج للمساعدة.

صمت لحظة وهو يعض على شفتيه؛ ثمَّ أكمل

- جئت هذه الإجازة من أجلها، لا أدري كيف واتتني هذه القوة الباردة للهجرة، وتركها وحيدة.

- هي ليست وحيدة؛ لقد تزوجت برجل ذي منصب كبير، كما أن والداك بجوارها، هي لا تحتاجك كما تتخيل.

- بل تحتاجني! أنا على يقين من ذلك، كل من حولها لا يشعرون بها كما أشعر، لقد بدأت الهواجس والكوابيس توقظنى ليلاً بسببها، دائمًا أرى أن هناك شيئًا أسودًا ضخمًا يطاردها أو يبتلعها، لا أدري ما هو ولا أدري ما بها، لكن هناك أمر ما، إنها تعاني ولا تتكلم وأنا لن أسافر وأتركها قبل أن أعلم كل ما بها وأساعدها.

- حسنًا يا صديقي! لم أتوقع أن يقودك إحساسًا غير واضحٍ لدرجة أن تسافر كل هذه الساعات الطويلة بالطائرة.

- إنها أختي يا (يوسف)! كيف لا يقودني لها إحساسي!.

- إحساس مبهم بلا دليل.

- أنا أثق بإحساسي.

- ومتى تنوي السفر إلى الإسكندرية؟

- الليلة.

- أي ليلة؟ ألن ترتاح قليلًا.

- أنا لم أرِد الذهاب قبل لقائك، شعرت أني لو سافرت قد لا نجد فرصة أخرى للقاء قبل رجوعي إلى أمريكا.

- هذا مجهود كبير! لقد وصلت اليوم وسهرت تنتظرني، كيف تسافر الأسكندرية اليوم، نم عندي الليلة وسافر بالصباح.

- لا! لا أطيق صبرًا! أنا على عجلة لأراها.
- سأتصل بسيارة توصلك إذًا.
- لا استأجرت سيارة.
- هل ستقود بنفسك أيها الأحمق، أنت متعب جدًا.
- لا تخف! العمر واحد والرب واحد.

عندما نطقها صدمت بشدة، سافر إلى بلاد الحضارة والنور ومازال عقله مظلم بهذه الأفكار، ولسانه ينطق بكلمات لا منطق لها.

نظر إليَّ بتوجم وضربني ضربات خفيفة على ظهري.

- يوسف مازالت تساورك التساؤلات والشكوك.
- ولماذا تتوقع أنها زالت ؟
- قرأت ما كتبت على صفحتك بالفيس بوك اليوم.
- لا أذكر ما كتبت.
- بل تتهرب

أمسك جواله وفتحه وقرأ كلماتي التي نشرتها على الفيس بوك

(حسنًا! إذا قلت لك أنه يوجد في الفضاء على بعد مائة يوم ضوئي كوكب يعيش عليه كائنات غيرنا وأذكى منَّا بألف مرة، هل ستصدق؟ بالطبع لا؛ ولكن بالمقابل لا تستطيع أن تكذبني، كما لا يمكنك نفي ما قلت ولا إثباته أيضًا، لأنه ليس لديك دليل على إثباته ولا نفيه، لا تستطيع نفي أو إثبات أي فكرة طالما ليس لديك دليل على إثباتها أو

نفيها، كذلك لا نستطيع إثبات وجود إله ولا نفيه، لأنه ليس لدينا أي دليل على إثباته ولا نفيه)
ألا تشفق على أبيك من قسوة هذا الشعور، إن شئت ألا تؤمن بوجود إله؛ فلا تتباهى ولا تجاهر أمامه بذلك.

أبي!! تذكرت لحظتها أن لي أبًا، لا أدري لِمَ عقلي ينسى وجوده دائمًا، قلبي يحمل له الكثير من الذكريات السيئة، الثقيلة، لكنه لم يكن موجودًا بحياتي يومًا أو أشعر به، لم يبخل عليّ بالمال، لكن ما قيمة مال بلا دفء عائلة، ما قيمة المال وأنا أنظر حولي ولا أجد من يسألني!! هل أكلت؟ هل شربت؟ هل أنهيت دروسك؟ لا أحد يلاحقنى أمام الباب لأرتدي ملابسي الثقيلة حين تمطر الليلة، لا أحد يراني، أو يهتم لتفاصيلي، كنت بحاجةٍ لأشياء كثيرة غير عمله وماله وشخصيته اللامبالية، كنت أحتاج يد تنتزعني من وحدتي الثقيلة، كيف أتذكر من ينساني، كيف أحب من لم يذقني طعم الحب يومًا.
هززتُ رأسي بلا مبالاة وأنا أنفض عن عقلي هذه الأفكار ثمَّ سألته:
- لا تقلق، لا يهتم.
- لا أعتقد ذلك يا ( يوسف).
- أجبني أنت على تساؤلاتي إن كنت تعلم ما لا أعلمه، إن كان يوجد هنا إله في البداية كيف وجد؟

وماذا كان يفعل قبل أن يخلق كل هذا الكون؟

- هل تعلم يا يوسف أنا لم أكن متديّنًا يومًا، ولا ضليّعًا بعلوم الدين، ولم يخطر ببالي أن أجد إجابة لهذا السؤال قط، ولا أدري من أين أتت لك هذه الأفكار الغريبة، لكني أثق بوجود الله حتمًا، لماذا لا تغلق تلك الأفكار بعقلك وتثق قليلاً بما يقوله مَن حولك.

- لأنهم لا يعرفون الحقيقة، إنهم يتوارثون الأفكار والخزعبلات دون أن يفكروا، إنهم جميعًا لا يفهمون لِمَ يعتنقون دينًا بعينه دون غيره؟

- لا أعتقد يا يوسف، أنا أؤمن بالإسلام، أنا أثق به كدين.

- أنا حقيقة لا أفهمك، كيف تؤمن به؛ ولماذا هذا الدين**!**.

- أعتقد يا يوسف، لو تُرك الناس لأفكارهم لضلوا رشدهم وما اتفقوا على حقيقة واحدة تُصلح أحوالهم جميعًا، هذا الدين اِجتمع عليه عدد ضخم من شتى بقاع العالم اِتفقوا أنه حقيقة تصلح للجميع، لو كان ديني هذا منهج بشري ما صمد طوال هذه القرون دون أن ينهار ويندثر، ولما اِجتمع عليه أكبر عدد من الناس لم يحدث أن اِجتمع مثل ذلك العدد على دين من قبل.

- لكنه ينهار فعلاً، كيف لا ترى ذلك، ألا تلاحظ المسلمين حولك وتلك البلاد المسلمة؟ إنها بلاد متخلفة غبية.

- هل أنت العبقري الوحيد في الكون الذي لاحظ ذلك ؟

تأفف قليلاً؛ ثمَّ أكمل قائلاً

- أنا لا طاقة لي بجدالك يا (يوسف)، أريد فقط ألا تقلق نفسك كثيرًا، يوجد لهذا الكون إله أكيد.

- ما الذي يعطيك كل هذه الثقة؟

- أدعوه دائمًا عندما أحتاج أي شيء فيستجيب.

- إنها الصدفة عزيزي، فلو كان هناك إلها ما استجاب لمثلك أبدًا، أنا لم أرك يومًا تركع لصلاة.

- لعله سيهديني يومًا.

- أنت تركت هذا البلد، وسافرت لتنعم بكل الموبقات والمحرمات؛ ثمَّ تأمل أن يهديك الله.

لم أتمالك نفسي خرجت مني ضحكة إستهزاء وسخرية قوية قبل أن أستطرد:

- أنت غبي جدًا يا (أحمد)؛ فهذا الإله الذي أعد جهنمًا، يحب تعذيب مخلوقاته، إن هداك فمَن سيعذب داخل الجحيم؟

لم يرد عليَّ ظل صامتًا قاطب الجبين ينظر إلى صفحة النيل وهو يدخن سيجارته، مرت لحظات صمت وأنا أشعر أنه إستنفذ طاقته، ولا يملك ما يجادل به، هو تمامًا كما الآخرين لا يعرف الحقيقة، يحب فقط أن يركن إلى تلك الفكرة التي تجعله لا يرهق عقله في البحث عن الحقيقة.

نظرت إليه مرة أخرى، وأنا أتعجب منه بشدة سألته:

- هل حقًا تدعو الله يا أحمد! كيف تأتيك هذه الجرأة؟! أنت تدعو مَن لا تعبد !!

- هل تعرف هذه الآية.. (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) هل ترى، الآية بلا شروط كثيرة يكفي أن تكون أحد عباده؛ فتدعوه وتطلب ما تشاء.

- هل تصدق هذه الترهات، ومن أدراك أنك عبده من الأساس ؟

- كلنا عباد الله!.

كنت أنظر إليه مبهوتًا، هل هذا صديقي الذي أعرفه، متى أصبح بكل هذه السذاجة والغباء وقصر النظر، هذا الرجل زادته الغربة بلاهة.

- مازالت أراك غبيًّا جدًا.

- وأنا أراك تائهًا جدًا.

- كيف تسلم لغيبيات لا دليل لديك بوجودها ؟

- بل الدليل بقلبي، أعلم أني مقصر، لكني أدعو الله كثيّرًا أن يعينني، أن يهديني، ألا أموت وأنا بهذا الحال أبدًا، ثمَّ ما دليلك أنت على تلك الخزعبلات بعقلك، ما إحتمال أن هذه السيمفونية الكونية شديدة التناغم تواجدت بالصدفة البحتة بلا خالق؟

نظرت حولي إلى حيث يشير بيده، صفحة النيل والسماء ولون القمر وكل ما يحطينا من جمال وسكون، إنه سؤال صعب جدًا أبحث عن

إجابتـه، مـا إحتماليـة أن هـذه السـيموفنية الكونيـة وليـدة الصـدفة، سـؤال يطـارد فكري؛ ولن أتنـازل يومًا عن كشف حقيقته.

## (٢)

(صفاء)

كنت أترنح بين الحقيقة والخيال، أصحو وأغفو ثمَّ أعود مرة أخرى أصحو وأغفو وأنا بين الاثنين في عالم وحدي، عالم مغلف بالخوفِ والقهر وشعور ضغينة قوي لكل الحياة، لم تكن متطلباتي كثيرة جدًا أو خرافية، أردت فقط أن أعيش بكامل قلبي دون قهر، أفتح جفوني المثقلة لا أرى إلا الحوائط البيضاء حولي، ورنين ذلك الجهاز الذي لا يهدأ خلف رأسي، لا أتحمل صوته ولا أتحمل ذلك الوجع من هذه الإبر المثبتة بيدي، أتمنى أن أعود للنوم أو أعود للموت، أن يختطفني التلاشي إلى العدم، لا أريد الإستيقاظ الآن، أكره إستيقاظي في هذه الحياة، لماذا لا يتحملني النوم ويبقيني في سُباتٍ بعيد عن صخب عقلي الثائر، يُصر النوم على طردي وكل ما بي يرفض النهوض، يرفض الحياة.

لم أتخيل يومًا أن أحمل بداخلي تعاسة تكفي لكل العالم حولي، لم أتخيل يومًا أن أقضي عدة أيام متتالية على فراش المرض تطوف حولي رائحة الموت والمطهرات الصناعية وأصوات الأنين المكتوم، لم أتخيل يومًا أن يصل بي الحال إلى هذا المكان المثير للغمِ.

- صباح الخير.

نظرت لمصدر الصوت من بين ضباب دمعاتي المعلقة التي لا تقوى على السقوط ولا يسكنها البقاء مكانها، يقف أمامي رجل طويل خمري اللون بشعر مجعد وملابس زرقاء، عُديسات سميكة تدل أن صاحبها قد أرهق بصره بقوة، هو أحدهم مرة أخرى، بدأ يزعجني وجودهم حولي، نظراتهم وسماعتهم كأنهم سيساعدونني أو يستطيعون تقديم أي شيء لي

- مرة أخرى؟

هل هكذا تردين التحية؟

- ........

لم أرد، أنا لا أريد أن يحييني أحد، أريد فقط أن أُترك وشأني!

لا طاقة لي بالحديث أوالكلام، أدرت وجهي في الإتجاه الآخر ولم أعره أي إهتمامٍ لعله سيمر، ويرحل دون أن اضطر لمزيد من الكلام. لكنه لم يفعل، نظر إليَّ وإبتسم محاولًا أن يبدو شخصًا مرحًا.

- أنا د/ (إبراهيم) النائب المقيم هذه الليلة، أردت فقط الإطمئنان والتعرف عليك إذا كنا سنضطر لقضاء هذه الليلة معًا.

- ......

- حسنًا لا تتكلمي، هل تساعديني لقياس ضغطك.

رفعت يدي وشمرت ساعدي ليقيس ضغطي، أمسك معصمي ونظر لساعته وأخبرني

- ما شاء الله! حالتك تحسنت؛ لكني أخاف عليكِ من حالتكِ النفسية، أعتقد أن كل ما تعانيه كان فقط لسوء حالتكِ النفسية، أخاف أن أعيدك إلى منزلك فلا تهتمي لحالكِ.

اِبتسمت ساخرة، أي منزل هذا الذي يتحدث عنه، كيف أخبره أني لا أعرف إلى أين أذهب إذا نوى أن يخرجني من هنا ؟

- سأكون بخير.

- يخبرني أبي دائمًا أنها أسوأ كذبة اخترعها الإنسان.

- ما هي؟

- أن يقول أنه بخير في نفس الوقت الذي يدرك فيه الجميع أنه ليس بخير.

- ..........

أدرت وجهي مرة أخرى بعيدًا عنه، لا أنظر إليه ولا أشعره بالترحيب، ما هذا الحديث الملل، كيف أخبره بطريقة يفهمها أن يصمت فقط.

- هل تعرفين، منذ أن دخلتِ هنا وأنا فضولي يلتهمني أن أعرف ما بك أتمنى لو أستطيع مساعدتك.

- ...............

فليلتهمك فضولك أو يقتلك، أنا لا يعنيني أمرك ولا أرحب بالحديث معك أو مساعدتك، أرحل من أمامي، اختفِ، اتركني وشأني. فلن أتكلم معك ، كيف يتجرأ البعض ويعِدوا الناس بما لا يستطيعون فعله!! امتلأ قلبي بوجع مفاجىء واقتحمت روحي سخرية قدرية لاذعة، وهل سيساعدني هو وأنا لا أعرفه، وقد تخلى عني من هو أقرب.

استدار إلى الجهة الأخرى من الفراش مصراً أن يواجهني وعيناه تتوسلني أن أرد، أجبرني أن أنطق حتى اتخلص من إلحاحه.

- لا يوجد ما أحتاج به للمساعدة.

ضم شفتيه وهز رأسه كمن خاب ظنه؛ ثمَّ قال بجدية مسرحية وهو يشبك ذراعيه أمام صدره.

- أشعر أن الحديث لم يتخذ مساره الصحيح بعد حسنًا سنبدأ من جديد، هل يمكنني سؤالك كيف حالك؟

- أنا بخير.

- حسنًا أتمنى أن أفهم ما يحمله قلبك الثائر ويزيد اضطرابه على هذه الأجهزة أمامي، لكني لا أريد أن أبدو شديد الفضول، هل يمكنك مساعدتي في ذلك بطريقة تحفظ لي ماء وجهي!

هززت رأسي وقلت بلا مبالاة وأنا أتجنب نظرة عينيه:

- أنا بخير.

- كيف وأنا أنظر إلى كل هذه الأجهزة حولك، وأتأمل هذا الذعر بوجهك من أول لحظة دخلتِ بها إلى هذا المكان.

قالها بثقة اِقشعر معها بدني، كيف أخبره أني أخاف حتى أن أخبره أني خائفة، أني لا أملك القدرة على الإعتراف العلني بخوفي.

- ...................

- تقولين أنكِ بخير والحقيقة أنكِ لست بخير ولو أن أحدًا نظر برهة إلى عينيكِ لعلم تلك الحقيقة بكل وضوح.

نظرت إليه متوترة يغلفني القلق والإحساس الجبري بالتزام الجواب عليه في حين أفضل الصمت، أكره ذلك الرجل وذلك الشعور، لا أحب الفضول ولا أحب هذا النوع من الإقتحام الإجباري لأفكاري، هل يستطيع حقًا ترجمة شعوري أم أن هذا كلام محفوظ يعيده لكل هؤلاء المرضى هنا، قد تكون حقًا طريقته المعتادة للتخفيف عن مرضاه.

نظر إليّ من تحت عدساته، ما معنى هذه النظرة؟ هل تحمل عيناه خيبة أمل، أم تخدعني أفكاري، كيف له أن يعلم ما تحدثني به نفسي!.

- أشعر أنكِ تتعجبين من تصرفي معكِ، هل تتساءلين لماذا أقول لكِ ذلك، أنتِ مريضتي، وأتمنى أن تعودي لمنزلكِ معافاة، وأتمنى أن تفهمي أن كل ما أحدثك عنه يوجد بداخلنا جميعًا بلا

استثناء، أنتِ لستِ وحدكِ في أي شعور مر بكِ مهما كان، فلا يوجد إنسان لم يكن فريسة سهلة لمشاعره يومًا.

بدأت أشعر بالاستسلام وبدأت قواي تخر أمام إلحاحه، وإصراره الذي يحيطني، لكني أود حقًا أن يتركني الجميع وشأني.

- لكني أختلف عن الآخرين، أنا لا أملك أمل.
- كيف طاوعك لسانك لقول هذا، يوجد هناك أمل دائمًا.

كنت قد مللت نفس هذا الحديث المعتاد عن الأمل، أشعر بمزيد من الضغط والتوتر عند سماعي نفس هذه الجملة التي يتشدق بها الجميع.

- لماذا يقول الناس دائمًا ذلك، يخلقون حولك هالة توحي أنك غير طبيعي، أنك لابد أن تتحلى بالأمل الذي يتحلى به الجميع، أنهم جميعًا في أفضل حال وأنك لابد أن تكون مثلهم بخير، لماذا لا يكف الجميع عن الإدعاء؟

- ها أنت اعترفت أنك لست بخير.

شعرت بغضب شديد جدًا، هل يحاول علاجي أم قتلي بسخافته!! ينصب لي أفخاخًا بمنتصف الحديث، وجهت له نظرة قاسية وددت لو أنها تحرقه وهو يقف أمامي، زممت شفتيَّ وقررت ألا أنطق مرة أخرى.

- أتفهم شعوركِ؛ تلك الكلمات تشعركِ بالمزيد من السوء تجاه نفسِك، تشعرين بها أن العيب بك، أنك لست جيدة كفاية، أو لست كفءً بما يكفي لتكوني بخير وتتحلي بالأمل كالجميع.

- هل تعلم أنا لا أحب هذا الحديث، اِتركني أريد أن اِستريح، لا طاقة لي بالكلام.

- وهل تتركينى أقضي الليل بكل مللـه دون أن تسرى عنى ببعض الحديث.

- أنا لست تسليتك! لا أريد الكلام ولا الحديث معك.

- لكنني أريد أن أتكلم ، أنا لا أريد أن أثقل عليك، فقط بعض الدردشة لتهوين الوقت في ليلة شتوية طويلة كهذه،أعلم أن الحديث عن الأمل يرسب داخلك شعورًا قويًا بالخيبة والخوف.

الخوف أنك إن لم تتصنعي تقبلك لفكرة وجود أمل، ستبقين وحيدة بهذه الحياة للأبد، الخوف من أنك لست جيدة كفاية، أن لا أحد يحبك، أنكِ لن تستطيعي فعل أي شيء ذي قيمة بحياتك، هل تعرفين أن هذا النوع من الخوف هو الذي يجعلنا نتظاهر أننا بخير أمام الناس.

في هذه اللحظة نظرت إليه وأدركت حقيقة أخرى، إنه هو من كان بحاجة للحديث، إنه بحاجة أن ينفض ما بخاطره أكثر من سماعه لما بخاطري، شعرت أنه ليس بتلك العبقرية ليترجم مشاعري، كان ببساطة

يتحدث عن مشاعره هو، وأعترف أنه ساورتني بعض الشفقة المؤقتة تجاهه وتأنيب الضميرلأني خيبت ظنه، لكني أزلتهما سريعًا عن خاطري، يكفي ما أحمله من الشفقة تجاه نفسي، إنه شعورٌ ثقيلٌ لا يحمله القلب دون أن يخور، كيف تكون طبيبًا ومسؤولًا وناجحًا ولا تجد العلاج لثقل قلبك، تلك المشاعر من الخيبة والخوف لا تليق إلا بمريض. هذا الطبيب المعتوه على حق بشيء واحد، أنا أسمع صوت خوفي يخبرني دائمًا؛ أني لست جيدة كفاية لفعل أي شيء، أسمعه ليلاً ونهارًا،أنت ضعيفة... أنتِ فاشلة.

أنا فاشلة.

فشل يدفعني لأقف مستسلمة على حافة الأمور،

- لا يملك الجميع خيارًا آخرًا أفضل من الإستسلام.

نطقتها بصوت متخاذل يغالبني وأغالبه بذبذباته المترددة.

- بل دائمًا هناك الخيار الأفضل، صحيح أننا لن نغير كل الظروف حولنا، ستمر بالحياة أشياء كثيرةٌ خارجة عن سيطرتنا وستقهرنا، لكن يتوجب علينا التعايش معها؛ لأن أسوء ما نقدمه لأنفسنا في هذه الحياة هوالإستسلام، لا تتبني اختيارات الناس من حولك، لا تثقي بالناس أكثر مما تثقين بنفسك، الحقيقة الأكيدة في هذه الحياة أن الآخرين لن يهتموا بكِ ولن يبقَ

جوارك في النهاية سوى نفسك، لذلك أرى أننا نتمسك بهذا الخوف من فقدان الأمل داخلنا بلا أي دليل.

لم أفهم ما يقول، شعرت أنه مصاب بخلل ما، ولا يتحدث إليّ، بل يتحدث إلى نفسه، هل الطبيب الذي من المفروض أن يساعدني مصاب باضطراب نفسي ويهذى مع مرضاه، ليت النوم يخلصني من هذه المأساة التي أمامي.

أغمضت عيوني محاولة النوم؛ ومدعية النعاس لعله يرحل، ويتركني لأفكاري، أين يُباع الآن الأمل؛ فأشتري!! لماذا يقولون أن الأمل مجاني، هل هذه المخاوف ستزول كلها أم ساتعايش معها كما يقول هذا الرجل، سمعته يهذي بنفس كلماته مرة أخرى رغم ادعائي النوم، إنه حقاً يحدث نفسه!

- الأمل موجود، الأمل هو كل قرار تتخذينه عندما يخذلك عزيز، ذلك القرار بأن تنهض لدعم شخص آخر بدلاً من استسلامك، وأن تتمسك بذلك الشخص الذي يدعمك للوقوف، إن مخاوف حياتنا تشبه ريحاً عاصفة تهب علينا من كل جانب ونحن نقف في مكان متسع بلا حصون ولا مساعدات، مضطرين لمواجهة العاصفة، أفضل ما يحدث أن يكون هناك من بجوارك يحتضنك، فإن لم يكن يملك قدرة إيقاف العاصفة

فسيمكنه احتضانك وطمأنتك وتدفئتك حتى تمر الريح بسلام، حتى لو لم تخبريهم بما يحدث معك، حتى إن كنت تظنِين بأنهم لن يفهموكِ أو لا يملكون أية حلول لنجدتك، يكفي وجودهم جوارك.

أصررتُ على عدم متابعة الحديث وإدعاء النوم، كيف أخبره ببساطة أني لا أملك هذا الشخص، ليس الجميع سعيد الحظ لامتلاك مثل هذا الشخص في حياته، شعرت بوقع خطواته تبتعد قليلاً، وملأني شعور الإمتنان أنه ملَّ أخيرًا وقرر الإبتعاد عني، ثمَّ خاب الأمل كالمعتاد عندما شعرت به يقترب مرة أخرى ويقول:

- وإن لم يتواجد، كوني أنتِ هذا الشخص حتي تجديه.

فجأة فتحت جفنيَّ بلا وعي، شعرت أن أحدهم ألقى حجرًا ببركة ساكنة داخلي، أثارها بقوة بموجات متتالية من الأفكار التي كانت أمامي ولكني عجزت عن رصدها، فاجأتني الفكرة، إذا كان الجميع مخذول داخله من أمر ما والجميع يبحث عن نفس هذا الشخص حوله، فلابد أن نكون جميعًا هذا الشخص لإنسان ما بحياتنا.

جميعنا مُنقِذ ومُنقَذ...جميعنا متألم وحاضن... جميعنا مخذول؛ لكن يمكنه تقديم نوع دعم ما... رحل أخيرًا وتركني!

رحل أخيرًا، لكن بعد أن أثار كل فضولي بكلماته الأخيرة.

# ( ٣ )

(يوسف)

عندما كنت صغيرًا كانت تواتيني أحلام اليقظة دائمة أن أعيش جوار أمي، كنتُ أعيش داخل كابوس فظيع وكل ما وودته أن أكون جوار أمي؛ مثل أي طفل آخر، راودني حلمٌ أني فقدت أبي بدلًا عن أمي، كنت أدعو الله دائمًا ليقلل ذلك الوجع في صدري، لكنه ظل موجودًا يزداد ويزداد، دفعني هذا للتساؤل كثيرًا لماذا يعذبني الله هذا العذاب؟!

إذا كان هناك ربٌ رحيم؛ لماذا لا يخلع هذا القلب الوهن من صدري، ويخرجني من سجن مشاعري، كل ذلك دفعني لأن أؤمن بعدم وجود إله أو أنه يوجد إله خلق الناس لتعذيبها فقط، ليذيقها التشتت والحرمان والوجع والحنين والأنين، لابد أنه إله سادي إن وجد في الأساس.

أعتقد أن الفكرة كلها جاءت من تلك النفوس التي تتغذى على وهم الأمل، وتلك اللصوص التي تخضع هؤلاء الأغبياء لنفس تلك الفكرة، الأمل في العدالة يومًا.

تمخضت لديهم هذه الأساطير من خيال بعض مَن يحتاج لأمل يتغذى عليه؛ حتى يتحمل قسوة الحياة، مجرد فكرة، يرتاح لها بعض الناس أو مخدرًا يضعه الأغنياء للفقراء في طعامهم، ورغم ذلك أنا أثق تمامًا أنه

لا أحد يتحمل حياته، إن الحياة عبء كبير مضطرين جميعًا لحمله فوق رؤوسنا رغم أنوفنا.
لا أستوعب أبدًا وجود أي ذنب كبير يجعلني أستحق هذه الحياة الجافة وحيّدًا بلا أم، ولا أب رغم وجوده.
في صغري راودني دائمًا إحساس بالذنب، وراودني شك كبير أصبح يقيّنًا في عدم وجود أي رحمة بهذه الحياة، أنا هنا حبيس عالم صغير من الفوضى والخوف الشديد والوحدة أورثني الكثير من الغضب، مشحون بطاقة غضب لا تهدأ ولم أتمكن من التعامل معها، كم كنت وحيّدًا جدًا.
لم أستطع الإقتناع بأي دين، ذهبتُ إلى الكنيسة وحاولت السكون جوار العذراء، لكن طاقتي لم تستوعب ذلك التسامح المصطنع، حاولت قراءة التوراة، لكني لم أتحمل ذلك الغضب الذي شعرته بداخلها، وتأملت حال المسلمين من حولي، وازددت إيمانًا أن لا دين يدفع معتنقيه لهذا الحال، ويكون دينًا صحيحًا أبدًا.
كما أن حياتي مع أبي في هذا البلد الخليجي جعلني أرى الإسلام على حقيقته، دين ذكوري بحت ألّفه رجل ما، وأعطى كل الصلاحيات به للرجل، ووأد حياة المرأة في بيت رجل تحت شرعية تامة للتحكم بها وبعدد أنفاسها، أو قد تكون أكثر من امرأة في بيت رجل واحد تحت خيم سوداء؛ نفت عقلها ونفت معه كيانها، ورضت بالحياة كائنًا بلا قيمة، دين للنخاسة المشرعة.

لم أقتنع بأي من هذه الأديان التي يزعم متبعيها أنها أديان سماوية، جميعهم بالغوا بشيء ما أكثر من الطبيعي، وخُيل إليهم عقلهم أساطير كتلك التي تأتي من عالم ما وراء العلم والطبيعة، خزعبلات مجرد أساطير لا أفهم كيف اقتنعوا بها، من يستطيع شق البحر بعصا، ومَن يحيي الموتى، ومن أين تأتي كل هذه الأفكار التي لا تصلح إلا أفلامًا تجارية بهوليوود، جميعهم كاذبون تبعهم مغفلون، أنا فخور أني مِلتُ بعيدًا عن كل ما يعتنقه هؤلاء منذ سن السابعة عشر.

رغم ذلك مازالت تساورني تساؤلات كثيرة عن القدر وعن جبروته وسطوته، لكننا في مجتمع السؤال عن مثل هذا لا يجوز وإن أُجيب عليه يكون ردًا ساذجًا عن ضرورة عدم التفكير أو رد بكلمة «حرام».

وأنا لا أستطيع أن أستسلم، سأجد الإجابات لكل شكوكي، لن أقبل أن أكون ضمن القطيع بلا علم ولا فهم ولا حقيقة.

رغم خلافي مع أحمد في وجهات النظر، إلا أننا كالعادة لا نختلف، فما أجمل أن تحتفظ بصديق لك، تبوح معه كأنك تبوح لذاتك، هو هدية الحياة الدائمة لي، بيننا عهد غير منتهي الصلاحية من الصراحة دون صدام، رغم سفره أمريكا وابتعاد المكان، مازال هو الوحيد القادر على إخراج مكنون قلبي من داخلي، عشنا معًا في الغربة فترة ليست قليلة،

وجوده الدائم رغم بعد المسافات يملأ ذلك الفراغ الذي تركته أمي بعد رحيلها.

حاولت أن أتمالك نفسي ولا أجادله؛ لكني لم أستطع كبح أفكاري، التساؤلات ذاتها تتسارع إلى ذهني دون أن تهدأ، وهذا دفعني لسؤاله :

- اِستخدم عقلك يا صديقي، لماذا يخلقنا الله لنمثل تلك الأدوار العبثية في الأرض**!!** لماذا يخلقنا ثمَّ يتركنا نتعذب كل هذا العذاب**!!** وأين الله من موت أمي ورحيلها عني وأنا في شدة حاجتي إليها، كيف يكون عدلاً حقًا ونحن نتألم طوال الوقت على هذه الأرض لأسباب لا تنتهي ولا ذنب لنا فيها، لماذا لم يتركنا بالجنة نستمتع برحمته دون تعذيب على هذا الكوكب البائس، ما السبب؟ أعطني إجابة منطقية واحدة فقد عجز عقلي عن تفسير تلك الرحمة الوهمية**!!**

- هل تعرف يا (يوسف) سمعتُ يومًا رجلاً يتكلم عن سورة الكهف، هناك شخص غامض قابل النبي موسى أخذه معه وطلب منه الهدوء والصبر طوال الوقت، ذلك الرجل كانت كل أفعاله تناقض المنطق، بطريقة عجز معها سيدنا (موسى) عن الصمت والصبر الذي وعد بهما، هل تعلم أن أبطال تلك الحكايات جميعًا لم يذكر القرآن أنهم عرفوا أسباب هذه الأفعال، لقد عرفناها نحن من تأويل القرآن، هل تعلم أن الأم والأب في هذه القصة ربما ظلوا يدعون على قاتل ابنهم طوال حياتهم، إن هذا الرجل الغامض في هذه القصة يمثل يد القدر، قام بكل تلك

التصرفات التي تبدو لك غير مفهومة أبدًا طوال الوقت، لكن في نهاية القصة تعرف أنه يتحرك بحكمة بالغة لأهداف بعينها، غضب موسى في الآيات يشبه غضبك لموت أمك، إن القدر أحيانًا لا يمكننا إدراكه بعقولنا الصغيرة وقد تبدو تصرفاته بشعة معظم الوقت، يبدو عبثي، فوضوي، قاسي وظالم؛ لكنه يتحرك دائمًا لفائدة ما لا تدركها وقد لا تدركها طوال حياتك، لذلك عليك أن تؤمن به كما هو دون حمل ذلك العبء داخلك ودون إنهاك نفسك بمحاولات التفسير.

- منذ متى تسمع هذه الأشياء؟

- أنت لن تكون مثقفًا حقًا؛ إن لم تحاول البحث بنفسك في كل شيء، وعن كل شيء.

- أعتقد أنك تشاهد أفلام الخيال كثيرًا في وحدتك، وأصبحت تصدق الأساطير، كيف تعرف أو تتأكد أن هذه الترهات الفارغة حقيقة، كيف تستشهد بكتاب لا أصدق به من الأساس.

- صدقني! الغربة والوحدة علمتني أن أعيد ترتيب الأفكار فأكثرها خيالاً قد تكون هي الحقيقة الوحيدة الصادقة المسلم بها في كل ما حولك.

- يا لحكمتك البالغة التي توصلت إليها خلال بحثك!

ابتسم ونظر إليّ بطرف عينيه، قائلا :

- لا تسخر مما أقوله، الغربة والوحدة تُعلمان الكثير.

- وما الكثير الذي تعملته!.

- ما تعلمته من كل الشدائد أن الأقدار محيرة، فوقت المحن لا تحاول فعل  شيء إلا التسليم للأقدار.

رددت ساخرًا، بإبتسامة لزجة:

- أخبرني إذًا أيها المثقف، كيف تفسر الأقدار كل هذه الكائنات التي لا نأكلها ولا نربيها ولا تنفعنا بأي شيء! لماذا يخلقها إلهك أيها المفكر؟!

- من أين تدرك أنها لا تنفعك!.. إن هناك أمر جلل  يحدث في هذا الكون أكبر من مداركنا وإدراكنا.

- قد أصبح هذا الأمر الجلل مهمتي الأساسية التي لابد أن أكتشفها.

- يا (يوسف) قد لا تستفيد أنتَ من بعض هذه الحيوانات؛ لكنها تشكل جزءًا من منظومة الكون، ذلك التوازن البيئي الذي درسناه في المدرسة، ألا تتذكر، فبعض الحيوانات تتغذى على بعضها حتى لا يسود أحدهم ويسبب الدمار للبيئة ولولا القرد والفأر والضفدع لما اِستطاع العلماء إختبار كثير من الأدوية التي يستخدمها كلانا في العلاج.

- أنا لا أستطيع الإقتناع بأسبابك، تبدو جوفاء، خاوية، ككل شيء حولنا.

- أنا أتكلم عن قناعتي الشخصية، كما أني أحاول التفكير معك بصوت عالٍ.

- حسنًا، أخبرني، لماذا إذاً خلق إلهك النار؟ أي إله يعذب من كتب عليهم الكفر؟

- لماذا لا تسأل السؤال كاملاً؟

- لا أفهم قصدك!!

- لماذا لم تقل أي إله يخلق الجنة ويكافيء من كتب عليهم الإيمان؟.. لماذا استحقوا المكافأة؟

- أنت تتفلسف؛ لأنك لا تعرف الإجابة.

- لا تعنيني الإجابة بقدر ما تعنيني فكرة العدالة، فلو لم تكن هناك عدالة بعد الموت؛ فإن هذه الحياة بلا قيمة، خاصة أن عدالة البشر لا تكفي رد هذه المظالم والمآسي والظلم القابع حولنا في العالم، هل تعتقد أنك ستكون سعيّدًا عندما يغتصب أحدهم حقك وتعلم أنك بلا أمل في محكمة نهائية لتقتص!

- لذلك أجده السبب المنطقي الوحيد لإختراع بعض البشر فكرة الدين، إنه المسكن الوحيد للظلم القابع حولنا.

- ليس اختراعًا؛ بل إن فكرة أن الحياة أوجدت نفسها من كتل مادية صماء بالصدفة، هي فكرة غاية في السذاجة، فمن أين إذًا تتواجد مشاعرنا، تلك الكيانات الفياضة داخل خوالجنا، التعقل والإنسجام، الفرح والحزن والحب والبغض، من أي شيء أوجدت نفسها! ما الحب، ما الجمال، ما الحرية، ما هو كينونة كل شيء معنوي؟ لو كان الوجود اعتباطًا، لماذا لا تتواجد الحياة في الصخر والحصى، لابد أن هناك فارق، يجب أن يكون هناك خالق أعلى منها يضيف عليها من وجوده، ويمدها من إرادته.

((((((الله أكبر..الله أكبر...))))))

دوى الصوت في أرجاء السماء، نظر إلى أحمد وضحك.

- هل تعلم.. لقد قمت باستفزازي أكثر من اللازم، لذا سأقوم لصلاة الفجرلأول مرة بحياتي الآن رغم أنفك وبالمسجد.

نظرت إليه غاضبًا.

- هل ترحل الآن وتتركني من أجل صلاة لم تصلها من قبل أبدًا، لم أكن أعلم أنك تحبني بكل هذا القدر.

قام متعجلاً كي يلحق الصلاة بهذا المسجد الذي يتردد منه الآذان، أمسك يدي اعتصرها بقوة، ثمَّ احتضنني بشدة؛ قائلاً:

- اعتني بنفسك يا صديقي، فلا أعلم متى نلتقي مرة أخرى.

- أيها الغادر! ترحل سريعًا عني، إياك أن تعود إلى أمريكا قبل أن نلتقي مرة أخرى.

- قل إن شاء الله يا يوسف... إن شاء الله نلتقي.

ربطت على لساني..

- بل سنلتقي قبل سفرك في كل الأحوال.

هز رأسه مستسلمًا لعنادي ثمَّ رحل؛ لكنه توقف مرة أخيرة واِلتفت إليّ مناديًّا:

- (يوسف)

اِلتفتُ إليه نظرًا فأكمل :

- لا يجوز أن تبني من وعيك الشخصي الذاتي قناعة وحكمًا تُدين بها الناس، وتحكم بها على أشياء لا تعرفها، اِقرأ، تعلم، اِسأل.

ثمَّ رفع يده ملوحًا بالسلام ورحل أخيرًا، وهو يدير رأسه ويرحل.. وأنا أنظر إليه ولا أفهمه.

تغير أحمد، تغير صديقي وأنا لن أتركه يسير مثلهم بالقطيع دون أن يفهم.

لابد أن أكشف لك كل الحقائق يا صديقي العزيز.

## ( ٤ )

(إبراهيم)

قضيت عمري كله، شبابي وأجمل سنين عمري أتنقل بين الكتب، كل أنواع الكتب، لم أملك متعة تضاهيها في كل حياتي، حتى أصبح الجميع يعرفون (إبراهيم)، تلك الشخصية المعقدة التي لا تحب الحياة ولا تفهمها، لكن هيهات أن يفهموا ذلك الشعور الذي ينتابني حين أتعلم أو أفهم شيئًا جديدًا، أنا دائمًا يصاحبني كتاب في المواصلات، في الزيارات وفي تلك الأوقات التي تقضيها العائلة في المراسم والمناسبات المملة التي لا تفيد بأي شيء سوى مزيد من الترهات والنميمة والحديث غير المفيد.

تجاهلت كل تلك التفاهات التي تحشر عقلي بلا داع وحشوت رأسي بالعلم، كل أنواع العلم المختلفة، لم أكن من المهتمين بالفن أو الشعر أو الأدب، أقرأ فقط كتب تزيد عقلي علمًا وفهمًا، لا أعرف في الفن غير تلك الألوان المستخدمة في تلوين الخلايا والأنسجة وصور المراجع، ولا أعرف من الموسيقى سوى صوت أجهزة قسم العناية، وعربة الطوارىء وصفارتها، ولا أرى جمالًا فوق جمال شفاء حالة كانت على مشارف الموت؛ فبث الله بها الحياة من جديد، أعترف أن لي منطقًا

مختلفًا لكنه يعجبني رغم أن الجميع يشعرون تجاهي بالشفقة، لكنها حياتي، وأنا أملك تمام الحرية لأعيشها كما أريد.

كان أبي السبب منذ البداية، لقد تربيت في بيت جدي القديم الواسع الذي رفض أبي تركه أبدًا، كان يخبرني دائمًا أن هذا المنزل ثروة لا تقدر بأي ثمن، كان بداخله مكتبة تتوراثها العائلة منذ أجيال، بها الكثير والكثير من الكتب العتيقة القديمة، في هذه المكتبة زحفت أول خطواتي تحت قدمي أبي وورثت منه حبه للكتب.

لكني لم أرث منه نفس نجاحه في الحياة، فحين تزوجت لم أستطع إحتواء أسرتي كما فعل أبي مع أمي، ولم تتحمل زوجتي حياتي الرتيبة، كما تحملت أمي، مازلت أذكر أول يوم دخلت منزلهم لطلب يدها كان زواجًا روتينيًا كأي زواج تحت إلحاح أمي التي تريد أن تحمل أبنائي، فلم يكن لهما ابن آخر وكم تمنت أن يمتلئ بيتنا بالأحفاد، لم يكن الأمر في حسباني بهذه الفترة، لكني لم أعترض في كل الأحوال؛ لا بد أن أتزوج وأنشيء أسرة مثل كل رجل، حين رأيتها أول مرة لم أجد بها أي عيوب منفرة، فلم أعترض كما أنها أعجبت أمي، ونالت رضا أبي، وكذلك نلت ترحابًا كبيرًا من أسرتها، اعتبروني ابن أصول، كانت سيرتي طيبة بالنسبة للكثير من الشباب في عمري، لا سهر ولا تدخين ولا نساء أخرى بحياتي.

انتظرت أن أشعر بتلك الأحاسيس التي يصفها البعض لكني أعرف أني مختلف، وقد يكون هذا من ضمن اختلافاتي، بين ليلة وضحاها انتقلت إلى منزلي، في تجهيزات سريعة جدًا تم الزواج والفرحة.

لم أعشقها بالمعنى الدارج بالمجتمع، لكنها أعجبتنى وتمنيت أن أرضيها، تمنيت أن أؤسس أسرة وأحتويها كما فعل أبي، لكن التغيير صعب ومسؤولية هذا القرار ضخمة، ولم تتحمل زوجتي نمط حياتي، بدأ يتسلل إليها الملل والكآبة والحنق، وأصبحت دائمة الغضب، حاولت الخروج معها، حاولت مشاهدة الأفلام التي تعجبها، حاولت مسايرتها في تلك المناسبات العائلية التي أمقتها، حاولت التسوق إلى جوارها، حاولت فعل المزيد والمزيد، لكني لم أحب فعل ذلك، لم أستطع فعل ذلك برغبتي مهما اِدعيت، ولا أدري لِمَ كان ذلك يؤلمها، ألا يكفيها أني حاولت قدر استطاعتي الخروج من ذلك البرزخ الذي أحبه لحياة أمقتها، ألا يكفيها أني حاولت تغيير بعض من نفسي كي نلتقي في مساحة وسطى، ألا يكفيها أني أختنق هناك بالخارج عن حياتي!!

لا أفهم لِمَ لَمْ يكفيها؟

ابتعدنا.. ابتعدنا ابتعادًا كبيرًا خلال عدة شهور قليلة، اتسعت المسافات، وتشوهت النفوس، لم تكف خلال ذلك الوقت عن اعتباري إنسانًا معقدًا غير طبيعيٍّ، وقد انتقلت أفكارها الصامتة في عينيها إلى لسانها الذي لم يكف عن قول تلك العبارات كمَن تعايرني، اعتبرتني دائمًا زوجًا سيئًا،

وصديقًا غير حقيقي، لم أستطع جذبها إلى حياتي ولم أستطع التأقلم مع حياتها، وأصبحت الحياة بيننا مؤلمة، لكني تحملتها، خاصة بعد أن علمت بحملها، فلا أريد أن يتعذب ابنى بين عالمين لا يلتقيان، حاولت وحاولت، إلى أن انتهى كل الأمر يومًا، وقررت الرحيل، حاول أهلي وأهلها؛ لكني كنت على يقين أنها تختنق، ذبولها وألمها كانا إشاراتان قويتان، لذا تركتها ترحل إلى عالمها، دون لوم أو تعذيب أو تأنيب.

ورغم ذلك رحلت وهي تنظر لي بلوم؛ كأني أنا مَن تخلى عن حياتنا، مازلت أذكر ملامح وجهها بهذا اليوم كانت دموعها تسيل على وجهها بشدة وأنا حائرٌ لا أفهم؛ ماذا أقدم كي يكون الأمر بلا ضغينة، كنتُ عاجزًا عن الإختيار بين أن أبقيها أسيرة، أو أرحمها من حياتي، ماذا أفعل أكثر مما حاولت وعلام تلومني نظراتها؟

في الليلة الماضية وضعت ابنتنا، في الليلة الماضية رأيت نظرة عتاب مختلفة، تشبه انقطاع الأمل، وغدا أنها أصبحت غريبة تمامًا عني، وكم أصابني ذلك بالحزن، خاصة حين حملت بين يدي ابنتنا وشممتُ رائحتها وعلمت ما اقترفت يدانا، واحترتُ هل كان قراري صحيحًا أم كان وسيلة هروبي، شعرت لحظتها لأول مرة تلك الإنتفاضة العميقة التي ارتعد لها قلبي، ما هذا الفيض الغريب الذي يتصاعد بداخل صدري، هل هذا طعم الحب، هل أنا لستُ غريبًا عن كل البشر، هل أملك قلبًا كالجميع، يحن ويهفو، وتلك الصغيرة في هذه اللفائف قد

سيطرت على هذا المكان العميق المهجور بأعماقي، كيف سأعوضها عن هذا الانفكاك الذي ستواجهه، أعتقد أن أقل حقوقها لدي أن أعتني بها، أن أضعها فوق سلة أولوياتي.

في تلك اللحظة داخلني شعور آخر من عمق سحيق، شعور بدأ يطربني، شعرت أن القلب ليس مجرد مضخة لتوصيل الدم، لكنه كيان ينقبض بشدة عند رؤية من تحب، عند الحب، لتنبيهك أنك تحب، أنا أول مرة يُخالجني هذا الشعور الحلو وهذه النشوة العارمة، في تلك الليلة سهرت بالمكتبة لأول مرة أقرأ قصائد شعر وأستمع إلى الموسيقى، وأدندن معها، أشعر أن روحًا خفية تسللت إليّ، أشعر أني أنسلخ من عالمي بملء إرادتي ودون أن أشعر بالحزن، ما هذا الوهن الجميل الذي يصوغ مشاعري، كيف تغافلت عن كل هذا الجمال حولي، كيف لم أنظر يومًا للسماء وألاحظ ألوانها، وكيف لم أنظر للقمر وأرى وجهه، أين كنت غافلاً طوال العمر!

لم أستطع النوم بالليل وأنا أفكر بها وبمستقبلها، يلهبني الخوف من أن تتألم يومًا، من أن تقع في الحب فتتعذب، خفت ألا تحقق أحلامها، ألا تصل لأهدافها، ألا تتعلم ما تحبه، أن تتزوج ولا تنجح بحياتها، خِفتُ عليها من كل أنواع الهواجس كعاشق حقيقي.

عندما بزغ الصبح، ارتديت ملابسي، وشربتُ فنجانين من القهوة حتى أستطيع تحمل يوم كامل من العمل دون نوم ولا راحة، لكني لم أذهب

إلى عملي كالعادة، بل ذهبت إلى طفلتي لأراها، ولم أجدهم بالعيادة، رحلوا إلى المنزل، وانكسر قلبي، كيف سأرى طفلتي بعد الآن!..

هل سيكون عليّ الاستئذان حتى أرى جزءًا من روحي، هل سأنتظر الوقت المناسب كي ألقاها، أقبلها وأحملها بين يديّ، هل سآخذ مواعيد مسبقة قبل أن أشتم رائحتها.

ذهبتُ إلى عملي والهم يكوي قلبي ويلهبه، وخطواتي تتخاذل وهم الدنيا كله فوق رأسي، كان مجرد تغيير ملابسي يشعرني بالكثير من المجهود، رميتُ جسدي على أقرب كرسي في غرفة الأطباء، وأنا لا أقوى على حمله.

عندما اقتربت الممرضة:

-دكتور ابراهيم؛ هل ستأتي لتسلم الحالات!.

مضطر لحمل جسدي على القيام، مجبر على السير كعادة كل شيء في الأيام الماضية، مضطر لتحمل مواجهة يوم كامل دون أن أرى وجهها، ذهبتُ لتسلم الحالات، مشيتُ مع زملائي بين أسرة المرضى أحاول تمالك نفسي كي أتكلم ولا أظل صامتًا بينهم مثل الحجر، كنت أفتش بنظري بين المرضى، حين رأيتها، ذهبت بنظري سريعًا عليهم؛ ثمَّ عدت مرة أخرى إلى نفس السرير، لم أرَ مريضة، أنا أرى أمامي كيانًا ما، ليس مجرد حالة كما اعتدت أن يحدث معي.

لِمَ سرت تلك القشعريرة في جسدي؟ نظرت حولي لباقي زملائي، خفت أنهم لمحوا تلك الرعشة التي انتفضت بها أوصالي، حاولت التركيز مع حديثهم، لكن نفسي غالبتني فعدت بخجل أنظر إليها مرة أخرى، مجرد نظرة خاطفة، حاولت أن أركز في عملي فعادت نفسي تغلبنى بنظرة سريعة للمرة الثالثة.

كل نظرة ينتفض جسدي وتنتابني نفس هذه القشعريرة، هل أنا مصاب بمرض ما هذه الأيام، قد يكون فيروسًا أعراضه نقص المناعة العاطفية ووهن المشاعر، كيف لم أقرأ يومًا عن مثل هذه الحالات؛ وماذا يحدث لي هذه الأيام، كنتُ خائفًا أن يكون الجميع شعر بي ويتغامز عليّ، خلت أنهم يضجون بالضحك من وراء ظهري، لم أفهم ما هذه الربكة التي حدثت بداخلي.

أخرجني من صمتي صوت يقول:

- د/ (إبراهيم)، لم نسمع صوتك حتى الآن، تعالى معي لترى حالة هذه السيدة.

ذهبت إلى سريرها، وأنا ممغنط لا أكاد أسمع منه تفاصيل، لم أعرف علاماتها الحيوية، لم أسمع ما سبب ضخات قلبها الشديدة وضرباته المتسارعة، حاولت التركيز لكني بالكاد كنت أسمع أو أفهم، عدة دقائق

بسيطة مرت كساعات طويلة، اكتشفت خلالها أني تائه وسط الصحراء ينهكه العطش ولا ترحمه أشعة الشمس، تائه لم يدرك أنه تائه.

دخلت بعدها إلى حجرة الأطباء وقلبي ينتفض، ولا أدري كيف سيمر هذا اليوم؛ وماذا يحدث هنا.

فتحت ملف المريضة وبدأت بقراءة حالتها بجدية، مراجعة تحليلاتها وعلاماتها الحيوية، ألم حاد بالقلب، زيادة معدل النبض، وهبوط شديد بالضغط.

المريضة تمر بصدمة عصبية وظروف نفسية، لا تأكل ولا تشرب جيدًا منذ عدة أيام.

يا تُرى ماذا حدث لكِ لتصلي إلى أحد الأسرَّة بهذا المشفى.

أين يذهب خيالي بكِ الآن، لماذا لا أفتح كتابًا لأبحث عن حالتك، لِمَ أبحث عن علاجك خارج الكتب، همسًا غريبًا عن صوت عقلي المعتاد يداعب فكري.

هل هي متزوجة؟ ماذا جرى لها؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

يا لكَ من مراهق صغير!...

# ( ٥ )

(أحمد)

عندما تركتُ يوسف وقررتُ الذهاب للصلاة؛ لا أدري هل كان دافعي إلى ذلك عنادي معه؛ أم أن هناك قوة خفية دفعتني لفعل هذا الآن، وكأن هناك من هتف بعقلي إما الآن أو لا للأبد!..

يسوقني همٌ كبير أحمله بقلبي ولا أعلم له سببًا، أفكر ب (حُور) وأمي وأبي كأنه يفصلنا وديان طويلة وسهول لا تنتهي؛ وليس بضع ساعات ودقائق.

مدفوع بكل تساؤلات (يوسف)، أركن فيها إلى قلبي، لا أستطيع الرد على تساؤلاته أو التفكير المنظم بها، أعلم أن هناك ما تشعره بقلبك يعجز عقلك عن حله، لكن السبيل لمعرفة الله لن يكون عن طريق التأمل في ذاته، نحن لا نراه ولا نعرفه؛ بل يبدأ بالتأمل في خلقه لنتعرف عليه، تلك الدقة في النظام، الإبداع، التناسق، والترتيب في الصنع دون خلل لملايين السنين، هناك تصميم وإرادة وقدرة، وإن لم تره العين، فسيراه العقل، هناك قوى أكبر من إدراكنا تنظم كل ذلك.

العقل أقرب الأماكن بداخلك؛ لكنه يشكل الكثير من التهديد والخطورة، وعليك توخي الحذر عند الدخول إليه لأنه ينجح دائمًا بحبسك في عباءة

أفكارك، التي أتساءل أحيانًا لماذا لا يوجه تلك الأفكار للسعادة والمرح والإستمتاع بالحياة؛ بدلاً من توجيهنا الدائم إلى خيبة الأمل والخوف والحزن والحيرة.

تدفعني تساؤلات كبيرة حول عقلي، كيف يعمل ولماذا لا يهديني بدلاً من إضاعة وقتي في ملذات غير حقيقية، تلك الخطيئة التي كنت أفعلها في خفاء واستحياء، أصبحت أُعيدها بجفاء وبرود؛ كأنما أصبحت البيئة صالحة لها، اشتد عودها وتصلبت وأصبحت أفعال اعتيادية، حتى إذا ما ظهرت الفضيلة جوارها، أصبحت ثقيلة لا تتحملها نفسي، ويطردها العقل ويستنكرها كأنها الشيء الغريب.

العقل، مَن استطاع أن يدرك الحقيقة الكاملة حول عقله، إن الأفكار كانت تأتي وترحل والمشاعر تأتي وترحل، دون أن أركز على فعل شيء بالطريقة الصحيحة، هل فعلت ما أتمناه حقًا؟ هل سلكت طريقي كما ينبغي؟ أنهكت عقلي في مشاريع ثانوية بالحياة؛ متغافلاً عن الأمور الأهم ، لم أتواصل إلا مع أشياء مادية بحتة، لا تُشبع شغف الروح، ليت هناك زر إعادة تشغيل للحياة، كنت لأعيش كل لحظة من عميق قلبي، أملأ روحي من عبق الحياة الحقيقية.

وجب على العاقل أخذ الحياة على محمل الجد قبل رحيله؛ فإنه لا يعلم متى يفاجئه لقاء النهاية، ولا يدري متى يُستدعى! أنا من اليوم سأمنح كل لحظة حقها من الواجب عليها، من الشعور والإمتنان والتواصل

والشغف، غريب أن تتعرف على عقلك بعد كل هذا العمر، أن تشعر أن العالم الذي ظننته دائمًا بالخارج، كله يقبع بداخلك في كل فكرة مرت بعقلك يومًا ولم تتقنها، بكل شعور مر بك لم يعد، في كل اختلاجة قلب شعرت بها في وجود من تحب، العالم الحقيقي يقبع بداخل نفوسنا وليس بكل تلك الأحداث التي تترامى بالخارج.

كل ما نحتاج إليه لشفاء أرواحنا يوجد بداخلنا، لكننا مُنحنا عقلاً ليس من طبيعته أن يعترف بالحقائق؛ بل يشوه دائمًا الصور.

كنت أمشي إلى ذلك المسجد تسوقني خطوات خجلة؛ فأنا لم أدخل مسجدًا منذ صليت الجمعة مع أبي آخر مرة، وكان هذا فقط من أجل ألا أخيب ظنه في ابنه الوحيد.

مرت شهور طويلة منذ فعلت ذلك، ومنذ سافرت لم أسجد لصلاة ولو مرة واحدة، لقد تعبت في حياتي كثيرًا، لكن أشد ما تعرضت له يومًا أن أطرد نفسي من بيته، أن أطرد قلبي من رحمته، كلما اقتربت منه خطوة، تسارعت الحياة لسحبي بعيدًا عنه.

اِبتلعتُ ريقي خجلًا كأن مَن يراني سيكشف أمري، أنا في أشد حالات الخجل التي مرت بي في حياتي، كيف كنت أتغافل وأتكاسل كل هذا الوقت وكيف أسجد الآن أمامه دون أن يقتلني خجلي، ومَن شفيعي في كل هذا.

اقتربتُ من ذلك المسجد الصغير، ومع أول خطواتي لدخوله وجدت مَن ينادي عليَّ:

- يا هذا!.. أيها الشاب!

تسمرت خطواتي خوفًا ورهبة للحظة، هل معقول أن هناك من كشف أمري ويريد توبيخي؟

خِفتُ أن يكون كشف أمري بمجرد النظر إليّ، نظرتُ تجاه الصوت، فوجدتُ رجلًا كهلًا متسخ الملابس يجلس في أحد جوانب الشارع بالخارج:

- أنا!

- نعم أنتَ! هل يمكن أن تسقيني كوبًا من هذا الماء.

- حسنًا.

باغتني صوت آخر يمر من جواري "لا تلتفت له إن شاء؛ فليدخل المسجد يصلي ويروي عطشه".

شعرت بالاستياء من الفكرة وما يعنيه أن يصلي أو لا يصلي، هذا شأنه. مَن أنتَ حتى تحكم على الناس وتكرههم على فعل ما لا يريدون، شعرت بالقرف الداخلي من هذا الكائن، لم ألتفت لرأيه ذهبت ببساطة واِقتربت من مبرد الماء الموجود بداخل المسجد؛ ثمَّ ملأت له كوبًا وخرجتُ أعطيه الماء؛ فهو مجرد رجل كبير يشعر بالعطش ماذا لو

كان غير مسلم ولن يصلي، هل أتركه يموت عطشًا، هذا شأن بينه وبين ربه لا يعنيني.

قلت له راجياً :

- إن شئت أساعدك في الذهاب إلى الصلاة، لا أدري لم قلت ذلك، لماذا أدعوه معي للصلاة.

قهقه الرجل الكبير:

- لكني لا أصلي! أنا أنتظر هنا المصلين؛ ليعطوني الصدقات وأعطيهم الحسنات.

أخرجت من جيبي ورقة فئة المئة جنية أعطيتها للرجل؛ وقلت له :

- ها أنتَ قد نلت الكثير من الصدقات ولا حاجة لك بالعمل الليلة.

نظر الرجل إلى الورقة وهو لا يصدق:

- هل تعطيني مثلها كل ليلة وأصلي معك؟

سمعت ذلك الصوت الفخم يخرج من سماعات المسجد:

- لنفكر بالليلة أولًا لا أدري ماذا سيحدث غدًا!.. بدأ نداء الإقامة ولا أريد أن أخوض معكَ في جدال وشرح طويل ويضيع منَّا الوقت.

- حسنًا ناولني يدك وساعدني.

ساعدت الرجل في القيام وذهبنا سويًّا إلى المسجد!.. أخيرًا لن أشعر بالخجل وحدي، فلم أكن الوحيد المتهم هنا، علمت سبب دعوتي له،

كانت حاجتي لهذا الرجل إلى جواري أكثر من حاجته للورقة النقدية التي أخذها مني، أنا مَن يحتاج هذه المساعدة، أنا مَن يحتاج وجوده.

وقفت إلى جواره بالصف الأول، عندها التفت إليّ الإمام مبتسمًا:

- سقاك الله من نهر الكوثر.

اِنتفض قلبي بشدة واِقشعر بدني وتسلل شبح إبتسامة طفل فرح بهدية لم يتوقعها الظهورعلى وجهي، أحاول أن أغلب ذلك الشعور كي أبدو جادًا.

ثمَّ اِعتدل:

"أقم الصلاة...الله أكبر..."

لم أكن أستحق أبدًا هذه الدعوة، كانت أمنياتي أقل من ذلك بكثير، لكني أحببتها، طموحي فقط أن يقبلني الله بعد كل ما فعلت، ألا يلفظني بكل ذنوبي وأخطائي وغفلتي.

وأنت أيها الرجل الكريم ترفع أحلامي إلى نهر الكوثر.

رددت بكل جوارحي ومن أعماق صدري..."اللهم آمين".

فرُب فاسقٍ ظل أكثر عمره مريض الإعتقاد، غافل الخاطر، يتقبله ربه بقبولٍ حسنٍ ويهتدي.

*****************

# (٦)

(يوسف)

في طريق عودتي، كانت خيوط النهار الأولى قد بدأت في الظهور، تأملت السماء بروعتها وتغير ألوانها لحظة بلحظة وأنا لا أستطيع طرد سؤال أحمد من عقلي "هل هذه السيمفونية الكونية شديدة التناغم تواجدت بالصدفة البحتة بلا خالق؟"

قد تكون يا صديقي أو لا تكون، لست على ثقة كاملة، وأتمنى أن أعرف الإجابة الحقيقية؛ لكن لو وجد خالق حقًا، هل يمكنني عبادته، في كل الأحوال إنه رب يحب تعذيبي ولا داع لتضييع مجهودي معه.

نظرت إلى ذلك الخطاب، أنيسي الوحيد على المقعد المجاور، نظرت إليه عدة مرات ولم أستطع مغالبة تلك الرغبة المُلِحة لديّ لألتقطه، لم أتمالك نفسي من الوقوف جانبًا بسيارتي وقراءته.

"اليوم حفل تخرجي من الجامعة، أنا اليوم في الثانية والعشرين من عمري، مضت سنوات طويلة منذ آخر مرة رأيت بها وجهك، ملامحك وضحكاتك، تضيع مني دون إرادتي، الذكريات ولا تريد العودة بكامل تفاصيلها، كيف تضعف مشاعري وأعلن عن اشتياقي، عن إحتياجي، أني لم أتحمل الحياة وحدي بدونك.

اسمي اليوم المهندس (يوسف) وأنت لست هنا، سأتسلم شهادتي وأنت لست هنا، وأرقص طربًا بين أحلامي وأنت لست هنا، اليوم كله أضواء وموسيقى وصخب لكنك لست هنا! هل تشغلني الضوضاء عن مكانك الخالي، أي مكان منهما؟، ذلك الفراغ بداخلي، أم الخالي من حولي، هل تعلو الأصوات؛ فتقتل صوت حنيني المتكرر.

أهداني أبي اليوم هذه السيارة الفارهة وعندما لمست مفاتيحها لمس قلبي حزن غريب ولم أفرح، علمت أنك أبدًا لن تضعي قدمك داخلها، أنا لدي كل شيء لقب، سيارة وشقة فاخرة، كل ما يحلم به شاب في مثل عمري، لا شيء ينقص حياتي أبداً، لكنك لست هنا، وذلك يترك نقصًا كبيرًا داخلي.

يبحث أبي عن عروس بها كل المواصفات المثالية؛ ولكني أتراجع كما أتراجع كل مرة، دائمًا تلمس الفكرة داخلي حزن ورهبة، حزن لأن غيرك سيعد لي طعامي وملابسي بعد أن حلمت مرارًا بك، تعدين أكلاتي المفضلة وتعطرين ملابسي ورهبة لأني أصبحت أخشى التعلق بأي إنسان، الخوف من الفقد يقيدني، الخوف من أشياء كثيرة يقيدني.

كيف أخبرك هذا،! تعجز كل كلماتي عن وصف ذلك الشعور، والخوف وخيبة أملي أنك لن تكوني أبدًا هنا.."

الدموع تتراقص بين جفنيَّ لكني أرفض بقوة تحريرها، هل أبكي مثل الأطفال، كلما قرأت خطاباتي صدمني مدى ضعفي، مدى صغري ومدى عجزي وقلة حيلتي.

أخرجت نظارتي السوداء من درج السيارة، أخشي أن أرى النور فيذكرني بضياء ذلك الخيال الباهت الذي أذكره لوجهك، أدرت المفتاح بالسيارة ثمَّ انطلقت مسرعًا في طريقي أسابق الريح وتسابقني، أصارع أفكاري وتصارعني، أطارد الحقائق وتطاردني، أخاف تلك اللحظة التي أدرك فيها حقائق كنت أخشاها وأهرب منها دومًا، وعندما وصلت منزلي صعدت الدرجات بصعوبة، أتسند بيدي كرجل عجوز في السبعين، دخلت من الباب متسللاً كي لا يشعر أبي، لعله نائمٌ ولا يشعر بي، لا طاقة لي بالحديث معه عن أي شيء، أتمنى ألا ألقاه وألا أحدثه، أعلم تمامًا أني أهرب منه طوال الوقت؛ لكني لا أتحمل البقاء جواره فترات طويلة.

حجرتي أخيرًا! رميتُ نفسي داخلها قاذفاً مفاتيحي وحذائي من قدمي بشكل عشوائي، رميت سترتي بأقرب مكان لأرتمي على فراشي جسدًا منهكًا، محطمًا، تعسًا، يحمل العالم كله فوق كاهله، كانت فكرة تغيير ملابسي الآن فكرة صعبة التنفيذ وقد اِرتخى جسدي بين الوسائد، لكن فكرة النوم لا تتسلل إلى عقلي صاحب النشاط العالي، أمسكتُ جوالي علَّني أجد عليه ما يلهي تفكيري عن كل ما بعقلي من هموم.

أطالع ذلك المنشور الذي كتبته، قد لاقى عددًا كبيرًا من التعليقات أكثرها سبًا وقذفًا في هذه المجموعة لمدعي الثقافة، مررتُ عليها ساخرًا وأنا أضحك، ساذجون، ما أغباهم هؤلاء وكأني أهتم برأيهم، وكأني سأكلف نفسي عناء الرد، لم أعتد الإهتمام بالجاهلين، لم يلفت بالي إلا هذا التعليق الأخير، لمس داخلي وترًا لا أعرفه.

"سيدي الكريم حريتك الشخصية تعطيك الحق بأن تلحد أو تؤمن بأشياء عدة سواءًا وجود آلهة أو عدم وجودها أو أن تؤمن بأديان أو أحداث أو غير ذلك، ولكن انطلاقًا من مبدأ حريتك في الإختيار أرغب أن أوضح شيئًا مهمًا بأن لكل مسلم أو مسيحي أو يهودي أو أيًّا كانت ملته كامل الحق أيضًا بأن يؤمن بالأشياء التي يراها صحيحة ويقتنع بها عقله، أما أن تلحد وتهاجم بمقالك هؤلاء الذين اعتقدوا اعتقادات تخالف اعتقاداتك؛ فهذا غير عادل أبدًا، على الرغم من أني أوافقك على مبدأ التمرد والإنقلاب على المعتقدات الخاطئة؛ ولكن يجب أن يتم ذلك ضمن ضوابط لا تعتدي فيها على حقوق الغَير الفكرية والإعتقادية، وإن تمردنا على المعتقدات الخاطئة؛ فيجب أن نحرص في انقلابنا هذا؛ بأن لا ننسف حقائق ثابتة وواضحة للجميع وإلا انقلب فكرنا جهلاً عقيمًا يخيب ظن الناس فينا.

أخي! جميع أسئلتك التي سألت لها إجابات منطقية وعلمية في القرآن إن شئت أن تعلمها حقًا أرحب بمحاولة مساعدتك للوصول إليها.
لا يستطيع أحد أن يقوم بفك تشفير معادلة بالمرور عليها، دون التعرف على معنى مفرادتها؛ فلا يعلم منها إلا نَصها فقط، فالدراسة العميقة للأشياء واجبة قبل محاولة خوض الجدل فيها.
أما إن أردت طرح فكر معين ونظمت هذا المنشور بقصد الإساءة إلى بعضنا فقط؛ فستكون قد ارتكبت خطأً فادحًا بحق نفسك، إذ لن تعلم أبدًا الحقيقة وأنتَ مشغول عنها بهذه الترهات هنا.."

قرأت الكلمات أكثر من مرة، مَن أنتِ في كل الأحوال أيتها المتفلسفة، لقد قرأت الكثير من الكلمات والتعليقات ولا أدري لما كنت أعاود قراءة هذه مرة تلو الأخرى قد يكون؛ لأني أنا لم أعتد أن أقابل شخصيات تستطيع لجم نفسها للتحدث معي بكل هذا التهذيب المصطنع وترتيب المنطق منذ زمن.
فتحتُ صفحتها على الفيس وبدأت تأمل كتاباتها ومنشوراتها، كانت مجرد طفلة أعتقد لا تتجاوز الثامنة عشر بوجه وملامح صغيرة ووشاح طويل يكاد يغرقها، لم أرَ فتاة عادية؛ بل رأيت جاهلة أسيرة كالأخريات بردائها البشع.

أغلقتُ صفحتها سريعًا وأنا ألعن مثل هذه الفتاة، فلم أكن من محبي هذا النوع من النساء التي ترتدي جلابيب وأوشحة؛ جاريات العصر الجاهلي.

أغلقتها وأنا أتساءل كيف يمكن لمثل هذه أن تفهم وتعلم وتجد لها منطقًا للرد والإجابة، وماذا يفعل مثلها في مجموعة للمثقفين وقد نفت عقلها تحت هذا الوشاح الكبير جدًا حتى يكاد يغرقها.

لكني كتبت لها ردًا سريعًا، يغلق فمها ويعجزها عن الرد، لعلها تصمت....

"ذلك الموت الذي يعلم الجميع أنه نهاية حاسمة لكل حياة، ومصير لابد منه، ما دليلك أنت حول هذا الغموض الذي يشوبه، ما دليلك أن أحدًا ما يمكن أن يعود بالحياة ويبعث الناس بعد رحيلهم، هل حدث أن رأيت مَن مات وعاد حتى تؤمني بالبعث والقيامة، تلك الخرافات يصدقها عقلك لأن أحدهم أخبرك بها فقط"

أتمنى أن أفهم كيف ستتغلب على الفكرة وتجد منطق للرد ، أتاني ردها بعد عدة دقائق غير قليلة....

" إن الموت ذاته طور من أطوار الحياة، لا غنى للحياة عن الموت ولا غنى للموت عن الحياة، ألا ترى تلك المواد الميتة تتحول في غذائك إلى

خلايا حية بجسدك، ألا ترى الشعور والإنتفاض يسري إليها بعد موتها، الموت في الحقيقة هو مجرد إنتقال، والبعث حقيقة فوق الشبهات، فالذي أنشأ هذه الحياة من العدم، قادر أن يعيدها مرة أخرى إذا شاء، ولاحظ حين تستيقظ وتطلع عليك الشمس صباحًا بعد استغراق عميق في النوم، أن اليقظة التي تعقب ذلك السكون شيء ليس بمستحيل".

نظرت لشاشة جوالي، وأنا أشعر بالأسف، إنها تكرر نفس كلماتهم، دون جديد، ودون دليل، تركت جوالي ولم أشغل بالي بها، لا تستحق المجهود المبذول في ذلك النوع من الجدل.

كنتُ سأتورط بمحاولة التحدث معها ومناقشتها ومصادقتها، لولا أن رأيتُ صورتها، ورأيت ملابسها، عقلي ينفر من مثيلاتها لا إراديًا.

رددتُ علي كلماتها مرة، رغم أني لم أعتد أن ألقي بالًا لتعليقات هؤلاء المعترضين، كارهي الحرية، وساكني العقول، لكنه كان أمرًا اعتباطيًّا لا أنوي تكراره.

تركتُ الهاتف من يدي، وظللتُ أتقلبُ في الفراش بين الأغطية والوسائد، تنهكني محاولات الإستغراق في النوم كعادة كل ليلة، أتقلب في الفراش أتأمل حوائط الغرفة تشاركني صوت دقات الساعة بأفكاري. الحياة رحلة يبدأها الجميع لماذا عليها أن تكون شاقة جدًا لهذه الدرجة، مليئة بكل ألوان الوهن والوجع الذي يشق نفوسنا بلا هوادة، كيف يكون

عدلاً بأن يملك البعض فيها صكوك الغفران ويموت الضعفاء، ويجوع الفقراء ويهيمن الأغنياء!!

أتمنى أن يسرقني النوم من عقلي هذا وأنام أخيرًا، مازلت أنصت لدقات الساعة وضوء الشمس أصبح يتسلل قويًا جدًا عبرالنافذة؛ ليزيد من أرقى عندما رنَّ جوالي ووجدتُ رقم أحمد، رددتُ عليه متلهفًا سعيدًا أن شيئًا ما سيسرقني أخيرًا من أرقي هذا.

- ألوو... أحمد

لكن جاءنى صوتًا غريبًا لا أعرفه من الطرف الآخر.

- مَن أنت؟

***************

## (٧)

(إبراهيم)

في الصباح أول ما خطر ببالي أن أذهب لزيارة ابنتي، بعض التردد مع الخوف من المواجهة مع أمها كان يقيدني، أتوقع مقابلتها وتلميحات أسرتها التي أصبحت شديدة السخافة بعد الإنفصال، وطلباتها التي زادت، لم تكن تحتاج كل هذا المال حين كانت زوجتي وببيتي، الآن يلمحون عليّ النفقة بطريقة مهينة أحاول أن أتجنبها، فقط من أجل وردة قلبي، ابنتنا الجميلة.

ما هالني في هذه الزيارة كان القرار الذي اتخذته أمها، وأعلنته بمنتهى البرود يجب أن تبقى الصغيرة يومين أسبوعيًّا في رعايتي، هي ليست مسؤوليتها وحدها ولن تتحملها وحدها، شعرت أنها تريد إقحام الفتاة الصغيرة بحياتي كنوع من العقاب، أو نوع من إفساد الخطط، كيف تكون بتلك السذاجة وكيف عاشت معي كل هذه الفترة ولم تعرفني أو تقترب من فهمي، ألا تفهم أن هذا ليس عقاب، أن هذا أفضل قرار قد اتخذته منذ يوم عرفتها، رغم أني لا أعرف كيف يمكنني تولي رعاية طفلة صغيرة جدًا تحتاج حضن أمها، ورغم أني لم أفهم قسوة قلبها التي تجعلها تترك طفلة رضيعة بعيدًا عنها تمامًا يومين كاملين، كأنها تخشى

أن أستمتع بحياتي دونهما، أو كأنها تود ألا أستمتع بحياتي مع أخرى فهل أنا مجنون لِأَمُرّ بهذه التجربة مرة أخرى؟ تبًا للزواج!.

عندما حملت الصغيرة بين ذراعي وشممت ريحها، تفتحت في عيوني كل أزهار الحياة، إنها كما الياسمين، إنها الريح الطيبة التي أهدتني إياها الحياة، رغم تعلقي الشديد بطفلتي ورغم حنيني واشتياقي اللانهائي لها لم أبقَ كثيرًا؛ فقد أشعروني أني ضيف ثقيل غير مرحب به، هذا طبيعي، هذا ما يحدث بالحياة بعد الإنفصال، بعد أن كنت أقابل بالترحيب والتهليل، أصبحت أقابل بالوجوه المكفهرة.

رحلت أمشي بالطريق، يقتلني ألم حاد بصدري، كأني كلما مددت خطوة انتُزِعَ جزء من قلبي يجري بعيدًا عني، يجري خلفي إليها.

لم أذهب إلى منزلي، لم أتحمل فكرة وجودي وحدي تقتلني أفكاري وتنتزع روحي، ظللتُ أهيم بالشوارع، أنظر إلى الناس، أستمد من مرورهم العابر ذرة ونس، أنظر واجهة المحلات، وأعد السيارات المارة، حتى أرهقني تسلط أشعة الشمس كأنها تعرف أني لم أنم طوال الليل وتتعمد إرهاقي!

أين أذهب الآن؟

هناك شيء ما يجذبني إلى المشفى، هل لأنها المكان الوحيد الذي أعرفه، أو أن هناك شيئًا ما داخلي أحاول أن أنكره.

ساقتني ساقاي إلى المشفى، لم أدخل حجرة الأطباء سوى للحظة لأضع البالطو، هرولت لذلك العنبر الذي ترقد به، نظرت إليها من بعيد، نائمة، لا أدري لِمَ أبتسم!!

ابتسمت، كأنني أرى «سنو وايت» تنتظر مَن يخرجها من سباتها العميق، ابتسمت رغم كل ألمي، ابتسمت لها.

هممتُ لأعود أدراجي، لكني لاحظت وجود سيدة كبيرة معها، لعلها أمها، لم أتمالك فضولي الذي يفيض بداخلي، ذهبتُ إليها مباشرة، عيونها تتعلق بي، كأنها تود لو أطمئنها، يا لسخرية القدر تبحث عن الطمأنينة عندي وأنا من أتمنى لو تطمئنني.

- كيف حالها اليوم يا دكتور؟

- لا تقلقي، إنها تتحسن وستعود للمنزل قريبًا.

- الحمد لله!.

- لكني أخاف عليها من حالتها النفسية.

نظرت الأم للأرض وعقدت كفيها فوق بعضها؛ وهي تحاول الهرب من نظرتي، تحاول وقف تلك الدموع التي لا تترفع عن السقوط من مقلتيها.

-الحمد لله.

- أريد حقيقة أن أساعدكم إن استطعت.

- لا يوجد ما يستطيع أحد فعله.

- كيف؟

- توفت ابنتها منذ عدة أيام قليلة؛ وهي لم تفعل شيئًا إلا البكاء، لا طعام ولا شراب، لا أعلم لماذا يفعل الله بها ذلك، هي لا تستحق ما يحدث معها.

الآن أشعر بالخجل الشديد من سؤالي، لا يوجد ما أستطيع تقديمه لها حقًا.

هممتُ بالرحيل، لكن استوقفني هذه المرة صوتها يأتي ضعيفًا وهنًا.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

- أنا آسف لخسارتك! أتمنى لو كان باستطاعتي ما أقدمه!.

كانت مجرد عبارة باهتة لا تحمل مضمونًا، روتينية تغلف بها لساني من شدة عجزي، غريبة الحياة، يتألم كلانا بسبب طفلة، تتألم بموت فتاة وأتألم بميلاد فتاة.

عدت إلى حجرة الأطباء في إنتظار إنتهاء الزيارة لأعود إليها، كان هناك قرار بداخلي ينمو ويزهر، كيف لا أستطيع تقديم شيء؛ بل أستطيع مساعدتها لتمر هذه الفترة بسلام، عدت إليها مرة أخرى؛ وأنا تغالبني هذه الفكرة ويخالجني التردد خاصة بعد رفضها الحديث معي، وعدم ترحيبها بوجودي ليلة أمس، كنت أسير بخطوات بطيئة عندما اتجه نظرها إليّ، وعلمت أنها تراني وتفهم أني ذاهب إليها.

ابتسمت لا شعوريًا لها:

- هل يمكنني أن أسألك كيف حالك؟

- أنا بخير!.
- إنها أكبر كذبة اخترعها إنسان في التاريخ.

ابتسمت إبتسامة واسعة أقرب إلى ضحكة، واِلتمع ضي عميق بعينيها، ضي يشبه الثقب الأسود من ينظر إليه لابد أنه غارق بلا عودة، أنظر إلى وجهها، عيونها السوداء وبشرتها الخمرية، شعرها الكستنائي المتموج الثائر حول وسادتها يزيد بهاء وجهها إشراقًا، كأن شمسًا خلقت لتشرق بهذا الوجه فقط وشمسًا أخرى تشاركها باقي الكون، أنظر إليها ولا يمنعني خجلي كما اعتدت.

هذا القلب الساكن، لقد كان دومًا صومعة عالم لا يرتل سوى سطور الكتب متى أصبح بهذا الوهن، كيف سكن صومعته مجنونًا يهيم وراء طيف يرسمه خياله، كيف من أجل هاتين الفتاتين تتغير الموازين.

ظللتُ أنظر إليها بغباء وبلاهة حتى أيقظتني تلك الفكرة من غفلتي أخيرًا، أيها الغبي إنها زوجة!

إنها تخص رجلاً غيرك.

****************

## (٨)

(صفاء)

لا أفهم لم يهتم هذا الطبيب بحالتي! لا أحب تطفله الشديد هذا؛ فهو يقتحم تلك الخلوة التي أعيشها بداخلي، يعكر هذا المزيج من الحزن والوحدة والرفض الذي أشيده، يسبب لي مزيدًا من الإجهاد الذهني وأنا لم أستطع الخروج من إجهادي الجسدي بعد، هل يعتقد أني أعاني مشكلة هبوط في مستوى الثقة أو مشكلة إيمان أو شعور غير حقيقي!!

هل يعتقد أن التشجيع والتهليل هو الحل، كم هو ساذج شديد الغباء!

هل يعتقد أن أستمع لكلماته فأضطر لمواجهة همي والتحدث عنه بكل حرية معه، أخرج ما يفيض به خاطري فتغلفني الراحة، ألا يفهم أني أحب عُزلتي هذه ولا أتوق للخروج لهذه الحياة وحيدة بدونه، ألا يفهم أن قلبي منفطر! أنه لن يعيد لي الحياة مرة أخرى سوى عودته ورؤية وجهه، إن الأمر أشد تعقيدًا من مجرد كلمات تلقى هنا وهناك، كيف أكون شديدة الحماس لدفن مشاكلي مع طفلتي الصغيرة وأقنع نفسي أني سعيدة، أن لا شيء يحدث حولي، لماذا لا يكف الجميع عن انتقادي، والنظر إليَّ بتعجب كيف تهزمها مشاعرها بمنتهى السهولة، لماذا يعتقدون أن تخطي همي باعتباره غير موجود شيء بمنتهى البساطة،

هل يمتلك أحدهم مفتاح يصلح لإغلاق كل شاشات عقلي! فأرتاح وأريحهم مني.

يقترب مني مبتسمًا، لا يشبه باقي هؤلاء الأطباء حين يقتربون مني، يغلفه أمر ما مختلف، لمَ يبتسم هذا الرجل!

- هل يمكنني أن أسألك كيف حالك!.

- أنا بخير.

- إنها أكبر كذبة اخترعها إنسان بالتاريخ.

ابتسمت لا إراديًا، ثم تمالكت نفسي سريعًا، لِمَ تلك النظرة المطولة لي كأنه يعرفني؟! إنه يتأملني، هل هذا الطبيب مجنون!

لماذا هو بكل هذا الصمت؟ ما أتى به إذا؟ هل يحمل لي خبرًا، سأتنحنح لأخرجه من صمته، استيقظ من غفوة يقظتك.

إنه متوتر، هذا ما بدا وهو يمسك نظارته بعصبية، لاحظت ذلك من صوته المتقطع وابتلاعه ريقه أكثر من مرة

- أريد الحديث معك!.

- ما الأمر؟

قلتها بلهجة جادة، تنبهه لطريقة دخوله غير المبشرة ونظراته المزعجة؛ لكنه أكمل متعجلاً، متجاهلاً إشارتي، كأنه لم يلحظ ما أرمي إليه:

- لقد طرأت ببالي فكرة، أتمنى أن تقبليها، وهذا هو شرط خروجك من هنا، أو اعتبريها روشتة الخروج التي ستتبعين عليها علاجك.

ثمَّ اقترب مني أكثر قائلاً: لن أسمح بخروجك من هنا دون قبولها.

يا لغطرستك القوية! كراهيتي لهذا المكان وصوت الأجهزة ولون الملاءات البيضاء لا يعني أن تملي عليّ ما يجب علي أن أفعله بحياتي، حتى عقاقيرك الخرقاء، لن أتناول منها إلا ما شئت؛ لكن سأتحملك مؤقتًا

- حسنًا! سأتبع كل تعليماتك.

- يالك من مدعية غير بارعة!.

- ماذا تعني؟!.

- أعنى أنك لن تنفذي ما أمليه عليك، أفهم جيدًا شعورك تجاه الناس، أعلم أنك الآن تشعرين بالسوء تجاه كل حديث يوجه إليك، أفهم رفضك الذي تحاولين إخفاءه الآن.

- حسنًا، هل  هتدخل في صلب الموضوع أم ستجهدني في أحاديث جانبية؟

- إن ماهية مشاعرك ليست أحاديثًا جانبية، إنها صلب الموضوع الذي أريد الحديث فيه.

علـيّ أن أعتـرف أن محـاولات مماطلتـه مجهـدة، ليتـه يتحـدث مباشـرة ويعفيني من رؤية وجهه وسماع صوته، تحملي قليلاً (صفاء)، إنه بوابة عبورك لخارج ذلك المشفى العقيم:

- حسنًا، كلي آذان صاغية!.

- لقد خطرت ببالي فكرة رائعة، ستسري عليك وتشتت ذهنك عن تلك الأفكار التي تؤلمك، أريدك أن تعتنـي بنفسك جيدًا، لابد أن تفهمـي أنـك تعني الكثير لهؤلاء الأشخاص حولك.

"أعنـي الكثيـر لهؤلاء الأشـخاص حـولي" هـو لا يفهم مـا أمـر بـه حقًـا، ويعتقد أن بإمكانه مساعدتي!

لا يفهم أني أعاني هشاشة اشتياق تحتاج إلى ترميم، أن الأفكـار تترسـب داخلي، ربمـا تخطـىء الصدفة يومًـا فتجمعنـا، أو لعل الإنتظـار يُخطِئنـا وهو يمر بنا.

- هل تفهمين هذا ما أقصده هنا.

أزعج صوته المستمر قوة أفكـاري، ولـم أسمع منـه أي جملـة مفيدة، لـم أسـمع منـه سـوى ضوضـاء، لا أدري مـاذا حكـى، ومـاذا قصـد؛ ومـاذا يقول؟

- الكل شريف حتى تظهر العاهرة!

قرأت بوجهه ملامح الصدمة، ثمَّ علامات الإستفهام المصاحبة بخيبة الأمل وعدم التوقع!

صمت وهو ينظر إليَّ كمَن يتوقع مني تفسير كلماتي اللاذعة

- ما يجعلنا نعتقد أننا نفهم وننظر لمَن حولنا هذه النظرات التي تنظرها لي الآن، ما يجعلنا ننتقد بشدة ونعطي الإقتراحات والأفكار التي نعتقد أنها العلاج المثالي، ما يجعلنا نتباهى بقوانا المزعومة، أننا فقط لم نضع بنفس الكفة، وتحت سيطرة نفس الموقف وتحت رحمة نفس المشاعر.

- أنا لا أتباهى يا(صفاء)! أريد فقط أن أراكِ بخير، أنا لن أساعدك بقدر ما ستساعدين أنتِ العديد من الناس.

- مَن أساعد؟

- أنتِ لم تكوني هنا! لم تسمعي كلمة مما أخبرتكِ به.

- أنا معكَ، وأسمعك جيدًا.

- سأوفر عليكِ محاولات الإنكار، سأعيد الكلام بإختصار، إنها جمعية خيرية، تساعد كبار السن وفاقدي البصر، تساعدهم بقراءة الكتب لهم، أو تسجيلها وعرضها على مَن يشاء.

- وماذا يمكنني فعله هناك؟

- ستقرأين لهم، إن لم يمانع زوجك.

- لن يمانع، لا زوج لي بأية حال.

لا أدرى هـل مـا ألمحـه بوجهـه الآن أثـر إبتسـامة، كيـف أثـار ألمـي سعادته!!!!.. لقد صدق حدسي إنه حقًا مجنون!.

- سأستخرج لك إستمارة تسجيل، لتصبحي عضوة دائمة، هؤلاء النـاس بحاجة للمساعدة، أكثر من حاجتك أنت للتسرية عن حالك!.

- لا أعرف!.. لا أعتقد أني أقدر على المساعدة والقراءة بطريقة جيدة.

- ألم تتعلمي القراءة بالمدرسة؟

- أنت تفهم قصدي، لا أعتقد أني قارئة جيدة.

- بالطبع أفهم قصدك، لذلك سنجربك الآن، هيا!.

- كيف؟

- سأكتب ورقة تجريبية، نـص سأقتبسـه من كتـاب قرأتـه وأنـتِ تقرأيـه، لنتأكد أنك لست مصابة بفقدان النطق أو لحمية أو عيب خلقي ما.

قالها وهو يضحك ممسكًا ورقته وقلمه ويكتب ، يصر أن يقتحم عزلتـي بقـوة وإصـرار، أعطـاني الورقـة فأصـابتني الرهبـة نوعًـا مـا، قبـل أن أقرأها بصوت خجل، وأنا أطرد عن عقلي فكرة أن تكون متعمدة.

"بعض الألـم يا سيدتي مفـــيد جدًا، خاصة إن كـان سببًا للصحوة من غفلـة، لكـن لـيس مفيـدًا حين يطـول، فهـل يمكنـك أن تجعلـي منـي هويـةً لألمِك، هويةً في غربتك ووحدتك هذه، دون أن تكسري قلبي بتصرفات أقل من انتباهك، ألا تـدرين أن هـذه التصـرفات التـي تظنـي أنهـا أصـغر

من أن تكسر قلبي، تطفيء بداخل صدري شيئًا عميقًا لا تدرين عنه شيئًا"

أنهيت القراءة ورفعت عيني إليه بجدية، محاولة تجاهل كل الإشارات، إنه مازال ينظر إليّ مبتسمًا!

- ها قد اطمأن قلبي، سأبدأ من الآن تسجيل بياناتك!.

انصرف من أمامي سريعًا، كأنه يخشى أن أغير رأيي، لكن قبل خروجه من باب العنبر، عاد بعدة خطوات للوراء واقترب من فراشي مرة أخرى؛ وقال:

- نسيت أن أخبرك أن أبي سيكون أول ضيوفك بهذه الجمعية، أتمنى أن تحبي منزلنا.

ثمَّ انصرف بخطواته بسرعة أكبر، قبل أن أتمكن من فتح فمي والتفوه بكلمة ، قبل أن أستطيع الإستفسار عن هذا الأمر.

أباه!!!!!...منزلهم!!!!!! إنه حقًا شخص غير طبيعي.

## ( ٩ )

(يوسف)

- "ألا تخاف الشيخوخة؟"
- "أنا أحب أن أشيخ، وأرى لي بيتًا كبيرًا بحديقة يملأه الأحفاد"

ضحكنا وقهقهنا من الفكرة، ولكنه عاد يتحدث إليَّ بكل جدية:

- "ما أسوأ ما قد يحدث في الشيخوخة"!
- "المرض.... الموت؟"
- "لا أثق بأن ذلك أسوأ مخاوفها، فهو ليس حصريًا على الشيخوخة"
- "حسنًا من يصل إلى الشيخوخة أولاً عليه أن يخبر الآخر عن أسوأ مخاوفها"

نظر لي صديقي بسخرية وتهكم وضحك قائلاً:

- "ستخبرنى أنت؛ فلابد لك أن تشيخ قبلي بهذا القلب البائس"

اليوم تأكدت من صحة نبوءته، عندما رن هاتفي وسمعت صوتًا غير صوته، تُجَسّد الحياة كل مكرها أمامي في هذا

الخبر، خبر رحيله المفاجىء في حادثة طريق، يزيد تلاعب الأقدار بي ويضاعف ألمي، بلا ذنب أذكره، لم يكن رحيله سهلاً أبدًا، زاد إيماني بأني لا أؤمن، فمَن هذا الإله القاسي الذي يصر على أن أكون وحيدًا، إن وجد في الأساس، ها أنا أعاني الفقد مرة أخرى ولا أعتقد أنها ستكون الأخيرة، سأظل للأبد وحيدًا بلا صحبة.

نفس الكلمات تدور وتدور في عقلي ولا تنتهي

- هذا الهاتف كان مع رجل أصيب بحادثة وأنت آخر رقم تحدث معه..

تدور الكلمات بذهني بطريقة لا إرادية، دون توقف، لا أصدق أني سمعتها، قيلت لي أنا، قيلت عن صديق عمري.

جلستُ مكومًا في مكاني لا تقوى قدمايَ على حملي، لا أدري كيف ومتى حدث هذا؟ ولا أدري ماذا أفعل الآن وكيف أتصرف، أنظر أمامي لصديقي ملفوفًا بلفائف بيضاء، ولا أتبين منه أية ملامح، تغالبني الدموع وأغالبها، لا أصدق أبدًا ما حدث، كيف ومتى حدث!.

غمامات الظلام تغزو عقلي بمزيد من الغضب والقهر والحزن والكبرياء والحنين الغامر، أتمنى أن تكون تلك اللحظة غير موجودة،

أرجو أن يكون حلمًا، أترنح بين الإنكار بأن هذا يحدث والغضب لأن هذا يحدث، أشعر بضربات قلب قوية توازي تضاربات مشاعري، كيف يمكن أن نحب ونغضب ونحن لنفس الشخص، أيها الأحمق كيف رحلت وتركتني وحدي، أيها الغادر، أيها الحبيب والرفيق والوعد الخائن، أتذكر كل كلماته، صوته يدور ويدور في عقلي ولا تنكره أذناي

"ما يمكنني إخبارك به، أن الأقدار محيرة؛ فوقت المحن لا تحاول فعل أي شيء سوى التسليم للأقدار"

هل كان يهديني كلمات تأبينه ووداعه، كم كانت محاولاتك شديدة المكر والدهاء، ضربات خفيفة على كتفي أخرجتني من أفكاري، شيخ كبير:

- لا يجب أن نبكي أصدقاءنا؛ إنهم الرحمة التي رزقنا بها الله، هم في القلوب دائمًا ورحيلهم مستحيل.

نظرت إليه ثمَّ تذكرت ذلك الصوت؛ إنه الصوت الذي حادثني في الهاتف يزف إليّ خبر صديقي

لم أتمالك نفسي عندما رأيته:

- هل رأيت ما حدث، كيف حدث هذا!

- صديقك كان له قلب كبير، وقد توفي بعد صلاته مباشرة.

أعدت عليه السؤال متوسلًا:

- كيف حدث هذا؟
- كان يعبر الشارع بعد خروجه من المسجد عندما صدمته سيارة مسرعة، أنا لا أعرف صديقك، ولم أره من قبل؛ لكني جئت أصلي عليه، أشعر أني أعرفه منذ زمن لقد لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي وهو يردد الشهادة، أتفهم شعورك جيدًا فقد كان من الأشخاص الذين لابد أن تحبهم.

أعاد تربيته على كتفي؛ قائلًا:

- أرجوك اِصبر ولا تجزع.

هو لا يفهم، هم لا يفهمون، الجميع لا يفهم إحساسي الآن، لم يكن مجرد صديق، كان جزءًا من حياتي يصعب وصفه، نظرت إلى الاتجاه الآخر نحو باب المسجد، نظرتُ إلى الباب طويلًا متألمًا، متأملًا، لعله يدخل ماشيًا على قدميه، لعله مجرد حلم ثقيل؛ بل كابوسًا، سأستيقظ منه قريبًا، ذكريات كثيرة تطوف بعقلي ترجوني، كُن حلمًا!

الجلوس أمام صفحة النيل والإستمتاع بنسيم الليل البارد والنظر لوجه القمر مع كوبين من الشاي هي أحلى جلسات سمرنا، يوما ما قلت له متألما .....

- "لا أجد السعادة....."..

اِبتسم بثقة:

- "هل تعلم، أرى السعادة كلها تكمن في الحب"
- "الحب!!!!!!...... لا يوجد وهم مثل الحب ولا حقيقة مثل الموت، هل تؤمن بالحب؟"
- "أؤمن بالحب، الحب سر الحياة، سر كل تلك العلاقات المتبادلة وروابط الحياة، الحب أهم غريزة يسعى لها الإنسان في حياته، الحب بكل أنواعه، لا يستطيع إنسان الحياة من دونه"
- "لذلك لم أشعر بالحياة يومًا، حياتي خالية تمامًا من الحب"
- "لا توجد حياة خالية من الحب"

أشار إلى صدري وأكمل "الذي وهبك هذه الروح يحبك" وعاد ينكزني في جانبي "وأعتقد أني أيضًا أتسامر معك الآن؛ لأني أحبك..."
إبتسامة تسللت من أفكاري البعيدة إلى شفتي، نظر إليّ من جواري نظرة غضب صارمة واضحة، بالتأكيد يعتقد أني لا أحترم هيبة الموت، وضعت رأسي بين ساقاي وأنا جالس مطأطئ الرأس لا أريد رؤية أولئك الحمقى.
مَن وهبني هذه الروح، أين هو فأسأله لمَ سلبك أنتَ الروح؟، هل تراه الآن وتفهم؛ أم ذهبت إلى العدم كأنك شيء لم يكن يومًا! صديقي،

إبتسامته، ذكرياته، تفاصيل حياته، حبه، كرهه، فرحه، غضبه، همه، هل تلاشى كل ذلك معك في طرفة عين إلى العدم!! هل سينساك العالم كأنك لم تمر به يومًا، لكني لا أنسى كلماتك أبدا...

"هل تعرف أن الحب يزيد هرمونات السعادة، يقودنا إلى الفرحة والإبتسامة"

الآن أعرف أيها الراحل ذكرى وجودك تقودني إلى السعادة، فهمت الآن الدرس للمرة الثانية الحب قوي، الحب قوي جدًا كما الموت يا صديقي والرحيل لا يلتهم سوى الأعزاء.

اِنهمرت دموعي مرة أخرى رغمًا عني والذكريات تسري كالفيضان بداخلي حين سألته ذلك اليوم...

- "هل تخاف الموت...."

- "الخوف من الموت غريزة يا صاحبي، وليس عيبًا أن تخاف وليس عيبًا أن أطلب منك أن تعيش قبل أن تموت؛ فالموت لن يأتي في غير ميقاته."

- "ما هو الموت من الأساس أنا لا أفهم هذه الفكرة التي تلتهم بداخلها حياة كاملة بكل تفاصيلها"

- "سألت أبي في أحد الأيام أن يخبرني عن الموت فقال لي أن ملك الموت عندما ذهب لسيدنا نوح بعد حياته الطويلة هذه سأله: كيف وجدت الحياة؟ فقال: لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر."

- "وهل صدقت هذه الخرافات والأساطير!..."

- "لا أدري! ولا أدري كيفية الشعور لحظة الموت ولكن لا يمنع أنه يتحتم علينا أن نعيش الحياة كما يجب طالما نحيى فيها، ولا تشغل بالك كيف الموت، جميعنا سنكتشفه يومًا"

كان قيام المصلين يتراصون لصلاة الجنازة، إعلانًا خفيًّا عن موعد الرحيل النهائي، الجميع يقف مطأطئ الرأس، يغمره الحزن وهيبة الموت، الموت يحيي المآسي لدى الجميع ويبدو أن الجميع لديه عزيز يبكيه عندما حان الموعد جاء أبي وأمسك يدي لأقف جواره بالصف الأول كأنه يخاف ألا أقوم للصلاة فأحرجه بين الجموع، أعرف أن هذا كل ما كان يشغل باله، لكنه لا يهتم حقيقة بما أفعل في حياتي، وقفت بينه وبين والد (أحمد) أنظر إليه وأتعجب كيف يقف بين الناس دون أن ينهار، دون أن تنهمر دموعه، كان يتحمل الحزن بثقة شديدة وهدوء، وأنا لا أفهم من أين يأتيه كل هذا الصمود، هل هو شديد القسوة أم شديد الصدمة !!

لم أصلِّ فعلاً؛ بل بقيت واقفًا بينهم أحدث صديقي وأنظر إليه وإلى حاله ولا أهتم بتلك الطقوس التي يقيمونها دون أن يفهموا من أين جاءت!

يتمدد صديقي ملفوفًا بقماش أبيض لا أتبين منه ملامحًا، لماذا يغطون وجهك وأنا أشتاقك؟ تغالبني الدموع ولا أغلبها، أتذكر كل كلماتنا معًا؛ كأنه شريط سينمائي يمر أمامي ليبلغني كم هي تافهة هذه الحياة.

حمل صديقي فوق أكتافي، كان أَبعَد الأفكار إلى مخيلتي يومًا ، ظللتُ أبحث عن فكرة الموت والموت

قريب جدا مني، الموت أحمله فوق رأسي الآن ولا أراه ولا أحد يشعر به .

كان نزوله إلى قبره سريعًا، مؤلمًا، ومهيبًا عجزت كل الكلمات عن وصف ألمي في هذه اللحظة ولا كل حروف الكلمات تتسع لجملة وداع واحدة لمَن نحب، لم أستطع النظر طويلاً إلى مراسم الدفن.

عجبًا! مَن لا يطيق الحياة يفر من مراسم دفنها!!

لكن كيف للذي لم يفهم الحياة أن يفهم الموت وكيف لمن لم يحيَ يومًا أن يموت؟

- يوسف!.

جاءني صوت رقيق باكٍ من خلفي، خفق له قلبي بقوة.

- حُور؟

نظرت إليها لا أصدق عينيَّ، لا أكاد أميزها، كم تغيرت، ترتدي ملابس شديدة الضيق والكلفة وقد كانت لا ترتدى سوى ملابس رقيقة تظهرها كفراشة، شعرها الأسود تغير لأصفر قوي لافت وعيونها الزرقاء الجميلة التي لطالما غرقت بهما ذابلة متورمة من أثر البكاء الشديد والصدمة.

صمتُ للحظات لا أعرف ماذا أقول لها أو كيف أستطيع أن أواسيها قبل أن أمسك بيدها بين كفيَّ؛ وأقول لها:

- لكِ العمر المديد، عزيزتي

- البقاء والدوام لله (يوسف)، هل ترى كيف مكرت بي الحياة ولم استطع لقاءه، أنتَ محظوظ جداً؛ لأنك قابلته واحتضنته وشممت رائحته قبل رحيله يا (يوسف)

- لا تبكِ أرجوك، (أحمد) لم يرحل؛ بل ما زال هنا في قلوبنا.

أعدت عليها نفس كلام الشيخ، دون أدنى تفكير، نحن لا نعرف كيف نواسي الناس، نحن لا نستطيع المواساة سوى بالأكاذيب، خانتني الكلمات وهربت مني حين احتجتها حقًا، نحن أضعف ما يكون حين نحاول مواساة بعضنا.

اِلتف حولها الناس والمعزين فأنقذوني من موقفٍ عجزت عن الصمود فيه؛ لكني اِلتفتُّ إليها مرة أخيرة:

- حُور... أعطني رقم هاتفك.

أعطيتها رقمي وأخبرتها أني الآن (أحمد) إن احتاجت أي شيء.
اِبتعدت عن الجموع التي تلتف حولها وأنا أراقبها من بعيد كالعادة، أسوأ ما في الأمر أن تحن بكل جوارحك، لكن تعودك الفقد يُعيقك من الاقتراب، فتخذل نفسك وتعود وحيدًا.
اِلتفت عائدًا إلى حيث وضعوا صديقي، كان محقًا للقلق عليها، فوراء مظهرها حزن عميق لا يفهمه إلا مَن يعرف (حور) الفتاة الرقيقة.
نظرت إلى مكانه، بيننا باب لن يُفتح أبدًا، كان عندي يقين أنه يشعر بي ويفهم كل كلمة تدور بداخلي، جلست على الأرض أمام قبره أتمنى أن يسمع ذلك الحديث داخلي:
"تفهم أني بذلت مجهودًا كبيرًا وفشلت في معظم ما أقدمت عليه في حياتي، تفهم أني كنت وحيدًا ولا أحد يفهمني أو يهتم بي، حتى مشاعري التي منحتها لم تعد بمقابل يُرجى مِن كل مَن حولي، الإحباط والتعاسة لم يكونا بإرادتي، مقدماتهما تسللت إليّ ببطء وثبات، أبدو مستقرًا ظاهريًا لكنني منزعج بقوة، كنت أحتاج لبعض الحب فقط يا صديقي، أنا فاشل في كل شيء حتى الموت فشلت فيه".
عادت دموعي تسيل بمرارة، رغم موته، رحيله كان أكثر شرفًا من أولئك الذين رحلوا وهم على قيد الحياة.

الحياة شديدة المكر، شديدة الدهاء، شديدة الإغواء أكثر من عاهرة، تنتصر في النهاية دائمًا على الموت، نحمل على الأعناق أجسادًا بقصصٍ معلقة غير منتهية، بقايا أحلام لم ترتوِ، وشوارد لم تلتئِم، نهايات غير متوقعة نحملها جمعاء، نرميها في حفرة ونغمرها بحفنة من التراب، نتركها خلفنا ببساطة ونرحل، نتركها ونعود للحياة، لتنتصر الحياة في كل مرة علينا..

ربت والده على كتفي قائلًا:

- كفاك بكاءً فإن دموعك تؤلمه وأنتَ تعرف كم كان يحبك.

وضعت وجهي في الأرض همًا وخجلًا من ضعفي:

"فهمت لماذا يخاف الناس الشيخوخة يا صديقي، نحن لا نشيخ بمرور الأيام، نشيخ بمرور الذكريات، ونشيخ برحيل مَن نحب، اِكتشفت أن أسوأ ما في الشيخوخة ليس الموت، بل أن تكتشف أن كل ما بحثت عنه في رحلة حياتك وتمنيته يومًا، كان يعيش معك يومًا ما ولم تدركه، رحل عنك فجأة، أسوأ ما في الشيخوخة، أن تفهم متأخرًا معنى الحياة، قاموا بإغلاق الباب عليك من الخارج، إنه الباب الوحيد الذي يفتح ويغلق من طرف واحد، لماذا من بالداخل لا يسعى للخروج أبدًا، ما

السر وأين أنت الآن، هل تلاشيت أم أنك تشعر بوجودي وتسمعني هنا..."

********************

## ( ١٠ )

(صفاء)

أخيرًا خرجت من ترددي تحت وطأة ضغطه الشديد، وتحت رغبتي الأشد؛ لأخرج من هذا المكان مهما كان الشرط أو الثمن، اتخذتُ قرارًا، أخاف أن أندم عليه يومًا، أول قرار اِتخذه بحياتي دونًا عن رغبة أسرتي ودون أن ألتفت لرفضهما.

ذهبت معه، اِستسلمت لإلحاحه واِستلمت روشتة خروجي، ومفتاح حريتي من ذلك العنبر، خفت كثيرًا من الفكرة بالبداية، فقد أصبت بفقدان الثقة في كل من حولي بعد تلك الأحداث الأخيرة، لكن حين وصلت مقر الجمعية الخيرية، قلَّت شكوكي كثيرًا، فقد سمعت الكثير من المديح عن هذا الأب، وعن بيته وعن تربيته لابنه الوحيد الطبيب (إبراهيم)، والكثير عن زوجته الفاضلة التي توقف نشاطها بالجمعية بعد إصابتها بالمرض الشديد، عرفت أنها طريحة الفراش منذ عدة سنوات، نتيجة العديد من أمراض الشيخوخة، سمعت بعض الكلمات التي فهمت منها أنه تزوج مرة واِنفصل عن زوجته، وقد أصابني ذلك منه بالكثير من النفور، فكيف يحرم طفلته الصغيرة من حنان الأسرة والدفء العائلي، كنت أعتقده رجلاً طيبًا؛ لكنه ليس إلا رجلاً ككل الرجال،

يرحل تاركًا الأطلال وراءه ولا يبالي، في كل الأحوال ذلك أمر لا يعنيني، يكفي عليَّ حمل همومي ومشاكلي لأهتم بمشاكل الناس، قررت أن أواجه أمري وأتحمل مسؤولية التجربة وفي الحين ذاته سأتجنب ذلك الرجل قدر الإمكان بعد أن أُمسك بيدي زمام كل الأمور.

خرجت من الجمعية وقد اِطمأن قلبي نوعًا ما لهذا الأب ولهذا المنزل الفضيل، منزل متوج بالعلم والعمل الطيب، أرهقته الشيخوخة والأمراض، فَقَدَ ذلك الأب بصره بإصابته بمياه على عدسة العين – جراء مرض السكر - جعلته عاجزًا عن متابعة قراءاته التي يدمنها بمكتبة العائلة، رغم أني لم أستطع تقبل ذلك الابن، فقد اِنشرح قلبي لقصة الأب الفاضل.

حسمت أمري وذهبت إلى منزلهم، متتبعة العنوان الموصوف، كنت أصعد درجات السلم فتخونني الخطوات، ويدفعني التراجع ويقيدني الخجل، لم أكن واثقة بأن هذا قرارٌ صائب، لكني أحاول أن أعقد صفقة مع الحياة مرة أخرى، أتنازل عن حزني مؤقتًا وأتماسك، رغم أني أشعر بضعف جسدي ووهن روحي، لكن عليَّ ألا أستسلم، أن أقاتل، ليس من أجلي؛ بل من أجل ذلك الغائب، لعله يعود يومًا.

طرقت الباب، فتحت لي امرأة يبدو عليها أنها عاملة، أدخلتني وتركتني أنتظر، اِنتظرت فترة ليست بهينة، لم أجد ما أفعله سوى تأمل المنزل، أول نظرة تقع فيها عيناك داخل هذا المنزل تشعر أنه منزل قديم أكل

عليه الدهر وشرب ولكن بعد أن قلبت نظري داخله برهة وبعد إنتظاري، وجدت رغم كونه بسيطًا، إلا أنه مغلف بجو من الرقي والعراقة، شعرت أني اِنتقلت بالزمن إلى منزل بالعصورالذهبية، لوحات بالخط العربي تزين الجدران وكراسي من الأرابيسك شديد الإتقان، وسجاد من الأشغال اليدوية رائعة الألوان، رائحة البخور العربي تتصاعد في المكان دون أن ترى منها أثرًا، منزل يغلفه جو من الراحة والسكينة، لكن بلا ساكنين، فلم يأتِ أحد لتحيتي إلى الآن، هل أنا ضيف غير مرغوب أم أن الجميع مشغول لهذه الدرجة، لا أفهم ما الأمر؟

لم أرَ بالمكان إلا ظلاًّ لتلك السيدة الذي يظهر من طرف باب نصف مفتوح ونصف مغلق لأحد الغرف ترعى طفلته الصغيرة وتجلس بها.

أخيرًا جاء د/(إبراهيم) الذي دائمًا يبدو مهرولًا على عجلة:

- نورتي منزلنا المتواضع.

- شكرًا د/(ابراهيم)!.

- أعتذر عن جعلك تنتظرين، فأبي يجلس بالمكتبة لا يخرج منها إلا نادرًا، أنا سعيد جدًا بقبولك التجربة وبتشريفك بيتك الثاني، رغم أنك لم تتحدثي حتى الآن، ولم تخبريني عن أية تفاصيل أخرى لأزمتك.

صوت بكاء الطفلة يسترق سمعي ويشغلني نوعًا ما عن حديثه، كلي فضول أن أراها وأحملها بين ذراعي، كالعادة يتحدث ولا أكاد أستوعب

من كلامه حرفًا واحدًا، ظالمة هي هذه الحياة، أماتت طفلة تريدها أمها، ونفخت الروح في طفلة لا تجد مَن يرعاها!! لم أجد ما أرد به على كلام لم أسمعه، هززت رأسي وأنا صامتة، بما يوحي أني أسمعه جيدًا:

– حسنًا، سأذهب إلى أبي لأخبره بحضورك، دقيقة واحدة وأعود.

ذهب مسرعًا لكنه دخل إلى الغرفة التي يصدر منها صوت الطفلة أولًا، نظرت إليه مطولًا يرفعها ويضمها إلى صدره ويقبل رأسها بكل حنان كمَن يرجوها أن تهدأ، سرق لُبّي هذا المشهد للحظات، يغلف هذا الإنسان هالة كبيرة من التعاطف ورحمة رغم كونه مجنونًا، المشاعر لا أحب أن أُخدع بها مرة أخرى، تلك صورة كفرت بها ولا أكاد أصدقها، هل هو حقًا رجل مثل هؤلاء الرجال الذين رأيتهم في حياتي، أم أنه شخص يهتم حقًا، حملها بين يديه كمَن يحمل زجاجًا هشًا يخاف تحطيمه، لكنني ناديته بلا وعي عندما همَّ بالذهاب إلى الغرفة المجاورة:

- دكتور (إبراهيم)!...

- نعم!.

- هل يمكنني حملها؟

اِبتسم واِقترب مني ووضعها بين ذراعي؛ قائلًا:

– أتمنى حقًا أن يحملها ذراعاكِ.

أشعرتني نظرته وكلماته بالخجل الشديد، وشُلَّ انفعالي للحظات، كيف يمكن أن يكون إنسانًا بكل هذه الطاقة من جبر الخاطر ويفشل في زواجه ويتخلى عن أسرته !! كيف هذه الأقدار محيرة، شديدة التخبط !! اِتجه إلى مكتبة أبيه، وأنا جلست أحمل الطفلة بين ذراعي، قبَّلت جبينها محاولة ألا أبكي لا أقوى على السقوط مرة أخرى أسيرة تلك المشاعر القاتلة التي تلتهمنا مع رحيل مَن نحب، إن الأمل مازال يغلفني أن ذلك الراحل سيعود يومًا ما، غاب لحظات قليلة ثم عاد ووقف أمام باب الغرفة مناديًا:

- تفضلي، ادخلي

عندما اِقترب مني ليحمل الطفلة، مس كفي مسًا خفيفًا لا أدري إن كان متعمدًا أو غير متعمدٍ لكن اِقشعرَّ بدنى كله؛ كمَن نفضته الكهرباء وانتابني خوف يغلفه الغضب الشديد على نفسي عند إنتفاض قلبي بكل هذه القوة؛ حتى كاد يهرب من بين أضلعي، لماذا اِرتعشت ساقاي، وشعرت بالخجل الشديد، لم أدرِ يومًا أن لمسة كف يمكن أن تُحدث كل هذا الأثر وكل هذه الضوضاء بداخل جسد إنسان:

- آسف، تفضلي، أبي في إنتظارك.

اِبتسمت إبتسامة مجاملة بكل جدية كأن شيئًا لم يحدث، دخلت الغرفة أداري كل تلك الزلازل التي اِهتزت بداخلي بكل قوتها في آنٍ واحد، رغم أن السطح يبدو ساكنًا، هادئًا جدًا، لا مباليًا:

- السلام عليكم!.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا اِبنتي، يسعدني وجودك، تفضلي اجلسي.

نظرت حولي لهذه المكتبة، وأسر إحساسي مزيدًا من الروعة والجمال، مكتبة جمالها يناسب عراقة المنزل، ما كل هذه الأرفف أمامي، هل قرأ حقًا كل هذه الكتب؟ متى وكيف؟ داخلني فضول كبير تجاه هذا الرجل، فضول عن تفاصيل حياته وما مر على هذا الكهل.

- أبي هذه (صفاء)، جاءت لتساعدك بالقراءة!.

- هل أنت تابعة لتلك الجمعية!.

- لا لم تشترك بنشاطات الجمعية بعد، أنتَ أول نشاط حقيقي الآن!.

- اِصمتْ أنتَ، هل أكلت القطة لسانها، كيف سأتعرف عليها إن لم أرَ وجهها أو تعطني أنت الفرصة لسماع صوتها.

ضحك (إبراهيم) مقهقهًا:

– حسنًا، سأصمت، لكن صدقني ستسمع صوتها كثيرًا لدرجة أن تشتاق سماع صوتي مرة أخرى.

ضحكنا جميعًا..

وقد خالجني شعورعميق أني أجلس بين أناس أعرفهم طيلة حياتي، وليس فقط منذ بضع ساعات قليلة.

عاد د/(إبراهيم) إلى عمله وتركنا، جلست أتحدث مع ذلك الرجل العجوز فترة ليست قليلة من الوقت الذي سرقني دون أن أشعر، عرفني على مكتبته، عرفني على حياتهم، ثم جلست جواره أقرأ له لا، ليس حقيقيًّا بل كنت أقرأ لنفسي أكثر منه.

****************

## ( ١١ )

(يوسف)

أصبح الآن أهم أهدافي في الحياة أن أفهم السر، أن أكتشف أين ذهب صديقي، وأين الآن أمي، أن أثبت أنه لو وجد إله فهو شديد القسوة، شديد الظلم.

عندما دخلت المنزل حاولت إلهاء نفسي بالمرور على صفحة الفيس بوك، لعلي أتشتتُ قليلًا بعيدًا عن هذا الجو الكئيب، مررت بأصابعي على شاشة الهاتف لاحظت وجود العديد من رسائل التعزية التي لم أكن أنوي المرور عليها أو محاولة قراءتها أبدًا، لا أملك القوة لأضع نفسي تحت تأثير تلك الكلمات الباردة التي لا تعني الكثير لمَن يكتبها، لكنها ترميني بكل قسوة في جوف مشاعري.

وسط زحام الرسائل لفت نظري رسالة واحدة فقط، رسالة واحدة قررت قراءتها، شدتني إليها كمغناطيس ولا أدرِ لمَ؟

رغم أني أكره هذه الفتاة، لكني شعرت كلماتها ، مست بروحها قلبي مسًا طيبًا، رغم محاولاتي أن أحتقر تلك الروح التي تحتلها، كيف لها أن تمر عليّ هذا المرور الطيب السلس.

"السلام عليك..أخي العزيز البقاء لله، ربط الله على قلبك وألهمك الصبر، رحم الله صديقك.

أفهم كيف تبدو الأيام فارغة برحيل مَن أحببنا؛ ولكني على يقين بأن كل ألم يمر يحمل بين طياته رحمة، إن مرور الأيام لا تنسينا الرحيل، لكني على يقين أنها تداوي آلامه، الزمن يداوي الجراح برغم ظهور ندباتها علي السطح أحيانًا، لا تتعجب كيف أفهم هذا الشعور فلكل منَّا فقيد بعميق قلبه، لا تخاف إن فارقت الروح الجسد، فإن ذلك لا يغير من حقيقة الإنسان شيئًا، الجسد مجرد ثوب، يكتسي به الإنسان فترة مؤقتة، وحين يخلعه، لأنه فقط لا يستطيع الإنتقال به، لكنه لا يخف إحساسه بنا أو إدراكه لنا ولا يغير من روحه العطرة الطيبة، لصديقك وجميع أمواتنا الرحمة"

(ياسمين)

أي رحمة هذه!.

لا توجد رحمة بهذا العالم، لكن فكرة هذا الثوب لابد أنه خفف صدمة الموت على الكثيرين، لذلك يتناقلها الجميع دون حرج، جلست باقي اليوم على فراشي، لا أتحرك، ولا أريد مجرد المحاولة، أغلقت هاتفي بعد أن أصابني بالملل دون أن يسري عني، تقوقعت على نفسي كجنين

ببطن أمه، بقيت على فراشي متعبًا كئيبًا يجافيني النوم، أحاول أن أنسى أني مازلت حيًا.

لا أحب الضعف ولا أحب هذا الإنتحاب على الأطلال، لا أحب مرور الذكريات كلها مرة واحدة أمام عيني، أكره هذا الشعور، أنا أكره حقيقة هذا الشعور.

مرَّ بخاطري قول كنت قد قرأته للباحث الإجتماعي فرانك أبوت "الموت ليس عدوًا للحياة، ونحن لا ندري ما كانت ستصبح عليه الحياة دون موت".

نفس التساؤل يلح على عقلي، ما هي حقيقة الحياة وحقيقة الموت؟

ظللت أدور وأدور بالأفكار داخل عقلي إلى أن قررت التسلل فجأة بعد أن أنهكني الأرق بالفراش، إلى ذلك المكان الذي اِعتدنا أن نجلس به سويًا، اِتجهت إلى تلك الأريكة ونفضت عنها أوراق الشجر الكثيف المتساقط وأنا أتعجب من أين أتت كل هذه الأوراق والأشجار هنا حولي التي تشعرني أني بغابة!

جلست وحيدًا أنظر إلى صفحة النيل والظلمة التي تحيطني، والضباب الشديد، عندما جاءت تحيط بها هالة من نور تجرجر عباءتها وبكل هدوء جلست إلى جواري، لا أستطيع تبين ملامح وجهها مع كل هذا الظلام والضباب وإنعكاس الأضواء بعيني، لكني أعرف أنها هي، كم أسعدني وجودها في هذه اللحظة، كم أحتاج للحديث معها، ميزت

صوتها الهادئ وهالني كم أردت سماعه، ربتات يدها الحنون على ظهرى، تخبرني أنها تفهم أني منهك الروح.

- إنها الحياة عزيزي لا يفهمها إلا الصفوة.

- وهل تفهمينها أنتِ؟ أنتِ أيتها الطفلة؟

اِبتسمت إبتسامة ودودة تشع سكينة:

- عزيزي، الرغبة لمعرفة لماذا وكيف نعيش تشغل الكثير من البشر حتى وإن كنت مجرد طفلة بخيالك. وأعتقد أنه لا يحيى مَن لا يفكر، ومَن يطرح هذا السؤال يفكر ومَن يفكر هو إنسان، سيصل يومًا إلى الحقيقة.

تطلعت إلى سواد الليل والسماء فوقها وهي تهز قدميها قائلة:

- الحياة موجعة مؤلمة، جميعنا نمر بلحظات يعتصرنا الحزن حتى يكاد يختلع قلوبنا، أنت لست وحيدًا بهذا، جميعنا نرى نفس الألم ولكن كيف نراه هذا يعتمد على دواخلنا.

- أعتقد أن هذه الحياة لا تناسبني، أتمنى أن أتلاشى.

- لكنك في الوقت ذاته لا تتمنى الموت، أنت تخافه.

فاجأتني الكلمة، كيف تسرد حقيقة أخفيها أنا على نفسي أنكرت قائلًا:

- أنا لا أخاف فقط أريد الهرب من حياة لا تناسبني.

- نظل نعتقد أن الحياة لا تناسبنا حتى نصل يومًا لا نكاد نناسب الحياة ولا أنفسنا.

إنها تتسلل إلى داخلي وتسرد تفاصيلي، ما عجزت عن فكه وترجمته وحل شفراته؛ كأنها تعيش داخلي بكل براءة، لتزيح عن روحي ثقلها:
- أشعر أني وقعت بفخ، أنا في المتاهة، يختلط النور بالظلام ولا أميز، تساورني شكوك عظيمة بين الحقيقة والسراب، بين الخطأ والصواب.
كيف أخبرتها كل هذا، كيف أتحدث إلى غريبة، أخبرها ما عجزت عن إخباره لكل العالم؛ حتى إخباره لذاتي.
مدت ذراعيها تلفني بحنانٍ، فسقطت رأسي بين أحضانها دون تردد، دون مقاومة سقطت على صدرها، أبكي كطفل ساذج، بلا كلفة، رغم أني لا أحب هذا الضعف أمامها، لكني أتمنى أن أصب إليها كل ضعفي، شممتُ داخل أحضانها رائحة أمي، نبضات قلب أمي، تلك الراحة التي رحلت مع رحيلها.
قالت وهي تمسح على ظهري، وتزيح تلك الهموم المتشابكة في صدري:
- تمييز الخطأ والصواب فطري وكل قدرات القلب فطرية، والضمير فطرة، تلك أشياء يمكن ألَّا نراها ولا نلمسها ولا يعرفها عقلنا، لكن تدركها مشاعرنا وتميزها إنقباضة صدورنا، الإفلات من الضمير صعب كالإفلات من ظلك، وقد لا نستطيع تقديم البراهين على صوت ضميرنا، لكننا رغم ذلك، نميزه ونعرفه جيدًا، هو جزء من إنسانيتنا.
صمتتُ لحظات ثمَّ قلت بصوتٍ مختنقٍ:

- أنا وحيد جدًا، يرحل كل من أحببته.
- كيف تكون وحيدًا وأنا هنا جوارك، جئت من أجلك ولن أتركك أبدًا.. لن أتركك أبدًا!
قالتها ودموع اِختنقت بمقلتيها، لا تميزها سوى لمعة عيونها لضي القمر، غصتُ أختبئ في ظلمة عباءتها، راحة وسكينة وهدوء عجيب يغمرني، أود لو ظللت هنا إلى الأبد، النوم يتسلل إليَّ وآخر ما يتردد في أذني، صوتها يقول بهمس خفيف:
- عزيزي أنت وحدك ستكتشف الإجابة عن كل تلك الأسئلة التي تطرحها نفسك.
أفزعني فجأة صوت مذياع ينبعث من أحد السيارات المارة، أدركت أنه اِنتزعني من حلمي، نهضت مسرعًا لأتأكد أني على فراشي، بالبيت، أني كنت بحلمٍ غريب، مع تلك اللعينة، كيف تسللت إلى أقرب أحلامي، أمسكتُ الهاتف بيدي، لعلي أجدها فأقتلها، لكني كنت أقل شجاعة ألقيت نظرة فقط على صفحتها، على صورتها، على أفكارها، وما تكتبه، وما تحكيه.
"إن العشق جوهر الحياة، يقرع أبواب الجميع يومًا ما، حتى مَن يتحاشون الحب، ومَن يستهجونه يبحثون عنه يومًا ما"
كم أكره تلك الفتاة وكلماتها المنمقة، أيًّا كان هذا الحلم، فقد أوحي إليَّ أني أفكر بها، أنها تتسلل إلى داخلي دون دعوة ودون مقاومة، قد

صدقتها حين ذكرت أنني الوحيد القادر على مساعدة نفسي هنا، أني الوحيد القادر على إكتشاف تلك الحقيقة بنفسي.

نهضت من مكاني وأنا محمل بعزائم قوية، ذهبت إلى مكتب أبي، أمسكت ذلك المصحف الوحيد بالمكتبة، المصحف الوحيد الذي يتواجد بهذا البيت منذ سنوات طويلة، مسحت عنه تلك الأتربة المتراكمة عبر السنين.

قررت أن أتفحصه، وأن أفهم ما يحاول تقديمه للناس لتخديرهم بهذه الطريقة! ما نوع هذا الوهم الذي يبيعه ويصدقه الناس حين فتحت وبدأت القراءة محاولًا أن أكون حياديَّ النظرة، كان إنطباعي المبدئي أن مَن كتب هذا الكتاب؛ لابد أنه يفهم الحياة بصورة خاطئة.

هناك خطأ ما، شيء ما مريب ولا يريحني لابد أن أعثر على هذا الخطأ وأوضحه للعالم، الناس تقرأه بلا حيادية وأنا سأفعل.

فتحته، ......

نظرت لأول صفحة، قرأتها، قرأتها بكل تأني ، ثمَّ أعدت قراءتها مرة واثنتان وثلاثة بكل تريث ولم أتعجل.

## ( ١٢ )

(يوسف)

كل صفحة مررت عليها قرأتها وأعدت قراءتها عدة مرات، لم يكن الوصول إلى المعاني المبطنة داخل ذلك الكتاب سهلًا، طريقة كتابته وقراءته ليست معتادة وليست كباقِ الكتب التي يمكن أن تجدها في أي مكان، في البداية تجد الأسلوب غريبًا، ثمَّ تعتاده مع إستمرار القراءة، ثمَّ تتذوق تلك المعاني المبطنة خلف الكلمات التي تعتقد أنها تشبه بعضها، أو تعتقد أنها تتكرر بلا هدف أو معنى جديد، كنت شديد الشغف أن أصل إلى وجهة نظر هذا الكاتب الحقيقية، ما نوع هذه القوى الخفية التي تسيطر على عقول المساكين، أنت لن تفهم إنسانًا حتى تقرأه جيدًا وها أنا قررت قراءتك بكل تأني لكن مازال يخالجني نفس هذا الشعور غير المريح بداخلي، أن هناك أمر ما يفوتني ولا أستطيع رصده أو إصطياده.

وصلت إلى هذه الصفحة وفجأة شعرت بأن الأمر الغريب يحدث هنا، لابد أن أقرأ هذه القصة بتأني أكبر كلمة كلمة، لا أدري ما هذا الشعور الغريب الذي يعتريني تجاهها.

يشبه أن تحارب عدوًا وأنت تعتقده شخصًا آخر؛ فمَن كتب هذا الكتاب ماكرٌ جدًا شديد الدهاء ليس بالبساطة أو السذاجة التي كنت أعتقدها،

أعلم الآن أن مهمتي لن تكون سهلة كما تصورت، فبالتأكيد لم أكن أول معترض ولا أول باحث في هذا الكتاب، فكيف فاتني أن هناك مَن بحث قبلي ولم يصل، وكيف اتأكد من أني سأصل يومًا، تمعنت هذه الكلمات ببطء شديد وتأني أكبر

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"

لفتت نظري تلك الآية وجعلتني أعيد قراءتها، مرة تلو الأخرى، أي خلافة التي يتحدث عنها والبشر مهانون، يعانون، يموتون ظلمًا وقهرًا، والحياة لا تكف عن الضغط عليهم، والألم لا يتوقف عن طرق أبوابهم عبثًا، دون أي ذنب يقترفونه، أي خلافة هذه وأي شرف يحاول أن يثبته هنا!!

كيف يتشدق بكرمٍ ليس حقيقيًا، لماذا يُحرف القصة الأصلية، أعلم أنها غير ذلك، أعلم أن للقصة أبعادًا أخرى، فلقد نزل الإنسان الأرض عقابًا على خطيئته يوم أكل التفاحة، كانت مجرد تفاحة !!

ما أسفهه من ذنب وما أعظمه من عقاب، كيف يفعل إله ذلك؛ ثمَّ يحاول الجميع أن يثبت أنه رحيم، لماذا الكاتب هنا يتحدث عن تكريمه للإنسان، أي تكريم!!!!

لِمَ لا يتحدث عن تعذيبه، أنا لا أفهم كيف يتجرأ على قلب الحقائق وتزييفها بهذا الشكل المعلن، لماذا يتلاعب ويستخف بعقول الناس وقلوبها ؟

علّي أن أسايره في آلاعيبه، أن أحاول فهم دسيسته؛ فلقد مرَّ ببالي نفس سؤال أولئك الملائكة بالضبط؟ وأنا أنتظر منه الإجابة، إن كنت حقًا خلقت الإنسان لتكريمه، لِمَ أعطيته هذه القدرة على سفك الدماء والفساد ؟ لماذا جعلته طاغيًا قاتلًا مدمرًا؟

يُعذب ويتعذب، في حين أنك تملك العديد من ملائكتك التي تحيطك في الجنة بالتسبيح !!

ما هو الهدف الذي يريده من هذه القصة!!

أي إله هذا الذي يخلق إنسانًا بعيدًا جدًا عنه يضعه في الأرض لا يراه ويكون هدف وجوده العبادة، والملائكة قريبة، تعبده ولا تتوقف عن عبادته وتستمتع بالجنة بنعم غامرة، لم يحاول إيهامه بفكرة التكريم، ما المشوق في هذا النوع من الخلق إن كنت تمتلك من هو أفضل وأكثر طاعة، لماذا الإنسان الذي يملك كل هذه الحرية للتخريب!!

إن هذا الإله الذي يتحدث عنه يشبه كثيرًا أساطير الإغريقيين القديمة؛ يجلس هناك على عرش بعيد ينظر من أعلى السماء وينتظر تطور الأحداث، مَن يَقتل مَن؟ ومَن يُؤلم مَن؟ ومَن سيرحل عنه أحبابه!

إن كنت إلهًا تحب خلقك وتود تكريمهم؛ فلمَ لم تخلقهم ملائكة وتتركهم في الجنة حولك يسبحون لك دون معاناة هذه الحياة الدنيا؟

شعرت بكثيرٍ جدًا من الغضب، إنه ماكرٌ جدًا، يقذف إليّ بنفس سؤالي، الذي ما زلت أعجز عن فهمه ولا يجيب، ما نوع الألاعيب التي يلعبها هنا؟

تركت ذلك الكتاب غاضبًا جدًا، رميته جانبًا وأنا أختنق، أختنق منه ومن نفسي أيضًا، فلم أتوقع أن أمِل بهذه السرعة، أتمنى ألا يكون هذا أول مؤشرات الإستسلام.

قررتُ الخروج من البيت لأشغل بالي بأمر آخر مؤقتًا، حتى لا أستسلم لكل تلك المشاعر السلبية تجاه نفسي؛ فأنا أختنق بكل ما حولي ومن كل ما حولي، أنا أصارع إلهًا لا أؤمن به ولا أؤمن بوجوده في كل الأحوال، يطرح أسئلة ويتهرب من إجابتها.

في ذلك الوقت من الليل المشي في الطرقات لا يجيبه سوى الصمت الواسع، الإنصات إلى المدينة الغافية لا يساعدني، بل يزيدني كآبة و عبوسًا وفكرًا وثقلًا لأفكاري يزيدني.

أنظر إلى البيوت المغلقة وأتساءل عن القصص خلف كل تلك الأبواب الموصدة، ألح على سؤال لم أتوقعه قبلاً لو أني خُيرت للعيش بحياة أخرى، ماذا كنت سأختار؟ ومَن كنت أختار ليشاركني هذه الحياة! لا

أعلم هل الأفضل لي أن أختار الطريق أو أن يختارني الطريق بنفسه؟ هل سيكون الأمر أسوأ كثيرًا أو هناك أمل ليكون أفضل.

أنظر لوجه القمر الدافئ، جميل، يتلألأ بسماء الليل السوداء، الحجر الأسود الأصم يتلألأ نورًا ويشع ضياءً، يخدعنا أم أننا مَن لا نعترض على خديعته، مازلنا نتشدق بضي القمر، رغم أن الجميع أصبح على يقين أنه لا يضيء ولا يشع نورًا، كيف للبشر أن يخدعوا أنفسهم، دون أن يحرك ذلك ساكنًا داخلهم، نحن نرى كل الحقيقة، ثمَّ لا نبصر منها إلا ما نريد فقط، نعمي عيوننا ونزيغ أبصارنا عن الحقائق، اِبتسمتُ ساخرًا، وأنا أتذكر لماذا يرتبط وجه هذا القمر الخادع بالعشق**!!** كيف يكون العشق جديرًا بخداعه إذا لم يرتبط بصورة هذا القمر الزائف.

عدت لمنزلي بعد فترة ليست بقصيرة يساورني نفس إحساسي الكئيب السيء، لم يخفف عني الخروج هذا الثقل الذي مازال داخلي، فكل ما اعتقدت أنه سيسري عني أشاع داخلي المزيد من الكآبة.

مررتُ بمكتب أبي الأنيق، نظرت إلى مكتبته العامرة بكل أنواع الكتب، أدب، تاريخ، علوم، سياسة، فلسفة، تلك المكتبة التي صممها أبي كديكور رائع للمنزل، كنت أنا المستفيد الوحيد منها أيام وحدتي كلها، كم عدد تلك الكتب التي قرأتها، لا أعلم، لكني أعلم أن الغرض منها في الأصل الزينة، أما ما قرأته أنا فقد كان من الصدف غير المتوقعة منها.

قرأتُ كل الكتب تقريبًا، إلا هذا الكتاب الذي لم يجذبني يومًا، بل اِتخذت عهدًا على نفسي ألا أفتحه أو أؤمن به ما حييت، ها أنا أفتحه الآن بكامل إرادتي، وداخلي شيء ما زال لا يفهم لمَ أخوض هذه المعركة وقد حسمتُ أمري منذ سنين طويلة بكل الأحوال؟!!!

أمسكته بيدي، نظرت إليه بنفاذ صبر وإنعدام عزيمة ثمَّ قررت أن أعيد الكرّة فيما بعد، فأنا أبعد ما يكون عن المنطق وعن ترتيب الأفكار، أنا لا أقوى على الصراع هذه الليلة، ربما في وقت لاحق أعود إليه مرة أخرى.

الأيام التالية توالت وراء بعضها أحاول أن أزيد ساعات العمل وأن أشغل بالي بالتفكير في أمور أخرى مصرٌّ على تجنب لقاء أبي في نفس الأوقات بالبيت، لا أكره مواجهته بقدر ما أكره شعوري هذا نحوه، شعور عميق بخيبة الأمل والخذلان لا أستطيع نكرانه، لا أميل إلى التواجد بنفس المكان الذي يبقي به، يقتل داخلي الإحساس الباقي بقدرتي على الحياة، فلم نكن يومًا قريبين، لم نكن ذلك النوع من العلاقات الأسرية التي تخلق القصص والتفاصيل معًا، لا نملك الذكريات ولا الأمور التي يمكننا الحديث عنها، لا نملك ألبومًا للصور، كل ما كان مهمًا بحياتي مر كأمر تافه وكان أكبر تطور شهدته حياتنا أن نكون شريكي سكن، إنه بارعٌ جدًا في خلق ذلك الشعور السيء بداخلي.

أعود إلى المنزل بعد يوم طويل من العمل وأنا أتمنـى ألا أجده، أسـترق النظر إلى مكتبتـه، أحـاول الإقتـراب منـهـا، فتخـور قـواي، أعـود وأتعمـد تجاهلها، نعم كنت أتجاهلها كما أتجاهل لقاء أبي، داخلي خوف دفين لـم أفهم هل خوفي يكمن فـي أن أكتشـف الحقيقـة، أو فـي عدم قدرتـي علـى إكتشافها

أسوأ طريق ذلك الذي تعلم أن نهايته ستكون مُخيفة في كل الأحـوال أيَّـاً كانت الاكتشافات.

لكن اليوم، عندما مررت بالمكتب لا أعرف لِمَ وقفت أمامه طويلاً؟ أكثر من أي يوم مضى، وقفت أنظر إليه بتحدٍ وصوتٍ داخلي يناديني:

«جبان»!....

«أنت جبان، خائف»!

لا!.. أنا لست خائفًا!....

عَليَّ المواجهة، علي ألا أؤجل هذا الأمر بعد الآن!...

دخلت المكتب أقتحمها بكل قواي، رغم كوني متعبٌ جدًا جلسـت علـى المقعـد دون تخـاذل، نفضـت عـن عينـي غلبـة النعـاس وفتحـت الكتـاب ووضـعته أمـامي وجلسـت معتـدل القامـة، أجلس بكامل جديتي وقـواي، شديد الشموخ؛ كأنه يراني وقد يعلم كم أنا متردد، خائب، وخائف، أعـود لفحص نفس الآية التي مازالت تثير فضولي لإجابتها

"وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ... قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ... قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ؛ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"

التسلسل غريب للأحداث، ماذا يريد هذا الكاتب إخباري الآن؟ أن آدم لديه هبة القدرة على التعلم بينما الملائكة لا، ثمَّ ماذا؟

أن الإنسان لديه القدرة على المعرفة، بينما لا تعرف الملائكة؟ وما الفائدة من الأمر!!!

أن الإنسان لديه القدرة على البحث ومعرفة الإجابات كلها بنفسه، والملائكة لا، وبماذا تفيدنى الملحوظة؟ لماذا يضع هذه الجملة الإعتراضية، ما الإضافة القوية التي يتباهى بها؟

ما هي؟ ما الفائدة هنا من هذه المقارنة وما الهدف؟

لا أدري لم تذكرت هنا ذلك الحلم الذي زارني بتلك الليلة عندما قالت لي:

«الرغبة لمعرفة لماذا وكيف نعيش تشغل الكثير من البشر، وأعتقد أنه لا يحيى من لايفكر ومن يطرح هذا السؤال يفكر ومَن يفكر هو إنسان، سيصل يومًا إلى الحقيقة»

""""""""مَن يفكر هو إنسان...""""""""

"""مَن يفكر هو إنسان.."""

ظلت الجملة تطوف بذهني، حتى أغرقتني الفكرة وبقايا الحلم الذي لا أنساه، عليّ أن أستفيق منمن خمرة ذلك الشعور الغريب الذي سيطر عليّ، هل سأشغل ذهني بكتاب ألفه ساحر وحلم لا يزداد عن كونه أضغاث أحلام !! هل ساء عقلي إلى هذه الدرجة..

هل أنا أسير بخطوات ثابتة نحو حافة الجنون!!!!

أصبح ذهني يدور ويترنح بين كل الأفكار وكل الكلمات.. من هنا ومن هنا...

حديث أحمد وكلمات ياسمين وهذا الكتاب !!

كانت محاولة غير منصفة أن أربط كل هذه الأحداث ببعضها؛ فلا علاقة بينهم سوى داخل ذهني غير المرتب، كلمة تسحب وراءها كلمة، وأنا كمَن يجلس في مدينة ملاهي وكل لحظة تزداد سرعة تلك اللعبة التي يدور بها، حتى أكاد أفقد وعيي، أغلقت الكتاب وقمت مهرولًا، فتحت الحاسوب المحمول الخاص بي وبدأت البحث في جوجل عن الآيات التي تتحدث عن المعرفة والعلم والقراءة فلم أستطع حصرها، العديد من عباراته تنتهي بالتحدي بالعلم والتفكير!!! يتحدى العقل، ويتحدى المنطق..

هالني العدد، ذلك الماكر يتحدانا بالعلم، يدعونا لإستخدام عقولنا التي يقسم بها، يدعونا لإستخدام عقولنا لنصل إلى الحقيقة، أي حقيقة، وماذا

إذا اكتشفت بعد كل هذا المجهود أنه لا حقيقة، كيف اِستطاع هذا الكاتب تحويل مسارات تفكيري إلى اتجاهات أخرى، أكثر تعقيدًا مما توقعته هل هذا الكتاب به تعويذة ما، مَن يقرأه يصاب بالبلبلة، هل لذلك لم يكشف أحد حقيقته حتى هذا اليوم،

عدت إلى الكتاب أفتحه مرة أخرى.

ظللت منهمكًا فترة ليست قليلة في قراءته، الكاتب يدعو بإلحاح لإستخدام عقلك بل ويتحدى كونك تستطيع استخدامه بالشكل الصحيح دون أن يضلك؛ لأنه يلعب الدور الأساسي في الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

الحقيقة !!!

أذكر كلمات أحمد "الحقيقة نشعرها بقلوبنا قبل أن تدركها عقولنا"

لكن مَن لا يملك قلبًا سليمًا عليه الآن أن يستخدم عقله للوصول إلى تلك الحقيقة، مازالت نفس القصة تدور وتدور في حلقات من الأفكار بعقلي

" فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"

كان هذا التحدي الأول من نوعه، يتباهى بمخلوقه الجديد، وينصب أول برامج تسليته يقدم مخلوقه الجديد ككائن متعلم يفهم

"قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"

أَقَرّوا أن هذه العملية البسيطة ليست في مقدرتهم، إنها مهارة تفوق قدراتهم، تفاجأت بذلك تمامًا، أن الإنسان سيتفوق على الملائكة في

شيء ما، ما الأمر؟ ما الحكمة؟ ولماذا يخبرنا هذه القصة في بداية كتابه؟ هل يتباهى بمخلوقه أو بقدرة خلقه!!!

لماذا يجب أن نتعرف على برنامج تسليته ومسابقاته؟

بدأت أتململ في مكاني من عدم قدرتي على تنظيم أفكاري، من غبائي وتلك الأفكار تدور في رأسي، وتسرق النوم من عيني، أنت قبلت تحديًا عليك أن تتحلى بالصبر لإنهائه إن كنت قبلت التحدي وطلبت أنت مني إستخدام عقلي؛ فلابد أن أعمل عقلي بجد لأثبت ذلك الأمر المريب الذي أشعره بكتابك وبقصتك الملفقة، أكملت قراءة.."فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ.. " يذكرها ببساطة وتلقائية؛ وكأنما هذه الملكة والقدرة على الفهم والتعلم والاستيعاب هي شيء فطري بالإنسان لا يحتاج إلى مجهود كبير منه.

ما هذا التناقض!..

هل يحاول تمجيد ذلك المخلوق الذي ينهككه في حياته ألمًا وجزعًا ويعذبه بعد مماته في النار، ما هذه الحيرة في التناقضات بين ما يقول وما يحدث بالفعل

آاااه..

عقلي يؤلمني حقًا والأفكار كسكاكين حادة تقطع كل خلاياه؛ ولكني كنت على نفس إصراري أنه يوجد أمر ما وراء كل هذه القصة ووراء معانيها، هناك خطأ ما يجب إكتشافه وفضحه

"قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ".

الآن يرد لهؤلاء الملائكة عن استفسارهم في البداية عن خلق الإنسان، يرد عن نفس سؤالي، نعم للإنسان القدرة على القيام بكل هذه المآسي التي تحدثتم عنها لكن اِنظروا إلى ما صنعته يدى
كائن شديد العبقرية؟ هل هذا هو الرد المثالي، هل فقط أن تخلق كائنًا عبقريًا وتتركه لعقله يعبث به، هل هذا هدف ؟ إنه يبعد عن القصة الحقيقية تمامًا، تلك القصة الأسطورية التي تناولتها كل الديانات وكل كتب التاريخ، هدمها من أساسها، خلعها من جذورها، أسقطها بقبضة واحدة، ثم أعاد صياغتها ليخدم هدفه، إنها مجرد وسيلة لتوصيل رسالة جديدة تمامًا غير ما أدركه أنا.

إنها طريقة نفسية ذكية لسلب القارئ عقله وتشتيت أفكاره، ليفقده قدرته على التركيز على هدفه الأساسي، وتشتيته في الاتجاه الآخر.

بدأ عقلي يأخذني إلى هذه الملائكة " وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ " ما الذي أبدوه وما الذي كتموه؟ هل كان هناك جزء خفي في سؤالهم عن خلق الإنسان، غير نفس السؤال الواضح؟ لماذا يخلق بشرًا يعبث بالأرض ويفسد بها؟

لماذا لا يقول ما يريده مباشرة، لماذا يضع الألغاز أمامي، لماذا العراقيل، إن شاء أن أؤمن عليه تيسير تلك المهمة الواهمة !! أشعر أنه

لا يملك الإجابات لذلك يضعني في مفترق متاهات لتشتيتي عن هدفي الأساسي هنا، يا له من عبقري، لذلك صعب على الناس كشف حقيقته الزائفة.

أغلقت الكتاب وحملت جسدي المنهك نحو أقرب نافذة، أتامل عبر زجاجها ساندًا رأسي عليها، أنظر إلى السماء التي تكدرها الغيوم وكلي شغف أن أفهم

فكر يا يوسف!

ما هو الجزء الخفي من السؤال؟ ما الذي لم تبديه الملائكة؛ إنه نفس سؤالك.

فكر يا يوسف!

نعم يستطيع الإنسان خلق كل أنواع المآسي، يستطيع القتل، السرقة، الكذب، الخيانة لكن ما الجزء الخفي هنا غير كل تلك القدرات المأساوية، وقفت عدة دقائق فاقدًا الأمل والتركيز ثمَّ فجأة اِرتعش جسدي كله بقشعريرة مفاجئة كيف لم أستطع أن أرتب أفكاري وأصوغ السؤال بالطريقة الصحيحة؟

يا للهول، إن هناك طرف آخر من السؤال، إنه على النقيض يستطيع خلق الحب ويمكنه إظهار الرحمة والتعاطف ويمكنه حمل المشاعر، يمكنه السقوط بالوحل أو الصعود للسماء، يمكنه أن يكون بقاع القبح أو

قمة الجمال، يمكنه زرع ذلك الشعور الجميل بداخلك مثل أمـي، أو قتلـه وانتزاعه من صدرك مثل أبي.

لقد كنت أسأل هذا السؤال بالطريقة الخاطئـة، إنـه سؤال مبتـور يجعلنـي أنظر إلى الجانب السيء فقط

إن السؤال الصحيح لماذا يخلق إنسانًا يمكنـه إشـاعة الفوضـى ويمكنـه زرع الرحمة والتعاطف في نفس الوقت؟

لم يكن سؤالي كـاملًا منـذ البدايـة!! لـم يكـن سـؤالي كـاملًا! كرهـت هـذا الشعور جدًا، كرهـت هـذا التغيير الإلزامـي لسـؤالي وأفكـاري وطريقـة ترتيب عقلـي، إنـه يرغمنـي علـى أن أتبـع طريقـه هـو، علـى أن أرى مـا يراه هو هذا الكاتب ليس بالسذاجة التي اعتقدتها.

خـالجني هنـا شـعورٌ قـويّ، إنـه يتحـدث إلـيّ كأنـه يكلمنـي أنـا وحـدي، يواجهني وحدي؛ كأنه وضع كل كلمـة هنـا لتـرد علـى أفكـاري أنـا فقط، كأنه لا يكلم غيري، يتحداني كلما قررت تحديه.

يسيطر على عقلي.

هل هذه الكلمات بها قدرات سحرية بعيدةٌ عن العقل والتفكير، لذلك تسيطر على كل من يقرأها.

جلست مكاني مرة أخرى وأنا أمسك رأسـي، كنـت دائمًـا مـأخوذًا بالشـر السـائد فـي البشـر، لكنـي تجاهلـت وجـود الخيـر أيضًـا كيـف كنـت أمتلـك صـديقًا مثـل (أحمـد) ولا أدرك هـذه المعـاني الراقيـة التـي نملكهـا فـي

صدورنا، كنت أمتلك هذا المثال طوال حياتي وتجاهلته، أنظر فقط لكل الأمثلة السيئة من حولي، كم هي مؤلمة ذكراك صديقي، في كل مرة أرى شيئًا جميلًا لا يسعني إلا أن أذكر (أحمد).

هل سأبكي مرة أخرى كالأطفال، سأغلب تلك الدموع التي تحاول السقوط من عيني كلما تذكرته، يكفيني هذا القدر من الكتاب اليوم، فقد وصلت نقطة غير مُرضِية واتجاه غير مرغوب، تذكرت ساعتها كيف أني قاسي مع ذكرى صديقي؛ فقد مرت أسابيع و لم أهاتف (حور) أو أسأل عنها سوى مرة واحدة، ولم ترد حتى! كيف أكون بكل هذه القسوة وأنا أعلم أنه مات قلقًا عليها ولم يرها.

طالت قائمة الأشياء التي أتجنب مواجهتها! أمسكت هاتفي، طلبت رقمها، لكنها لم ترد!..

أنا ممتن أنها لم ترد، مازلت أخشى سماع صوتها والحديث إليها؛ مثل طفل يخشى لقاء أستاذه، لكن عليّ أن أعيد المحاولة مرة تلو أخرى وكلي خوف أن أسمع صوتها وقلق أن لا ترد لكنها لم ترد، إن القلق يساورني، لماذا تتعمد عدم الرد عليّ، أم أن هناك أمر ما سيء يحدث معها؟ ألح عليّ عقلي فجأة هذا القرار، سأسافر إليها، ما هذه الشجاعة غير الإعتيادية لمواجهة كل ما أخشاه هذه الأيام؟

فجأة في هذه اللحظة اتخذت قرار السفر، عليّ السفر إلى الإسكندرية.

***************

## (١٣)

(صفاء)

إن العلاقة الإنسانية الناجحة تعني أن تسير بتوازن وخفة على خيط رفيع يقع بين المشاركة والخصوصية، دون أن تميل إلى أحدهما، وهذا ما حاولت فعله مع دكتور (إبراهيم) وابنته، فلا أريد التورط معهما إلى الحد الذي يجعلني أندم على هذا الإقتراب، أن أصبح متطفلة على حياتهما، لكني لم أقوَ على الإبتعاد عنهما بالقدر الكافي الذي توقعته؛ خاصة بعد ذلك اليوم الذي ظلت الصغيرة تبكي وترفض الرضاعة ولم أستطع مقاومة قلبي، قربتها من صدري وأرضعتها من ذلك النبع الذي غابت صاحبته وتركته لي لا يريد أن ينفذ، لم يجف كأنه مازال يتوقع قدومها، أصبح وجودهما روتينيًا بحياتي، أذهب كل الأيام التي تتواجد فيها الفتاة الصغيرة أرضعها، أحملها إلى صدري وأقبلها وأبكي ابنتي وأدعو الله أن يرحمني من فرط تلك المشاعر.

أكفكف دمعي وأقترب من المكتبة وأجلس إلى جوار الجد، أستنشق عبق الكتب بورقها القديم وأقرأ له.

ظلَّ هذا الحال لبضعة أسابيع، تلتها الشهور، وأنا لا أمِل من عملي الجديد؛ بل أزداد تعلقًا به، أشعر أنه يشفيني من شيء عميق بداخلي،

ألتف حول حياتي حتى كاد يميتني من فرط إحساسي ومشاعري المتهالكة.
اِكتشفت أشياءَ كثيرة بالعالم لم أكن أعرف عنها شيئًا، اِكتشفت أن هناك عالمًا جديدًا يقبع بين طيات الكتب، عالم لم أدرِ بوجوده من قبل، كنت غارقة في غيابة الجب قبل أن أكتشف عالم الكتب، أنا نبات ينمو في صومعة المعرفة وكان مصيره الموت والذبول في ذلك العالم بالخارج.
من أين اِعترتني هذه القوة الكبيرة للتمرد، عندما تُولدين بنتًا يقنعك المجتمع أنه يجب أن تتعلمي فنون الطهي والتنظيف والغسيل وإسكات الأطفال، ويخفون عنك ذلك العالم الذي تخلقه الكتب، هل ألوم الناس لأن أحدهم لم يعطني كتابًا؛ أم ألوم نفسي لأني تغافلت عن حقها في أن تتسلل إلى كتاب؟
بدأت الأفكار تتسلل إلى قلبي وأتعلق بورقة وقلم، أبحر في الألغاز التي تحملها كل هذه الكتب، أشعر أني - أليس في بلاد العجائب- ما كل هذه الأفكار الرائعة، ما كل هذه القوة والجلالة التي يحملها هذا المكان والثقة التي يبعثها داخلي؟
تعرفت على العديد من النساء العظيمات بالتاريخ، الملكة (حتشبسوت) هي أول ملكة فرعونية حكمت مصر، حكمت مصر عشرين عامًا ازدهرت البلاد اقتصاديًا وسياسيًا أيضًا حتى صارت مصر الدولة العظمى في العالم، عاشت واحدة من أروع قصص الحب مع المهندس

الملكي (سننموت)؛ وهو مَن شيد لها أجمل معبد جنائزي بني لملكة في التاريخ سواء القديم أو الحديث، معبد الدير البحري الذي شيده في حضن الجبل الغربي على هيئة صالات تعلو بعضها لكي ترتقيها روح الملكة الحبيبة وتصعد بها إلى السماء لتخلد مع النجوم. ومهما يكن من أمرها وسواء أقنعت الرجال بكفاءتها أم لم يقتنعوا فكان ما قامت به في عهدها أعظم بكثير مما فعله معظم الملوك الرجال في هذا العصر، أعتقد أن الرجال يغرمون بالنساء القويات وقد يكون أسوأ ما تقدمه المرأة لنفسها أن تعيش سلبية مضحية تتعمق في دور الشهيدة حتى يملها الرجل.

لعلها لا تعلم أن الرجال لا ترى هذا الجانب ولا تشعر أو تهتم به، لعلها لا تعلم لأنها لم تقرأ كتاب، لم تتعلم من التاريخ، لم تعرف ولم تبحر في تجارب من سبقوها.

"نسيبة بنت كعب" اسم لم أعرفه من قبل، أشهر النساء المسلمات على مر العصور، كيف لم أسمع عنها من قبل، إحدى الصحابيات اللاتي شهدن الكثير من الغزوات مع الرسول، كانت أول امرأة محامية في الإسلام، عندما ذهبت لسيدنا محمد ﷺ وسألته لماذا تختص جميع آيات القرآن بالرجال ولا تذكر النساء

نزلت آية: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

وَالْخَاشِــعَاتِ وَالْمُتَصَــدِّقِينَ وَالْمُتَصَــدِّقَاتِ وَالصَّــائِمِينَ وَالصَّــائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"

لم أكن أعرف أن المرأة من حقها أن تجادل وتكون وجهة نظر، من حقها أن تفهم وتنظر وتتأمل وترى، كنت أظن أن المرأة التي تبحث وتخوض المعارك قد خرجت عن العادات والأصول.

ثمَّ قرأت عن فاطمة الفهري، اِمرأة مسلمة عربية قامت بتأسيس أقدم جامعة في العالم، قامت ببناء مسجد القيروان على مساحة كبيرة من إرثها من أبيها، ثمَّ تحول فيما بعد إلى جامعة القيروان، أصبح المسجد أقدم جامعة للتعليم العالي في العالم، اِمراة من عمق التاريخ تؤسس جامعة في حين كان أقصى طموحاتي الحصول على أي شهادة تثبت أنني متعلمة، لكنني لم أتعلم أي شيء، تخطيت هذا العمر وأنا شبه جاهلة.

ثمَّ وصلت لشجرة الدر تلك المرأة بارعة الجمال، الملكة شديدة الدهاء التي اِستطاعت أن تحكم مصر ثمانين يومًا مخفية خبر وفاة زوجها الملك "نجم الدين الأيوبي" حتى لا تضعف عزيمة الجيش في عصر ملوك الطوائف.

بعدها قرأت عن الخنساء، اِمرأة فاضلة عاشت بين عصري الجاهلية والإسلام، وقد عُرفت بقوتها وصبرها وحبها لأخويها وأبنائها وقومها،

اشتهرت برثائها وحزنها على أخوتها الذين قتلوا في الحروب، ورغم ذلك لم تسقط، أو تتهاوى وترقد في الفراش.

ما كل هؤلاء النساء اللواتي يعبق بهن التاريخ، قويات حاربن المجتمع، حاربن التقاليد البالية، وحاربن كل مَن حولهن حتى آخر نفس.

هذا الرجل لم يكف عن إعطائي هذه الكتب، هل كان هذا متعمدًا، إعطائي تلك الكتب التي تتحدث عن النساء والتاريخ، هل كانت إشارات يرسلها دون أن يتكلم مباشرة، يحفز عزيمتي دون أن يضطر لمعرفة ما أعاني، أو قد تكون خدعة نصبها حولي د/ (إبراهيم) لمساعدتي على تخطي تلك الأزمة التي يقتله فضوله ليعرفها، شعرت بعد عدة أسابيع أنهم هم مَن يصنعون معروفًا لي؛ وليس أنا من أساعدهم..

خلال تلك الأيام تحولت تلك المرأة الهشة بداخلي إلى امرأة تذوب بين ألغاز الكتب وجاذبيتها، مما أزال عني تلالًا من ضيق الصدر، أعطاني بعض الثقة والصبر والبصيرة بعد أن كنت قد بدأت في الشك بوجودي في الأيام الأخيرة.

ماتت ابنتي، رحل عني زوجي، أبي يكرهني، كل هذا دفعني لأن أتساءل، لماذا أعيش؟

كم أنا فاشلة؛ فأنا لم أصلح لأن أكون ذلك الشخص المثالي لمَن حولي! لكني مضطرة أيضًا أن أعيش، اتخذت قرارًا لأن أجعل اللحظات التالية

مثالية لي أنا، إن كنت مضطرة على التواجد داخلها، ألا أنتظر الرضا أو الإعجاب من أي شخص آخر.

أخرجت ورقة وكتبت بها كل مخاوفي، كل ما مر بحياتي وكنت أخشاه يومًا، وضعتهم تحت بعضهم في قائمة ليست بقصيرة، لم أبخل عليها بأي خوف يكتمه صدري، نظرت إليهم واحدًا واحدًا وأنا أعد نفسي أن أتحرر منهم جميعًا، وضعهم أمامي في هذه القائمة على الورقة وقراءتهم، جعلهم أصغر حجمًا مما اِعتقدت وأقل كثيرًا من ألم المشاعر الضخمة التي أحملها بصدري تجاههم.

جميعنا نملك خططًا مثالية حول الحياة ونعتقد أنها من الضروري أن تكون كما أردناها، تنتابنا تلك المشاعر الهائلة التي تثقل قلوبنا إذا لم تتم كما تخيلناها، وننهزم، نؤمن بفشلنا ونستسلم، لكني أعرف الآن أنه يجب أن أتقبل نفسي كما أنا وليس كما يريدني العالم؛ حتى أعيش الحياة سعيدة كما تمنيت.

عندما تتقبل نفسك كما أنت يتقبلك العالم، ويميزك، لا عيب أن تكون خائفًا، أن تبكي أحيانًا، أن تكون وحيدًا، لكن العيب الوحيد ألا ترى نفسك جيدًا، عندما اكتشفت أني أخرج من كآبتي ويأسي، حل على نفسي هدوء وإستقرار لم ألحظهما في حياتي من قبل، كنت أنظر أحيانًا في المرآة لأكتشف ما الذي تغير في شكلي، وتأكدت أن شيئًا لم يتغير، كل شيء بي في مكانه الصحيح؛ ويبدو كما هو، لكني لست أنا!.

لا بكاء على وسادتي بالليل، لا نشيج على أرضية الحمام، لا جلوس بكآبة مستندة على الحيطان، لا هروب إلى النوم وأطلال الأحلام.

وبين كل ذلك كنت أراه صدف قليلة؛ فهو مشغول دائمًا مجتهد في عمله، بعد أن اِقتربت من حياته علمت أن الإنطباعات الأولى مجحفة، ليس شخصًا أنانيًا أو مجنونًا ولا مباليًا كما توقعته، يعود إلى البيت لحظات قليلة لكنها لحظات غنية بأحاسيس لم أعرفها من قبل، تقطع المسافات البعيدة بيننا بكل سهولة، كسهم يعرف هدفه جيدًا، ينطلق إحساسه.

عندما أخبرني أني أبدو أفضل حالًا، ابتسمت وأنا أرى أطياف الحنان تطوف نظرة عينيه، في اليوم التالي أخبرني أن صوتي صار أجمل، ضحكت ثمَّ قطعت الضحكة سريعًا، أنا أسهب معه في الإنفعالات بتلقائية ترهبني.

لم أكن واثقة إن كان عليّ أن أضحك أو أبتسم أو أصمت، أنا امرأة أصبحت أخاف من مشاعري، أخاف أن يخيب ظني بالحكم على الناس، أخاف رد فعله وحكمه.

أراه ينظر إليّ بإمعان؛ أحيانًا نظرات طويلة كمَن يتوقع أن أقول شيئًا، كمَن يستجدي أن أقول شيئًا، لكني لست واثقة أني أريد أن أتكلم، أنا أخاف أن أقول شيئًا فأتورط معه دون انتباه.

نظرته تستجديني، لكني أخاف عليه من حديثي، لا يجوز لي أن أزيد حمله بأحزاني، لا يجوز لي سوى أن أشكره على لطفه الزائد؛ الذي لم أره بأي إنسان بحياتي، حتى مَن كان شريك حياتي طوال سنوات، أنا سعيدة لأن عينيه تخبرني أني إنسانة، بل إنسانة مهمة، لكني مازلت أتجنب اللقاء كي لا أخسره.

اليوم عندما دخلت المكتبة، وفي منتصف قراءتي باغتني أستاذ (طه) بسؤاله:

- لماذا مازلت أسمع برنات صوتك ذلك الحزن؟

- أبدًا، أي حزن، أنا بخير

قال مازحًا وهو يلف رأسه وينظر إلى كل الإتجاهات؛ كمَن يبحث عن نور أو يتمنى أن يراني:

– أكبر كذبة اخترعها الإنسان على وجه التاريخ كلمة "أنا بخير" لا يقولها إلا متألم.

ضحكتُ بصوتٍ خافت فقد سمعت تلك العبارة من قبل عدة مرات تلك العائلة تتمتع بالقبول الذي يدخل القلب من أول كلمة، الذي يجعلك تبتسم دون جهد كبير.

- هل تقبلين مني نصيحة؟

- بالتأكيد، تفضل.

- لا تلتفتي لما مضى من حياتك، ولا تجعلي أيًّا مما حدث يسيطر على ما هو آتٍ كلنا لدينا أخطاء وقد يكون أكبر خطأ قمتي به في حياتك أنك انتظرتي السعادة من شخص غيرك.

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنه لا يجوز أن تتركي تلك المساحة من السعادة لأحد يعبث بها ثمَّ تعودين للندم بعد ذلك.

- هل تعتقد أن الإنسان يمكن أن يكون سعيدًا وحده؟

- بل أؤمن أن الإنسان مسؤول عن سعادته وحيدًا كان أم لم يكن، مهما كانت الظروف التي عاشها أو يعيشها، لا يجب أن ينتظر أن ينظم آخرٌ حياته ويهديه سعادة.

- لا أدري!.

- هل تريدين أن تصبحي سعيدة؟

- الجميع يسعى لأن يكون سعيدًا.

- لا يدرك السعادة ولا يفهمها من لا يملك هدفًا من الحياة في الأساس هل سألتِ نفسكِ يومًا لماذا أعيش؟ هل تعتقدين أننا نوجد هنا في هذه الحياة عبثًا؟ ما الهدف عزيزتي من وجودِك؟

- أسئلتك شديدة الصعوبة أستاذ (طه)، لم أسأل نفسي يومًا هذه الأسئلة، كل ما أريده ببساطة أن أعيش سعيدة.

- إن هذا في حد ذاته هدف، لكن ينقصه ذلك الإطار الذي يوضع داخله، فالحقيقة أن كل شيء تقدمينه في حياتك مفيدًا مهما اعتقدتِ صِغَرَ حجمه أو حقارته، له قيمة وأثر على نفسك وعلى حياة مَن حولك، حتى إن كنتِ مجرد ربة منزل لا تفعل أي شيء سوى رعاية أطفالها الصغار؛ فهذا هدف عظيم وعمل رائع مهما اِعتقد المجتمع عكس ذلك.

- كلامك محير، بعد كل ما جعلتني أقرأه عن المرأة وقوتها وأثرها بالتاريخ، تعود بعقلي إلى فكرة ربة المنزل!

- يا عزيزتي!... كل إنسان له قيمته وقدره في الحيز الذي يشغله، مهما كان ما يفعله بحياته، كل إنسان لو شارك بطاقته وعلمه وخبرته وظروفه وقدَّر الإمكانيات التي رزقه الله بها؛ فسيغدو بطلًا خارقًا في مكانه، عليكِ تقدير قيمة كل ما تفعلينه وسيفيد مَن حولك مهما كان روتينيًا أو مكررًا أو بسيطًا؛ لأنه السبيل الذي نقدم به قيمتنا ونعبر عن وجودنا ونترك به آثرنا بالحياة، إنه هدف في حد ذاته صغيرتي.

- كلامك يهز عقلي هزًا، وما هو هدفك أنت أستاذ (طه)!.

- صدقيني أنا مازلت أبحث عن إجابة كاملة لهذا السؤال، ما زال يحيطه الشك والحيرة والتخبط وكلما قرأت وتعمقت سقطتُ ضحية أقوى له.

- وما أقرب ما وصلت له أستاذي؟

- أقرب هدف وجدته بالحياة هو الإيمان، الإيمان بالعقيدة التي قررت اعتناقها؛ فالإنسان بلا عقيدة تائه بلا هوية، الإيمان بنفسك وقدراتك، الإيمان بحياتك، الإيمان بالأشخاص من حولك، الإيمان بأننا بشر قابلين للتعلم والخطأ والخسارة والبدء من جديد ورغم أن هذا أقرب ما وجدته إلا أني اِكتشفت أنه آخر شيء يراه الإنسان بحياته، الكثير يعيش ويموت دون أن يتمتع بذرة إيمان لأي شيء بحياته، البعض يولد ويموت ولا يمتلك تلك العقيدة التي تحدد هويته.

طافت كلماته برأسي ولم تهدأ، أشعر أنه يطوف بعقلي شرقًا وغربًا ويغربله دون رحمة، أشعر أنه يسلخني من ذاتي القديمة ويضع قدمي على أرضٍ لابد أن أختارها بنفسي، ولم أنفك أفكر بكل ما حدث بحياتي، كيف سمحت لكل مَن حولي بإدارتها والتحكم بها إلا أنا!!

كيف اِنتظرت السعادة ممَن حولي ولم أبحث عنها بذاتي!!

ولكن كيف يجد إنسان هذه السعادة وحده، كيف أجدها وقطعة من قلبي تعيش بعيدًا جدًا عني وأعجز عن إحتضانها، كيف أجدها وأنا وحيدة، كيف أجدها بعد أن هجرني زوجي ورحل عني دون ذنب يذكر وأنا من اِعتقدت أنه سيهبني كل السعادة عند زواجنا!!

- ما الذي يدور ببالكِ ابنتي؟

قالها فقطع عني صوت أفكاري

- أبدًا، لا شيء

- تحدثي، قولي ما عندك وفضي عن قلبك صمته؛ أنا أحب أن أسمع منك، ما الأمر ابنتي، ما الذي يؤرق سكونك ويشغل بالك!

تحدثي، فقد أستطيع مساعدتكِ فيه أو نفكر سويًا في أفضل الحلول، حقيقة كنت أحتاج بشدة لشخص أثق به، أروي له كل خلجات قلبي وتخوفاته، كنت أحتاج لمَن يفكر معي دون لوم أو أحكام، لمَن يكن الحديث إليه صعبًا؛ فقد جرت الكلمات على فمي بكل صدقٍ.

*******************

## ( ١٤ )

(صفاء)

بعد أسبوع من ولادة ابنتنا، كنت منهكة تمامًا، ما بين ألم الولادة ورعاية ابني الصغير وطفلة تبكي طوال الليل لا تكاد تستسلم للنوم دقائق قليلة، ظلت ابنتي توقظني كل ليلة، فأستيقظ كارهة للحياة وكارهة لكل شيء حولي، هل هو تغير المزاج والإكتئاب المصاحب للولادة، لم أكن على يقين، لكن يقيني الوحيد هو أني وحدي، كيف يكون هذا هو الحب الذي اِنتظرته طوال حياتي، كيف يكون حبًا هذا الذي أصارع به وحدتي!! أصبحت وحيدة لا أصدقاء لي ولا ونس بعد زواجي، عزلتي في منزل زوجي قطعت عني كل علاقات الصداقة التي كنت أعرفها وبدأت الوحدة تتسلل إلى حياتي بمنتهى الخفة والثقل، لا أحد معي يعينني سوى همتي المتخاذلة وقوتي المنهزمة وإرادتي المكسورة وأهلي بعيدًا لا يعرفون عني شيئًا وأنا عليّ أن أتحمل أعبائي وحدي، كانت حالتي على ما تبدو على ما يرام ظاهريًّا، أما داخليًّا فقد كنـــــــــــــت أتراجـــــــــــــــــع.

وبينما كنت أقوم ببعض واجبات المنزل في هذا اليوم نفذت مني مسكنات الألم وشعرت بالبؤس، ألا تكفي تلك الوخزة التي أشعرها بأعماقي؟ هل علي الآن أن أتحمل أيضًا ألم جسدي؟ قضيت يومي في

ألم نفسي وجسدي وعصبية شديدة، أنظر إلى اِبني الصغير فيزيد ألمي أني لا أستطيع أن أكون له أمًا مبتسمة سعيدة، وأنظر إلى ابنتي الصغيرة؛ فيزيد ألمي أني لا أقوى على حملها وضمها لصدري طوال الوقت كما تتمنى، أنا أعتني بأطفال صغار لكني بحاجةٍ شديدةٍ لمن يعتني بي، أحاول أن أُطمئن ابني الصغير وأحتضنه وأنا بحاجة لمَن يحتضنني، كنت أحوج منه لذلك العناق الصغير، أعتقد أن أشهى ما في الحياة أن تحتضن وتتنفس رائحة أحد ما تحبه، في نفس ذلك الوقت كنت أنتظر عودته بفارغ الصبر.

عندما عاد إلى البيت كان مقطب الجبين كعادته، شديد الضيق من شيء ما لا أعرفه، العمل! قد تكون مشاكل بالعمل لا يعنيني أن أعرفها، أنا أعلم أن لا فكرة لديه عن يومي السيء، ولا أستطيع لومه لأنه ينسى أني أحتاجه بجوارِي، أعلم أنه لا يفهم ولا يرى ما أعانيه، أعلم أنه يعتقد أن هذا ما تقوم به كل النساء، لا شيء جديد يستحق الانتباه هنا، ما أقوم به أقل من أن يستحق أن يلتفت إليه أو يحاول رؤيته، ما هى أسهل الطرق لإخباره أني أعاني؟

أن هناك أمر بداخلي يؤلمني ولا أفهم سبب تلك الهوة السوداء التي تبتلعني لأعماقها، استقبلته بشبح إبتسامة ووجه شاحب أحاول أن أبدو في أقل الصور بشاعة، دخل إلى غرفتنا مباشرة، لم يتحدث أو ينظر

إليّ، حاولت أن أسرع الخطى قليلًا، مشيت متألمة وراءه وقلت بصوتٍ منكسر خافت وأنا أحاول مساعدته في إرتداء ملابسه:

- "كنت أعاني من الألم طول اليوم لقد نفذ مني الدواء" .

نظر إليَّ بتعجبٍ وقال بصوتٍ قاسٍ:

- "لماذا لم تتصلي بي؟"

- "لم أرد إزعاجك"

- "أقدر لك شعورك بمدى انشغالي، لكني لا أقدر لك محاولات لومي وتأنيبي"

أنتظر أن أرد؛ فلم أجد ما أخبره به، علا صوته أكثر فأكثر صارخًا بي:

- "هل ينبغي لي أن أترك عملي وأبقى جواركم أرعاكم طوال اليوم"

وددت لو أنه كان هادئًا قليلًا، فأخبره أني أنتظر عودته فقط لاحتضاني، لمواساتي، لكن يبدو أنني أسأت في شيء ما جعله شديد العصبية، ما الذي كان يفترض بي أن أفعله أو أن أقوله؟، ما هي أيسر الطرق لأخبره أني أعاني؟ أني أحتاجه؟

كنت أبكي داخلي بعيون جافة متألمة، أريده فقط بعض الوقت بجواريِ، أريده لي صديقًا وونيسًا وسندًا في هذا العالم المجحف الظالم،

أنا أريد أشياء كثيرة لا أستطيع البوح بها، تبلبلت داخلي كل الأفكار وأنا أقف متوترة ويغلبني مزيجٌ متناقضٌ من المشاعر، ما بين الحزن والغضب والحنين والكبرياء وقفت مشتتة.

عند هذه الحافة وتحت هذا الثقل، ضاق صدري، اِنفجرت بشدة، كم هو عجيب حجم غضبك الذي تخونك فيه الكلمات، لماذا تعجز الكلمات الصحيحة عن معرفة طريقها إذا احتجناها، تخرج فقط أفكار مشوهة ومشوشة عاجزة عن اللحاق بأقل رغبات نكاد ندركها.

قلت أشياء كثيرة وخرجت مني كلمات لا أعنيها وعجزت، عجزت تمامًا عن قول أي شيء أعنيه.

عجزت عن توصيل تلك المعاني التي تثور بداخلي، كنت متوترة، غاضبة، خائفة من وحدتي، كل خلجاتي ترتعد وترتعش غضبًا مني، كنت غاضبة من كل العالم حولي حتى من نفسي، فانفجرت وكان انفجاري مدويًا.

بعد تبادل الكلمات القاسية، اتجه إلى الباب، وخرج، أعتقد أنه قد سمع ما يكفي، كان كلانا قد بلغ أقصى ما يمكن تحمله، وقفت أنظر إلى الباب خلفه صدري يعلو ويهبط بأنفاس متسارعة منقبضة مرتعشة من شدة الغضب وعبراتي تفيض رغمًا عني ونبضات قلبي تخبره "توقف!"، "من فضلك لا تخرج، عد إليَّ، اِلتقطني، إني بأمس الحاجة إليك"؛ لكني لم أنطقها أبدًا بلساني.

بعدها مرت الأيام وراء بعضها وأنا أتألم وحدي ولا أحاول التحدث إليه، في هذه الأيام الفارقة لم يكن لدي ما أعطيه، إلا الألم والحسرة على حالي، كم كانت ستتبدل الأيام بيننا لو أنه فقط اقترب مني واحتضنني، لو أني شعرت بذراعيه تعزلني عن هذا العالم المؤذي حولي، لماذا كان صعبًا عليه جدًا أن يحميني؟.

في تلك اللحظة بدأت أدرك معنى الحب، الحب بغير شروط ولا حدود، الحب في كل الأوقات، الحب هو أن تشعر بغبطة العطاء وليس لذة الأخذ فقط، أن تحب كل شيء يخص شريكك، أن تحب أخطاءه وضعفه وتحبه قبل أن تحب سعادته وإبتسامته وقوته.

مرت الأيام لا تغير ولا جديد ولا عاطفة، غير أن ما بيننا يتراخى ويتباعد وعلاقتنا تتحول إلى واجب ثقيل علينا، لم أتمنَّ يومًا الإبتعاد عنه، بل تمنيت أن أكون زوجته وصديقته وعشيقته، أن أكون حقًا شريكة حياته؛ لكنه أفقدني الأمان وتركني وحيدة أتقوقع داخل نفسي وأغرق في دوامة الكآبة والأسى والحزن، أفقدني ذلك الشعور بالراحة والإرتياح لكل كلمة وإشارة وتواجد.

منذ فقدته توقفت عن الحديث معه وكنت أريد دائمًا أن أتحدث معه في كل شيء وأي شيء وإن وجد ما أتحدث عنه؛ فأنا دائمًا في خوف، أخشى ردود أفعاله، ظنونه، أخشى أن يجرحني دون أن يدرك.

منذ أن أصبح الحديث بيننا واجبًا، وأنا أراني في عيونه كالعدم، آثرت الإبتعاد والهرب، لا أملك القدرة لشرح نياتي ومعاناتي، فآثرت الصمت.

أنظر إلى المرايا؛ فلا أرى سوى شخصًا غريبًا عني، الأسود تحت عينيَّ، شعري تسقطه هموم رأسي، خصري يزداد تشحمًا، مَن يريد أن يبقى معي أو أن يحب كائنًا يشبهني؟

أنا الآن كتلة دراما تسير محطمة بين طفليها، قلت لي يومًا أن وجودي حياة، فأعد الحياة إلى قلبي أرجوك، أنت تبتعد عني وتعاقبني دون ذنب سوى أني في احتياج شديد لأحضانك تحتويني وتحميني من شتات نفسي، يومًا ما كنت تعزز كل قوتك لاكتشافي، أين ذهب فضولك، كيف تهجر أرضًا مازالت تحتاجك لإعمارها،......

*********

طأطأت رأسي وصمت، لم أقوَ على إكمال الحديث؛ فقد وصلت إلى أكثر الفقرات إيلامًا ووجعًا، عندما قطع أستاذ (طه) ذلك الصمت قائلاً:

- هل تعرفين يا عزيزتي!.. لقد كرست وقتًا طويلًا من حياتي للقراءة عن النفس البشرية والإبحار داخلها ومعرفة ما يسعدها وما يشقيها، ما الذي يشبعها وما الذي يحركها؟ ما الذي يولد داخلها الشغف وما الذي يقتله؟ أسئلة كثيرة كانت تدور ببالي وتشغلني ولم أنجح في الهرب

منها، حتى بعد كل ما قرأت مازلت أكتشف الجديد؛ فالنفس شديدة التعقيد وشديدة التأثر بكل ما يمر بها.

- أعلم أنك تعتقد أنني تبطرت على حياتي، لقد كنت في نظر الجميع أتمتع بحياة مثالية، منزل جميل وزوج وأولاد، لكني على النقيض شعرت أني لم أكن أملك أيّ حياة، أقف كمشاهد لفيلم يعرض كل فقرات حياته دون أن تسمح له بالتدخل في تفاصيل الفيلم الذي يقوم به بدور البطولة، كانت حياتي خاوية بلا معنى ولا روح، في المجمل لم أكن سعيدة، كنت فارغة من الداخل.

- لأنكِ حكمتِ على نفسِك في هذه القصة بالخوف.

- أي خوف؟

- الخوف من أن لا يحبك، الخوف من رحيله، الخوف من عدم إهتمامه، الخوف يمنع عنَّا الراحة والسكينة، يمنع عنَّا السعادة.

- أنا سبب مشكلاتي إذًا!.

- لست أنت؛ بل نظرتك هي السبب؛ فالجميع يمر بظروف قاسية ومؤلمة ويعاني، ولكن ليس الجميع تعساء وليس الجميع سعداء، هل تعلمين السبب؟

- ما السبب؟!

- لأننا نختلف في نظرتنا للأمور؛ رغم أن الجميع يمتلك نفس العين.

دخل علينا د (إبراهيم) صومعة قراءتنا فتشتت حديثنا، عندما نظر إلينا مبتسمًا، علمت معنى أن تختلف نظرتك، وأنت مازلت تملك نفس العين، اِتركني أحافظ على تلك المسافة التي تحافظ على وجودك بحياتي، فيكفيني أن أنظر إليك من بعيد، يكفي أنك جعلتني ألاحظ أشياء أخرى داخلي غير التي زرعها الجميع بأعماقي، جعلتني أعتنق فلسفة عميقة ومنطق لم أعرفهما من قبل بحياتي، اِتركني هنا جوارك دون أن تدفعني بقوة إلى صحرائك، قد تكون العاصفة قوية، لا تجعلني أعجز عن التحكم بأهواء قلبي، أنا عاجزة تمامًا وأنا أراك هنا أمامي بهذه اللحظة:

- لقد تأخرت، سأرحل الآن أستاذي ونحن على موعدنا القادم.

- حسنًا ابنتي! في رعاية الله.

خرجت من المكتبة مسرعة، هاربة، خائفة من سطوة مشاعري، لكنه لحق بي قبل أن أصل لباب البيت، وضع ذراعه أمامي، فأوقفني ذلك مضطرة، ليفتح الباب من أجلي، وعيناه تنظران لي وصوته هادئ عميق:

- آراني أنظر إلى شاعرة!

خفق قلبي بشدة، حتى كاد يفضحني، شعرت بالدماء الكثيرة التي ثارت داخلي واِندفعت نحو وجنتيّ، كأنها تود لو تهرب إليه، هل يسمع همس تلك المشاعر كلها داخلي، ويقرأ الكلمات التي لم ينطقها لساني:

- أنا لست شاعرة.

اِبتسم، وهل يميل ناحيتي، حتى شعرت بسخونة أنفاسه قريبة، فانقبضت معدتي بقوة:

- الكل يولد شاعرًا بالفطرة؛ لكنه يذبل داخل الأيام وضغوطها، ينتظر فقط تلك اللحظة التي يولد بها من جديد.

دفعت ذراعه بعيدًا عن الباب، وخرجتُ مهرولةً، جريتُ على الدرج أسابق الريح كطفلة تقبض الحلوى بيديها وتهرب بها، تخشى أن تنظر خلفها أكثر من خشيتها أن تخونها قدميها وتسقط من فرط تعجلها هاربة خائفة، كنت أجري ألعن تلك المشاعر التي أشهد مولدها داخلي.

## (١٥)

(يوسف)

يقولون أن في السفر سبع فوائد، لا أعلم منهم غير فائدة واحدة، إنه يخلي لكَ تلك المساحة من الوقت لتعيد كل أفكار عقلك وذكرياتك، يخلي لك الحيز لتفعل لا شيء إلا التفكير وأنا من ظن أني أهاجر هربًا من أفكاري، عدت إليها وأنا أسافر ليلًا وحدي بسيارتي.

لماذا تحمست فجأة وإستيقظت كل حواسي المتعبة للسفر، هل أريد أن أراها أم أنه إخلاص مفاجئ لذكرى صديقي، كانت تتهافت إلى عقلي خيالات بعيدة غير واضحة لكل أنواع الذكريات تشبه الضباب، لعبنا وجلسات سمرنا، وجه حور ونظرة عينيها التي تنعى كل توقعاتها، عتابها الصامت، والكثير من خيبة الأمل تحملهم صامتة.

خيالات لوجه أمي تصارع تلك الذكريات بعقلي، مازلت لا أسامح أبي على ضياع كل صورها، على ضياع كل صلاته بأهلها؛ فأنا حتى لم أمتلك ذلك شخص الذي أشاطره ذلك الشعور بافتقاد أمي، أشاطره بعض الذكريات التي تلاشت من عقلي كالدخان يخبرني أن جدودي قد رحلوا قبل أمي ولكن أليس لي أي أقارب من جهتها لأسمع منهم عنها،

كم كان أبي قاسي القلب لذكرى أمي! عندها رن جوالي، ليقطع الأفكار العقيمة برأسي:

- (حور)، أين كنت ؟ اتصلت بك كثيرًا!.

- آسفة يا( يوسف) كان الهاتف بعيدًا عن يدي.

- أنا قادم إلى الإسكندرية.

- حقًا!

- نعم أتيت من أجلك، أريد أن أراك وأرى ابنك.

- يسعدني ذلك كثيرًا يا يوسف، سأعطيك عنواني.

- حسنًا، سأذهب إلى أى فندق وفي الصباح سآتي لزيارتك.

- أتمنى ذلك، أنا في انتظارك.

مكالمة قصيرة مختصرة؛ لكنها كافية لأن أكمل طريقي، وأنا أعلم أنها على إستعداد لرؤيتي واستقبالي عندما وصلت إلى الإسكندرية، لم أذهب إلى أي فندق، وجدت نفسي تقودني إلى ذلك العنوان الذي أخذته منها، وجدت نفسي تهفو إلى رؤية ذلك المكان الذي يضمها منذ كل تلك السنوات، وجدت نفسي أعود صبيًا مراهقًا، ساذج المشاعر، وصلت إلى الشارع الذي تقطنه متبعًا ما ذكرته لي من تفاصيل، تطلعت إلى العمارات، عرفت بيتها من لون الشبابيك والزخارف كما وصفتها لي.

وقفت في أول الشارع أتطلع إلى بيتها، ولا أفعل شيئًا سوى النظر، صامت الوجه مشغول الرأس بكل ذكرياتي معها، الساعة الثانية عشر

بمنتصف الليل، والجو هادئ في هذه الأيام من ليالي الشتاء شديدة البرودة والصمت، هل سأنتظر هنا طوال الليل حتى يطلع النهار وأذهب إليها، هل سيرحب زوجها بزيارتي أم يجدني غريبًا متطفلًا على بيته؟

أدرتُ مفتاح السيارة، هممتُ أن أرحل لكنها ظهرت فجأة أمامي، لماذا تخرج من منزلها في ليلة باردة وفي وقت متأخر كهذا! لابد أن هناك مصيبة ما، لا يمكن أن يكون أمرًا عاديًا ما أنزلها من منزلها بهذا الوقت وحدها.

شعرت فجأة بإشتعال حماسة رجولية إِنتفضت داخل صدري، لابد أن أذهب إليها وأساعدها؛ لكنها في لحظات وقبل أن أتمكن من الإقتراب، ركبتُ إحدى السيارات الفارهة التي كانت تقف لانتظارها، وإِنطلقت سريعًا.

زاد الخوف بداخلي، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجري خلف تلك السيارة بسيارتي محاولًا ألا أفقدها، ظللتُ أقود سيارتي خلفها وكل أنواع التساؤلات تراودني، كل الأفكار تتحول إلى هواجس خطرة لا تصل إلا إلى أمنية واحدة، لعلها بخير، أمنية عميقة بداخلي أن تكون بخير.

عندما انتهت المطاردة أخيرًا، ووقفت السيارة أمام إحدى الفيلات، أيقنت أن الهاجس الوحيد الذي لم يخطر ببالي هو التوقع الصحيح، فقد ترجلت من السيارة دون معطفها الأسود الطويل، تكشف عن رداء

شديد اللمعة شديد الضيق، مبالغ الإغراء، تتمايل وتضحك ضحكات غير بريئة متأبطة ذراع سائق تلك السيارة، كنت أرى أمامي امرأة لعوب تعرف وتفهم وتعي تمامًا ما تفعل، كان مشهدًا شديد الوضوح ليس له معنى آخر.

إن الأمر الآن لا يخصني؛ هي كبيرة راشدة مسؤولة عن تصرفاتها، أتت مع ذلك الرجل بكامل وعيها وإرادتها، والآن فهمت ما كان يقلق صديقي، هل عليَّ أن أرحل بصمتٍ دون أن يشعرا بوجودي وأعود من حيث أتيت؟

تباً لذلك الصوت داخلي، **"ارحل يا يوسف!"**

لا لن أرحل، لم أستطع أن أرحل وأتركها لحريتها تستسلم لذراعي رجل ليس له غرض آخر سوى الاستمتاع بها كجسد؛ ترجلت من سيارتي، ذهبت خلفها وناديت بأعلى صوت أملكه:

- حُوووووور!

تفاجأت**!** نعم تفاجأت واِحمر وجهها، وظهرت عليها البلبلة بين خجلها وغضبها في نفس الحين.

- يوسف**!**...قالتها بصوتٍ محشرج شديد الغضب

- نعم يوسف.. إلى أين أنتِ ذاهبة بهذا الشكل، ومَن هذا الرجل**!!**

- مَن أنت لتتسلل ورائي وتراقبني!.

قالتها بصوت عالٍ أشبه بالصراخ عندما رد عليها رفيقها بلا مبالاة:

- قلتِ ستأتين وحيدة، لست بمزاج يسمح بتلك المعارك الجانبية، عندما تنهين خلافاتكِ تعرفين رقمي...

ذهب وتركنا دون أن يلتفت خلفه، وهي واقفة غارقة وسط دهشتها، تبتلع ريقها بصعوبة، تلتمع عيناها بدموع مكتومة، اِلتهبت وجنتاها احمرارًا واِرتعشت ساقاها عندها خلعت معطفي ووضعته عليها وسحبتها من ذراعها وأدخلتها السيارة بقوة وقسوة لم أتعمدهم، لكن الأمر والموقف برمته أخرجني عن شعوري، تقتلين داخلي بواقِ نفسي التي تحاول الصمود، كيف واتتك الجرأة لتحويل آخر ملاك قابع بصدري لامرأة لعوب؟ كيف أكرهك الآن؟ أين أجد تلك الشجاعة لأحرق قلبي بين ضلوعي؟ أسحقه فيوقف ذلك النبض المتهافت بحضرتك، أنا الذي رحلت عنكِ كي لا أفسد حياتك، توليت أنتِ كامل الحق كي تفسيدها، رغم تضحيتى ، اهدأي أيتها النفس، الأمر لا يخصك، عليكِ أن تكوني لا مبالية...

ألهبت أذني نبرات صوتها الباكي تصرخ جواري :

- إن الأمر لا يخصك (يوسف)!.. من أنتَ لتقتحم حياتي الخاصة وتخبرني أين الخطأ وأين الصواب.. أنظر لنفسك وحياتك.

لم أتمالك نفسي أمام صريخها في السيارة، علا صوتي رغم أني وعدت نفسي أن أتعامل مع الموقف بكل هدوء.

- أيتها الغبية هناك مسلمات لا علاقة لها بالتبلبل بين الخطأ والصواب.

كانت تصرخ بنفس هستيرية، وهي تبكي بشدة وتضرب رأسها في مقدمة السيارة

- أنت لا تعرف!.. أنت لا تفهم!.. أنت لا تفهم!...

لم أرد عليها فقط خيم الجمود عليَّ وأنا أراها في إنهيار كامل أريدها أن تكف فقط عن الصراخ، أخاف أن يسمعها الناس من حولنا في هذا المكان الهادئ في هذا الوقت المتأخر من الليل فيعتقدون أني خطفتها، قدت السيارة مسرعًا مبتعدًا عن هذا المكان وأنا أرجوها.

- أرجوكِ (حور).. لا تبكِ.. دعينا نتحدث بهدوء.. أنا لا ألومك.. أنا فقط أريد مساعدتك.. أنا أخوك يا (حور)

- اصمت أيها الحقير! أنت لست أخي! مات أخي وتركني وحيدة.. أنت هنا فقط لتريح ضميرك.. أنت هنا لتتأكد أن هناك مَن هو أسوأ حالاً منك وأكثر تخبطاً أنت الغبي يا (يوسف) وليس أنا!

طرأ في ذهني الكثير من الألفاظ التي لجمتها بلساني، تستفزني لألقنها درسًا قويًا عن الأدب والأخلاق؛ ولكن دائمًا صورة (أحمد) وخوفه عليها تقف عائقًا بيننا.

- حسنًا أيتها العبقرية!.. أين ابنك الآن!..

- بالبيت!..

- مع من؟

- وحده.

لم أستطع أن أتمالك نفسي، عندها خبطت بيدي على مقود السيارة محاولاً تفريغ غضبي، أنا الذي خفت أن أكون أبًا سيئًا لأطفالها.

- تركتِ ابنك الصغير الذي يحبك وحده بالبيت في منتصف الليل لتقابلي رجلاً لا يحبك، كيف أنت بكل هذه اللامبالاة؟

- اصمت!.. لا أريد سماع صوتك!..

- غبية!..

- اصمت!.. أنت لا تفهم!.. اصمت!..

- أريد أن أفهم يا (حُور)!.. أرجوكِ أتمنى أن أتعاطف معكِ.. لكنني لا أجد عذرًا سوى أنك تفقدين عقلكِ.

تمتمت بصوتٍ منخفض قليلاً وقد أعياها البكاء والصراخ:

- أنت لا تفهم!..

نعم!.. أنا لا أفهم!.. لم تكن تلك (حُور) الرقيقة الجميلة البريئة التي أعرفها، (حُور) التي لطالما أحببتها واحترمتها، لم تكن تلك الفتاة التي أشفقت عليها من حياتي وتخبطي، التي كنت أعرف أني لست جديرًا بها، الفتاة التي لم أبُحْ لها بما أحمله كي لا أفسد حياتها، كيف قامت هي بالمهمة كاملة في غيابي.

كيف تتغير الناس للنقيض بهذه الطريقة؟ يبدو أنني لا أعرف ولا أفهم شيئًا، يبدو أنني غبي جدًا كما قالت حين تركتها لغيري يرعاها.

عندما اقتربنا من منزلها كنت شديد الخوف أن أتركها وحدها بهذه الحالة، لا أعرف ما يمكنها أن تفعل بنفسها، وخفت أكثر على طفلها الصغير، كنت أتعاطف معه أن يناله نفس مصيري ويستيقظ فيجد نفسه وحيدًا بالدنيا بلا أمٍ، ولم أعرف كيف أنقذه وماذا يمكنني أن أقدم لهما!.. أوقفت السيارة بأول الشارع، أمسكت يدها؛ كأني أخاف أن تهرب من السيارة:

- (حُور)!، (حُور) أخاف أن أتركك وحدكِ الآن.. أريد أن أطمئن أنكِ ستكونين بخير!..

نظرت إلى يدي الممسكة بها؛ ثمَّ إلى وجهي؛ وقالت ساخرة:

- أرى أنك نادم على إفساد ليلتي وتتمنى إصلاحها وتعويضي.

فهمت ما تقصده تمامًا لكنني تجاهلته، حقًا أتمنى إصلاحها لكن ليس بالطريقة التي تعتقدها، تركت يديها حرة لترحيل ، يبدو أنها مشبعة بالكثير من الوجع والخبرات السيئة المميتة عن الحياة لتعتقد عني أنا ذلك.

- لا أستطيع الصعود معك الآن في هذا الوقت وأنت وحدكِ، لكن عديني قبل ذهابكِ أن تكوني بخير.

ردت ساخرة بنفس اللهجة:

- ممّ تخاف؟ أنا لن أقتل نفسي.

- أنت قتلتِها بالفعل يا (حور) !..

لانت نظرة السخرية على وجهها وفازت نظرة ألم رهيبة وخوف بوجهها الفاتن:

- الوداع (يوسف)!..

ارتجلت من السيارة وأنا أراقبها ترحل وكل خطوة تخطوها يتبعها قلبي كطفل صغير، أتمنى فقط أن تعود (حُور) التي كنت أعرفها على قيد الحياة.

******************

( ١٦ )

(إبراهيم)

أكثر ما يغيرنا نحن البشر، الأزمات والنجاحات تشبه المصفاة تستخرج ما يقوى على البقاء من نفوسنا، وأفضل خدمة تقدمها إلينا هو زرع ذلك الإحساس بأن لدينا القدرة على مواصلة الحياة، تخلصنا من شتى القيود الموجودة، وكلنا نملك قيد ما يؤرق حياتنا، قيد التردد، قيد الخوف، قيد الشك، قيد اللوم، قيد إصدار الأحكام، الكثير من القيود التي لا يذيبها إلا نجاح كبير أو أزمة كبيرة.

وأعتقد أنكِ لا تملكين إلا ألم كبير، ألم كبير ووجع ما يعيد تشكيللكِ ويغلفكِ، وأنا فقط أود أن تسمحي لي بالاقتراب من ذلك الحاجز قليلًا، لعلي أستطيع مشاركتك، أنا حقًا أود مشاركتك تلك الحمول التي تثقل صدركِ وتهمش رؤيتكِ لوجودي.

بدأت في الشك أنك عقابي، أنك ذنبي الذي ترده لي الأيام، أصبحت قيدي، وقصيدتي، وسلامي.

أنا متعلق!....

أنا عالق!....

ذلك التعلق الذي يقتطع جزءًا كبيرًا من نفسي ويقيد عواطفي ويغير أحوالي، ولم أظن يومًا أني أملك تلك الأشياء لتثور داخلي، أنا من

أجلكِ أعيد التعرف على ذاتي، أعيد ترتيب قطع قلبي، أعيد صياغة كياني، لطالما تغنى الفنانون وكتب الشعراء عن ذلك المدعو العشق، وسمعت الكثير من القصص التي لا تزيد بالنسبة لي عن مجرد سذاجات متبادلة، ها أنا أسقط بكامل إرادتي صريعًا داخل نفس السذاجة؛ فأنا لم أحاول مرة أن أقرأ قصة حب أو أن اتخيلها لنفسي، أنا الآن أشتاق لوجودي داخلها، حتى حين اِمتدح الأطباء النفسيون حالة الحميمية تلك، لم أفهمها، رغم زواجي، لم أسمُ إلى تلك المستويات الرفيعة التي خلدت قصص حب عبر التاريخ رغم عدم كمالها!

أفهم الآن كم ظلمت تلك الفتاة التي تزوجتها، أو لعله المجتمع والاختيار ظلم كلانا، فلم أستطع يومًا أن أهديها جنون الحب وشوق العشاق، ولم أحاول يومًا أن أثيره بداخلي؛ فأنا لم أكن أعرفه، لم أكن أدري أن هذا الجزء مدفون بداخلي، أتمنى فقط أن تسامحني، أن تدرك أنني لم أتعمد يومًا أذيتها!

عندما استيقظت هذا الصباح، لم أستطع النهوض من فراشي، كنت أعلم أن الوقت باكرٌ؛ وأنها لن تأتي قبل عدة ساعات، تمنيت أن أغفو مرة أخرى حتى لا ألاحظ تلك الدقائق الخانقة التي تمر دون وجودها؛ لكن النوم جفاني، وظللتُ كالقتيل بفراشي يقتلني الحنين، شوقي إلى كل تفاصيلها، كيف أتحمل الحياة دون أن أضمها إلى صدري شوقًا، كان

لها طعم السكر حين تداعب مخيلتي، كيف أسرفت على نفسي جرعة الحنين هذا المساء حتى تلهبني تلك النيران صباحًا؟ كيف أتحمل جفاءها الشديد وكيف أصارحها بكل تلك المشاعر التي تتعمد تجاهلها؟ لماذا لا تأتيني؟ لماذا لا تقترب مني؟ اقتربي قليلًا، لعلكِ تشعرين بالدفء من لهيب نيراني، أخيرًا طرقات يدك الرقيقة على الباب.

عندما سمعت طرقات الباب، هممتُ مسرعًا من فراشي كي أستقبلها، لكن المربية سبقتني ولم تجعلني أنعم بالفرصة، عندما نظرت إليَّ نظرة متعجبة تذكرت أني منكوش الشعر مرتدي بيجامتي غير مهندمِ الشكلِ، كيف تعجلتُ لهذه الدرجة؟ كيف نسيتُ نفسي وجريت كالأطفال بمنتهى السذاجة!

- صباح الخير(صفاء)!.

- صباح الخير (د/ ابراهيم)!.

همت بالدخول إلى المكتبة؛ لكني أسرعت قائلاً:

- هل مازلت تشكين من ذلك الصداع؟

- قليلاً!.

- وزنك قد تناقص كثيراً!..

شعرت أن وجنتيها اشتعلتا احمرارًا وهي تعلم أني أنظر إلى جسدها، يا لغبائي! كيف أتطلع إليها كالمبهوت أو المسحور، أكملت حديثي محاولًا أن أبدو أكثر جدية ولا أضيع ثقتها وهيبتي أمامها وأمام نفسي.

- سنذهب اليوم لإجراء التحاليل وعمل بعض الفحوصات في المشفى.
- لا داعي لكل ذلك؛ فأنا بخير!.
- هل يمكنك التوقف عن الادعاء أنك بخير قليلًا، أنا أشعر بكل تلك الصراعات بداخلك.
- أي صراعات د(إبراهيم)!.
- وهل تتوقفين عن ذكر لقب دكتور كلما ناديتني، أنتِ مُصِرة على وضع حواجز كثيرة بيننا وأنا عاجز عن تخطيها.
- أي حواجز؟ أنا لا أفهم!.
- بل تفهمين.

نظرت إلى الأرض وتجنبت مواجهتي، لماذا تتعمد تعذيبي؟ لماذا تتجاهلني بعد كل ما فعلته من أجلها وما قدمته لمساعدتها، وهل أنا أساعدها؟

وقعت الفكرة على رأسى كحجر ثقيل منذ أن خطرت ببالي تلك الفكرة بأن يساعدها أبي ومن أقدر منه على مداواة القلوب المنكسرة، وأنا أعتقد أنني أساعدها؛ لكني كنت أختلق الأعذار كي أبقيها هنا، أبقيها جواري، قريبة؛ كي أراها وأعرف كل أخبارها، يبدو أنها لاحظت ذلك وتحب التفنن بتعذيبي، ماكرة، موجعة، تتعمد إيذائي، هل تنتقم مني أنا؟ تنتقم لتجربتها القديمة ممن أهداها قلبه دون مقابل، سألت نفسي كثيرًا، هل تستحق كل ذلك؟ هل تستحق؟؟!!

هممتُ بالرحيل عن وجهها؛ لكني عدت دون وعي إليها وصرخت بها:

- أنت باردة، قاسية، لا يمكنك الإحساس أو الشعور كباقِ البشر!..

كم أسعدني ذلك الإحساس وأنا أرى وجهك الذي تغيرت كل قسماته الباردة، نشوة قوية اعتبرتني...

سريعًا تحولت نخزة عميقة بصدري، فقد شعرت ذلك الألم الذي غير قسمات وجهك الرقيق، كم أنا بارع في إيذاء النساء.

ثبت بالتجربة أني بارع في تخييب الظنون.

تركتها تدخل المكتبة وذهبتُ أرتدي ثيابي وأذهب إلى عملي وأنا أقسم ألا أتحدث معها أبدًا في حياتي.

******************

## ( ١٧ )

(صفاء)

رائحة المكان هي من أكثر الروائح ثباتًا وسطوة وديمومة وسحرًا وإدهاشًا، نجحت في اِلتقاطها منذ أول مرة خطت فيها قدمي هذا البيت وهذه المكتبة، تعطي نشوة وثقة، رائحة كريمة تغرق فيها، تستعمرك بكل سعادة واِستسلام، ثمَّ تنبعث منك وتصبح جزءًا لا يتجزأ منك ومن إحساسك، من وجدانك العميق حتى تدمنها ولا يمكنك الاستغناء عن حضورها الفخم حولك، هذا المكان تغلغل في مسامي ولغتي وأنفاسي، لماذا لم يفهم أبي ذلك؟ مازال يهددني ويتوعدني عند كل مرة كأنني طفلة، أو لعلّي ذنبه وفضيحته التي يراها مُصِرة على خطيئتها الكبيرة.

أنا لست ذنبك (أبي)؛ لكني لم أعد أهتم، لم أعد أبالي بوجود أحد جواري أو تخليه، بعض الأنانية واجبة ومطلوبة وضرورية، لعله يراني عابثة غير مهتمة بالأصول وأعرافه، لكني أراني تحررت أخيراً من قيود ذلك المجتمع القاسي.

عندما أخبرني أنه يتمنى لو كنت متُ أنا بدلًا من ابنتى، لم أتألم، لم أشعر كثيرًا، ولم يوخزني قلبي ولم يضِق صدري؛ بل لعلها أفضل أمنية قدمتها لي أبي، أفضل دعواتك على الإطلاق، أو يمكنك تمني الموت لي الآن لألحقها، واثقة من أنها في حياة أفضل.

أما أمي فمازالت تمصمص شفاها عند دخولي وخروجي، أصبحت ذنبًا ثقيلًا على كلاهما، لعل الله يزيحه عنكما يوما! حتى ذلك الحين، اتركوني أحيى ذلك النعيم الجديد الذي انفتح لي ويسري عن قلبي وروحي، اتركوني أنعم برائحة الكتب وسطوة المعرفة.

استيقظت هذا الصباح، لم أنهض عن فراشي؛ بل ظللت راقدة به، لم أستطع النهوض، كنت أعلم أن الوقت مازال باكرًا وأن موعدي لن يحين قبل عدة ساعات، تمنيت أن أغفو مرة أخرى حتى لا أضطر لمواجهة تلك اللحظات العصيبة مع أبي ككل يوم؛ لكن النوم جافاني، وظللت جامدة بفراشي يقتلني مرور الوقت البطيء، بالنهاية، كان لابد من المواجهة اليومية التي لا مجال لتجنبها، نهضت مستسلمة.

- صباح الخير.. أمي!.

- صباح الخير حبيبتي!.

عندها رفع أبي عينيه عن الجريدة؛ قائلاً بسخرية:

- وليس لأبيك نصيب من هذا الصباح!.

اقتربت منه وقبلت كف يده:

- صباح الخير أبي!.

- ضعي في حسبانك؛ أنه لا خروج اليوم من البيت.

- لا تعاملني كالأطفال، أرجوك!.

- لا أعتقد أن امرأة راشدة تتصرف مثلك، أنتِ تحتاجين لإعادة تربية كالأطفال.

- أرجوك أبي!.. ليس ضروريًا أن أسمع منك هذا الكلام كل صباح.

- أنا خجل من هذا الوضع الذي وضعتينا به، ومن تماديكِ في تصرفات الأطفال هذه دون مراعاة لنا أو للناس من حولنا، أنا أخجل حتى من الجلوس مع أصدقائي بالمقهى، أتجنب أي حديث عنك.

- إن كانت كل الاعتبارات تقودني أن لا شيء سيرضيكم أو يعجب الناس، عليَّ أن أحاول إرضاء نفسي على الأقل.

- ولكِ الجرأة لتتبجحين بالكلام!.

- نعم لدي الجرأة! لدي الجرأة لفعل الكثير، ماذا يرضيك أنت؟ هل تريد التخلص مني؟ هل أقتل نفسي كي ترتاح؟ أم ستزور قبري لتأنيبي أن وضعت رأسك في الطين كالمعتاد؟

عندها صرخت أمي:

- صفاااااء....... هذا يكفي!... أنا لا أتحمل هذا كل صباح.

نظرت إليهما وأنا لا أدري أين السبيل لإرضائهما تحت تلك النظرات التي تخبرني دائمًا وأبدًا أني مخيبة للأمل، كيف أتعايش مع نفسي بهدوء مع تلك النظرات، كيف؟

تركت الحجرة وخرجت دون أن أتناول فطوري ودون أن أحاول الكلام مرة أخرى، اِرتديت ملابسي قبل أن يلاحظني أبي، تسللت بهدوء

شديد، وخرجت، خرجت من منزلهما، ولم أحاول الالتفات ورائـي، فقد أصـابني الجدال معهمـا وحنقهمـا الشديد علـي بصداع قوي لا أستطيع تحمله.

مـازال ذلك الصداع الذي يلتهم رأسـي لا يهدأ؛ بل أصبح يزداد، هل القراءة الكثيرة قد تسببت في ازدياده؟

لكنه يصيبني معظم الوقت؛ بل في كل وقت، لا ينتهي ولا يكاد يرحل.

مازلت أعتقد أنها القراءة؛ خاصة بعد تلك الزغللة البسيطة التي بدأت في الظهور المفاجئ أمام عيني.

د(إبراهيم) لا يوافقني الرأي؛ مع تناقص وزنـي السريع وتلك الهالات التي ظهرت تحت عيني، ومن أين تـأتي تلك الشـهية للطعام وقد رحل عني أغلى مـا ملكت يومًـا، هل مقاومتي الشديدة للتجمد بداخل قوقعة الحـزن تلـك قـد أنهكـت قـواي؟ أم أنـي مازلـت غارقـة فـي غيابـة الهـم وتلتهمني الأحزان؟ أنا لا أكاد أميز ذلك؛ لكني لا أملك خيارات كثيرة، فالحياة تمر وتكمل مسيرتها رغم أنفي ومهما تألمت؛ فلا أحد يبالي.

أو لعل الحياة ترسل لـي مَن يبـالي أحيانًـا، كـان الوقت بـاكرًا وعلـيَّ أن أسير في الطرقات لأضيع الوقت

عندما وصلت للمنزل كنت منهكـة من المشـي، فتحت لـي المربية ثمَّ وقبل أن أبادلها تحية الصباح؛ أتى مسرعًا إلى البـاب د/ (إبراهيم) كـان

يقف أمامي، ببيجامته، غير مهندم، منكوش الشعر و آثار دهشتي فلم يسبق أن رأيته بهذه الصورة:

- صباح الخير يا (صفاء)!.

- صباح الخير (د/ إبراهيم)!.

هممت بالدخول إلى المكتبة؛ لكنه أعاق طريقي قائلاً:

- هل مازلت تشكين من ذلك الصداع؟

- قليلًا!.

- وزنك قد تناقص كثيرًا.

شعرت بنيران شديدة تصعد من داخل صدري وتقتحم وجنتي بشدة، لهيب وحرارة غير طبيعية وهو ينظر إليَّ هذه النظرات التي لا تبدو بريئة أبدًا هذه المرة، هذا المجنون، هل يتفحص جسدي بكل صفاقة أم أنني واهمة؟ هل كان أبي محقًا حين أخبرني ألا أخرج من المنزل هذا اليوم، يحاول أن يبدو أكثر جدية ولا يضيع هيبته أمامي؛ لكن هيهات لمحاولته وصوته المنتفض :

- سنذهب اليوم لإجراء التحاليل وعمل بعض الفحوصات في المشفى.

- لا داعي لكل ذلك؛ فأنا بخير!.

- هل يمكنك التوقف عن الادعاء أنك بخير قليلًا، أنا أشعر بكل تلك الصراعات بداخلك.

- أي صراعات د/ (إبراهيم)؟

- وهل تتوقفين عن ذكر لقب دكتور كلما ناديتني؟ أنت مصرة على وضع حواجز بيننا، لا يمكنني تخطيها.

- أي حواجز؟ أنا لا أفهم!.

- بل تفهمين.

نظرت إلى الأرض محاولة أن أهرب من نظرة عينيه التي تخترق أضلعي، ماذا يتوقع مني، أو يعتقد أني أستطيع تقديمه وأنا وسط هذه المعركة بحياتي، لا أتعمد تجاهله، أنا فقط أخشى مواجهته، أخشى فقدانه، أخشى أن أعود وحيدة بعد أن اِعتدت الأنس بوجودهم حولي، عندها رحل من أمامي، تركته يذهب.

لم أحاول تصحيح ذلك الأمر، لم أعد أملك القوة لتصحيح أي شيء، ولا أملك الشعور لمؤازرة ومشاركة أي إهتمام، أنا تجمدت، مات إحساسي؛ فلم أعد أهتم بغضب من حولي مثلما اعتدت، أو مثلما اعتادوا هم.

لم أعد أتمتع برقة القلب التي تجعلني أهتز مع تصرفات الآخرين أو ألتفت إلى ما يؤلمهم، أنا لم أعد أبالي بتفسير نفسي

- أنت باردة، قاسية، لا يمكنك الإحساس أو الشعور كباقِ البشر.

خطفتني تلك الكلمات أو خطفني الصوت الذي ألقاه، نغزة سكين بصدري... آلمتني.

وزاد الألم أكثر لأنها منه هو، لماذا عاد؟؟، كلف نفسه مجهود العودة فقط من أجل إيلامي، نظرت إليه بكل برود وتعمدت عدم التفوه بأي

كلمة، اِلتفت عائدًا من حيث أتى، هل رحل؟ أو لعله يعود ليحاول إيلامي أكثر كالجميع.

مشيت متخاذلة النفس إلى المكتبة، حاولت شغل نفسي بترتيب أرفف الكتب؛ لكن كلماته تتردد داخل عقلي، رغم إصراري على طردها واستجماع قواي كي لا أطلق لدمعي العنان.

باردة، قاسية، لا يمكنني الشعور كباقِ البشر، هل هذه أنا؟! بل كلماتك هي الباردة القاسية، وأنا....أنا لن أسقط في فخ ضعفي كالعادة، أنا قوية، لن أتعثر بكلماتك، أنا لن أسقط صريعة أحزاني مرة أخرى....

- أنا آسف!.

التفقت إليه مذعورة، قد آثار خوفي الصوت الهامس من خلف أذني و تسلله الذي لم أشعر به..

عاد مرة أخرى، اِبتلعت ريقي وأخذت نفسًا عميقًا، استعدادًا لمزيد من الجرح وبكل جدية حاولت الرد :

- انسَ الأمر (د/ إبراهيم)، لم يحدث ما يستحق.
- حسنًا، هيا بنا!.
- إلى أين؟
- أخبرتك، سنذهب للمشفى، يجب أن أطمئن عليكِ.

اقترب مني أكثر

عيونـه تسـتعطفني... نظـرة محتـاج.. نظـرة ملتـاع... تسـقط حصـوني وصوته يزداد همسًا وسكونًا يشق قلبي دون أدنى مجهود.

- أريد حقًا أن أطمئن عليك فقط.

اللعنة على هذا الخفقان! اهتز قلبي بشدة، كيف يكـون قلبـي بهـذا الغبـاء؛ فيصدق هذه الترهات مرة أخرى؟ كيف نسي أمر قوته المزعومة؟؟

اِستقم أيها القلب الغبي، لا تفشل في استجماع قواك؛

لكنه استسلم هذه المرة،

هذه المرة فقط.

ذهبت معه إلـى المشفى، لـم أستطع مقاومـة إصـراره، واسـتجداء نظـرة عيونـه، ذهبنا إلى المعمل، لا أفهم لماذا هذا الكم الهائل من التحاليل؛ ثمَّ غرفة الأشعة، أخذت إحدى الممرضات كل علاماتي الحيوية وسجلتها.

كانت إجراءات مبالغ فيها، والعديد من زملائه الأطباء يستشيرهم.

شعرت ناحيته بالشفقة؛ فلا يجوز أن نحـاول الإهتمـام بشـخص مـا إلـى هذه الدرجة، أعتقد أنه هو المصاب بمرض ما وليس أنا.

فـي النهايـة، بعـد إنتهـاء كـل تلـك الإجـراءات المعقـدة الكثيـرة هممـتُ بالرحيـل، لكنــه أمسـكني مـن ذراعــي بقـوة ، قبـل أن أخطـو راحلـة ، قشعريرة مفاجأة ككهرباء انتفضت بكل جسدي، لمـاذا يحكم قبضـة يده

علـى ذراعـي؟ أدار جسـدي إليـه وقـال بـنفس نبـرة صـوته التـي تشـق قلبي :

- صفاء!.

نزعـت ذراعـي مـن يـده سـريعًا، وأنـا شـديدة التـوتر، أرتجـف، أتمنـى الهرب من ذلك الموقف، لكنه أكمل :

- هل تتزوجيني؟

بلعت ريقي، لا أكاد أصدق، الدنيا تدور بي، كل قسمات وجهي تجمدت من الدهشة، لو كان ذلك العرض فـي وقـت سـابق مـن حيـاتي، لرقصـت طربًا من الفرحة أمام كل العـالم، لطـرت محلقـة مـن نشـوة السـعادة بـين الطيور بأعلى السماء؛ لكن الآن لم أستطع التفوه بكلمة، وقفت مبهوتـة؛ بلا شعور، بلا كلمة تخرج من فمي المرتعش....

- حسنًا، لـن أسـمع الـرد الآن، عنـدما أعـود للمنـزل أتمنـى أن تكـوني موجـودة، هنـاك الكثيـر الـذي أريـد الحـديث فيـه معـك وأولـهم، أن الرفض ليس من الاختيارات المتاحة لك.

تركته ورحلت، الرفض ليس من خياراتي المتاحة لماذا السؤال إذًا؟

كان عليه ببساطة اختطافي يا له من مجنون حقًا! ،. في كل مرة يعيد لي شعور سعادة كأني طفلة صغيرة ، تركته يكمل عمله ورحلت وأنا لا أدري أين أذهب، هل أعود لمنزلي، وأنسى أمر هؤلاء الناس، أم أفتح قلبي وحياتي لحياة جديدة؟ هل يمكنني فعل ذلك ولا أكون خائنة لذكرى الغياب؟ هل أستحق بداية جديدة؟ هل أنا جديرة ببداية جديدة؟

كل أنواع التردد والخوف والرهبة، كانت تلح بداخل عقلي وأنا أمشي وحدي في طريق عودتي.

## ( ١٨ )

(يوسف)

- أردت أن أطمئن عليك قبل أن أنام، كتبت الرسالة وأنا أمسك ذلك الهاتف بيدي متوترًا، أنتظر منها الرد

- (يوسف) أنا بخير

- هل أنت متأكدة؟

هذه المرة اِنتظرت الرد وقت طويلًا ولم تكتب أي شيء

- ؟؟؟؟؟

- أنا لست بخير يا(يوسف)

- تحدثي، تحدثي معي يا (حُور) أرجوك دعيني أساعدك.

- الأمر معقد يا (يوسف) لا أعتقد أنك ستفهمه.

- دعينا نحاول، أنا أفهم يقينًا أن هناك خطأ ما في زواجك.

- كثيرًا ما يتعايش الإنسان مع الأخطاء بتهوينها أو تبريرها.

- وكثيرًا ما يعالج الخطأ بخطأ أكبريا (حور)

- لا توجد مشاكل ولا أخطاء يا (يوسف).

- بل هناك مشكلة، أنا لا أريد أن أتطفل عليكِ وأعرف ما تخفيه؛ لكن فقط أخبريني، لماذا لا تفتحي قلبكِ وتتحدثي إلى زوجكِ في مشاكلكِ،

هل حاولتِ يا (حُور)؟ هل حاولتِ إصلاح الأمر قبل الدخول في علاقة لن تغنيكي إلا مزيدًا من الأسى.

- لا تحاول، لا أريد الحديث مع مَن يحاول أن يقوم بدور المصلح الاجتماعي.

- بل أحاول الوصول إليكِ أنتِ، لمساعدتكِ.

- نعم بالتأكيد، حاولت لكن الصراحة ليست بكل هذه السهولة.

- الصراحة أقصر طريق عزيزتي.

- الصراحة صعبة وثمنها غالي؛ فليس كل ما بداخلي صالح للحديث.

- لا يوجد شيء بين رجل وشريكته لا يمكن الحديث والخوض فيه.

- يوجد الكثير الذي لا يمكنني إخبارك عنه.

وظلت تتوالى الرسائل وراء بعضها، الكثير من الكلمات اِنساقت خلف بعضها دون تردد، لم أجد ما أكتبه لها كنت مصدومًا من كل هذه الكلمات، لم تكن تتأنى في الكتابة كانت تصب العبارات وراء بعضها صبًا، أعتقد أن الفضفضة من وراء شاشة الهاتف تكون أسهل كثيرًا لمن يريد أن يقول كل ما بداخله دون أن يُرى أو يَسمع رد فعل من أمامه، لمَن يصعب عليه أن يتحدث بما في نفسه، أعتقد أنها كانت تنتظر فقط الفرصة كي تكتب وتقول المزيد وتكب كل ما لديها، أعتقد أنها تفتقد الكثير من الدعم والأمان والتواصل؛ حتى وإن ظننت أنها في

علاقة عشق رائعة؛ فهي لم تصل بها إلي حد الأمان بعد، مازال هناك شئٌ ينقصها لا تجده ولن تجده عند أي إنسان حولها

- هل تصمت أنت الآن؟

وقتها، قررت أن أتصل بها، اِحتجتُ أن أسمع صوتها، وأطمئن على نبراته، أن أنقل لها بعض التعاطف الصوتي المحسوس، رغم كوني لست على قدر كبير من الشجاعة لأسمع صوتها؛ لكنها تستحق مني الكثير، اِعتقدت أنها في وضع وحالة لا تحتمل سماع الحقيقة كاملة؛ بل تحتاج ليد صديق تطمئن لها قبل أن تتقبل ما أريد إخبارها به.

- حسنًا يا (حُور) نوعًا ما صدمتني بكل هذا، لم أتوقع أن كل هذا بداخلك.

- أعتقد أني أطالت عليك، آسفة، سأذهب للنوم أنا متأكدة أنك متعب جدًا.

- لا، أنا لست متعبًا، أنا فقط أفكر.

صمتت لكني كنت أسمع شهيق أنفاسها التي تود أن تكتمها كي لا أشعر ببكائها.

- هل تعرفين يا (حُور) أنتِ فقط غاضبة، أنتِ غاضبة جدًا، حد الكراهية، أنا أفهمكِ عزيزتي.

- حقًا هل تفهم؟

- أعتقد أني أفهم أنكِ لم تتزوجي للحصول على سيارة ومسكن ومَن يطعمكِ، فأنتِ لم تكوني بحاجة لكل هذا، أفهم أنكِ تزوجتِ كي تتشارك الحياة والتفاصيل مع رجل، أفهم أنكِ شعرتِ بالخديعة عندما لم تجدي ما توقعتي ولكن ما تفعلينه ليس الحل.

سمعت بكاء طفلها عبر الهاتف؛ فقطعت كلماتي وقلت لها:

- هيا عزيزتي اذهبي إلى طفلك واحتضنيه، أعتقد أنكما بحاجة إلى بعضكما وبحاجة للراحة، لا أريد أن أتطفل عليكما أكثر من هذا

- حسنًا (يوسف) لا أدري هل من المفروض أن أشكرك أم ماذا؟ ولكن طلب أخير، أرجوك ابتعد عن حياتي وانسَ كل ما حدث، أنت لست أخي.

أغلقت الهاتف، دون كلمة وداع وأنا مصدوم أفكر في كل ما حدث، قد تكون خجلة مما اكتشفته ومما قالت، المسكينة، صدق (أحمد) عندما كان قلقًا عليها، ولكن كيف شعر حقًا أنها في أزمة، كيف كان بكل هذه الشفافية ليصل إليه إحساسها عبر كل هذه الأميال الفاصلة بينهما، الحياة تصر على إعطائي ألغاز جديدة ورؤى سريعة التغير، وكأن ليس بي ما يكفيني، أشعر أني أقف فى مهب ريح عاصفة تفتك بي يمينًا ويسارًا؛ ثمَّ تعود بي إلى نفس الألغاز ونفس الدوائر اللامنتهية من جديد، لم أستطع النوم بسهولة بعد ما حدث، ظللت أفكر وأنا بفراشي حتى أشرقت الشمس ومازلت عاجزًا عن النوم.

## ( ١٩ )

(حُور)

منذ اليوم الأول الذي وقعت عليه عيني عرفت أنه لا يلقي في نفسي آية جاذبية، لكني تزوجته في كل الأحوال تحت مباركات الأهل والزغاريت والأفراح، أعلم أنه خطأي لكني انصعت لتلك المفاهيم التي يصدرها المجتمع لفتياته، (الحب يأتي بعد الزواج)، لعلي أحبه عندما يصبح زوجي وأبًا لأولادي وكل ما لي بالحياة.

تزوجته ولم أحبه، لم يهدينِ شيئًا بالحياة سوى اسمًا يزين بطاقتي الشخصية ومحبس حول اصبعي أو بالأحرى حول رقبتي.

عندما استيقظت يومًا وأنهيت تلك اللائحة الطويلة من المهمات اليومية؛ ثمَّ حضرت فطورًا كبيرًا يكفي لعشرة أفراد، من زبدة ومربي وكل أنواع الحلويات من حولي وأكلتها كلها وحدي، اِنتابني هاجس قوي أني مصابة بالاكتئاب، كان دائمًا يبتعد وأنا مَن ألاحقه، حتى اِنتهكت كل مشاعر الإنسانية، لا أتوقف عن تلك المحاولات الساذجة للفت نظره، أسيرة الإحباط، لكني توقفت ذاك اليوم عن ملاحقته وقد أصابني الخوف والرعب؛ لأنه ولفترة طويلة كان يمثل لي بر الأمان أو هذا ما اعتقدته؛ لكن هاجسي أخبرني أنه صار ضياعي.

أعترف أن ذلك أفقدني اتزاني لفترة قبل أن أدرك أني لم أعد أهتم بأمره، لقد أدركت أن الإتزان لن يأتي من علاقة بأحدهم فقد كنت قبله وحدي وأشعر بالكثير من الإتزان، إن الاتزان غالبا يأتي من الفطرة، عندما تعيش مع أبوين وتبلغ عمرًا معينًا لا تعود بحاجة إلى الالتصاق بهما، يبدأ اتزانك في النمو، تبدأ علاقتك بذاتك تتكون بالتدريج وإن كانت غير مقصودة؛ لكنه سلوك فطرى يتبعه الإنسان بشكل طبيعي مع النمو و النضوج وقد وصلت إلى هذه المرحلة يومًا ولم يكن بحياتي، فلمَ أحتاج إليه الآن حتى أحصل على اتزاني، أنا لا أحتاج إليه ولا إلى غيره، أنا أحتاج نفسي، ذلك الشيء الوحيد الذي يجب أن ألاحقه وأرضيه....

وقد كان الحل أمامي التوقف عن ملاحقته والبدء في ملاحقة ذاتي، والإهتمام بنفسي لأجلي وليس لأجله، البحث عن تلك النفس التي تم اضطهادها في سبيل إرضاء مَن لا يستحق، واستثمار الطاقة الت تم إهدارها في سبيل استعادته ، لهذا تخسر العديد من النساء أرواحهن ، إنهن الأكثر ميلاً لاضطهاد أنفسهن في سبيل إرضاء الجميع، يومها أسرعت إلى مرآتي نظرت لنفسي، لوجهي، وجسدي، قصصت شعري، غيرت لونه، وقررت تغيير ذلك الاستايل البائس من الملابس.

"""" ركز اليوم على نفسك!.. لا تفقدي روحك! """"

كنت أعتقد أني أتحول للأفضل لكني تحولت إلى كائن فارغ من كل شيء إلا الألم عندما قال لي يوسف أنه لا يوجد شيء لا تستطيع المرأة إخباره لزوجها كان ساذجًا جدًا لا يفهم شيئًا، أنا لا يمكنني إخباره الكثير من الأشياء، لا يمكنني إخباره أني كنت أتجسس على هاتفه لأعلم سر ابتعاده عني وعلمت أنه يخونني، ثم اكتشفت أنه لا يستطيع خيانتي سوى بالكلمات فقط؛ لأنها أقصى ما يستطيع تقديمه، سأكون ساعتها متهمة بالتجسس عليه حتى لو كنت في حيرة من أمري ووحيدة وخائفة وأريد فقط أن أفهم، لا يمكنني إخباره أني أعرف مكان خطابات البنك التي لا أدري لمَ يخفيها عني؟لا يمكنني إخباره عن سعادتي الشديدة بنظرة صديقه إلى جسدي ومدحه لي؛ لأنه لم ينظر لي أبدًا هذه النظرة كأنه لايراني أبدًا.

لا يمكنني إخباره أني أموت ببطء في هذا المنزل بين إعداد وجبات الطعام وغسل الملابس وأعمال كثيرة لم تكن ضمن طموحاتي عندما تزوجته، لا يمكنني إخباره أني أكون أكثر سعادة عند الخروج بدونه وأني أجامله عندما أصطنع السعادة إذا ما خرجت معه؛ خاصة في الزيارات العائلية المملة لأهله، أنا فقط أكره كل ما يمت إليه بصلة، لا يمكنني إخباره أن أمه وأخته يزعجنني عندما يغيب، ويصطنعن الحب أمامه، وأنا أتحمل بلا مقابل، لا يمكنني إخباره أني أعلم عن تلك المرأة التي منذ انفصلت عن صديقه تشاغله وهو سعيد بهذه المحاولات منها

ولا يحاول صدها، لا يمكنني إخباره أني لم أتمنَّ شيئًا منه ولا من فكرة الزواج إلا الحب والاحتواء والحنان، أني كنت على قمة الاستعداد لحبه، أني لم أحب قبله أو غيره .

لكني الآن أكرهه، أنا أكرهه يا (يوسف)، أكره رؤية وجهه وأكره رائحته وحتى صوته وكلماته، أنا فقط أكرهه وتزداد كراهيتي له في اليوم ألف مرة، لا يمكنني إخباره أني توقفت عن لومه في عاداته السيئة، لأني لم أعد اهتم به أو أحاول أن أحبه، لا يمكننى إخباره أني أتلوى بهذا الفراش في الليل ألف مرة، أني أحلم بغيره وأنا إلى جواره، أني أستيقظ ملتاعة مشتاقة بمنتصف الليل؛ فلا ألقى سوى صوت شخيره المزعج فازداد كراهية له، لا مكان نلتقي به وسط طموحنا المختلف، أنا أريد الحب وهو فقط يريد أن ينام.

لا يمكنني إخباره أني وجدت فحوصاته التي أجراها قبل زواجه مني واكتشفت ضعفه الذي لم يمنعه من الزواج مني والتجربة في كل الأحوال وتعذيبي ببطء آلي جواره بلا مبالاة، لا يمكنني إخباره أني عذراء في فراشه رغم مرور خمس سنوات زواج،  أني أصبحت أفتعل السعادة لأخلص نفسي من جحيم تجاربه النادرة، الفاشلة معظم الوقت، لا يمكنني إخباره أن كل شيء ممتع تفتقده يؤدي بك إلى المشاكل، كتلك المتعة التي يشعرها الإنسان في العلاقة الحميمية مع شخص يرغبه ويحبه ويهفو إليه القلب، إن كانت تعني للرجل طريقة للتقارب

العـاطفي؛ فهـي تعنــي للمـرأة نتيجـة هـذا التقـارب، الحرمـان المسـتمر يصـيب الإنسـان بالغضـب والإحبـاط؛ لأنـه يمنـع عنـه مطلبـه الأساسـي للاقتراب، وعندما يزيد يفتح أمامي أبوابًا للانجذاب لآخرين، الانغماس مع عاطفة خارجية تشبع لدي هذا الاحتياج مهما حاولت مقاومتـه، لا يمكننـي إخبـاره أن الرغبـة لا تعنـي وجـود مشـكلة لـدي؛ بـل فقط تعنـي وجود إلحاحٍ داخلي لأشعر أني مرغوبة، أني امرأة!

لا يمكنني سؤاله عن كيفية ملء هذا الفراغ أو عن كيفية إشباع هذه الرغبـة، لا يمكننـي إخبـاره عـن  بؤسـي مـع تجربتـي معـه، لا يمكننـي إخبـاره اكتشـافي؛ فـالجنس بـلا حـب ولا حميميـة كـائن منغلـق، غيـر متصل، عينان موصدتان، وأنفاس متقطعـة، لا يمكنـك أخـذ نفس عميق لتتنفس رائحـة شريكك، تفكر بشكل سلبي، عقلك موجـه لمكـان بعيد، متوتر، مضغوط، منفصل، لم أجد تلك الصورة التـي لطالمـا تخيلتهـا، نفس منفتحة، تتواصل مع شريك، عقل يقظ، عينان مفتوحتان تنظر إلى تلك الروح وتتعمق بداخلها، تتنفس رائحته، تتذوق عبقه، وتشبع أنفاسك من عطره، مسترخ، دون توتر أو قلق أو ضغوط،

هل أخبره أنـي أذهـب لطبيب أمراض نفسية؟ استأجرت رجـلاً آخـر لأحكي لـه عن مشـاكلي أحلامـي وآلامـي أو أخبره أن آخر استأجرني مقابل أن أسمع كلمات الحب والغزل، أني لأول مرة فهمت معه معنـى

الزواج، عرفت طعم الانتفاض الجسدي بين أحضان رجل، فهمت كيف يكون الاشتهاء بين جسدين.

ذات يوم ذهبت إلى أبي أخبره؛ أني لم أعد أستطيع أن أكمل هذا الطريق، لا يمكنني الاحتمال، خائفة جدًا من السقوط في تلك الحفرة التي تزيد اتساعًا وعمقًا بانتظار استقبالي، قال لي بكل هدوء أن أتحلى ببعض العقل ولا أخرب بيتي بيدي، لم أجد مَن ينصفني، عدت إلى بيتي بلا مفر ولا أمل، أدخل داخلي خوفًا كبيرًا من كلمة "مطلقة".

وجدتني محاطة بكل أنواع الخوف حولي، هناك دائما الخوف ، الخوف من الوحدة إذا أخذ ابني مني، الخوف من الندم، الخوف من الفشل، الخوف من عدم وجود بديل، أو بالأحرى عدم وجود بديل أفضل من وضعي الحالي، استمريت في خوفي من كل هذه الأشياء حولي؛ بينما استمر مصيري في اجتيازها في الوقت نفسه، قلبي يكاد يخرج من صدرى من شدة الرعب أحيانًا، ولم يكن هناك بديل غير الاعتماد على وحدتي، من تَقَبُل أني فشلت في علاقتي، من الاعتراف بأن الخوف يقيدني، ولا مفر من البقاء والاستمرار.

خائفة، مضطربة، غير واثقة،....

أكملت طريقي،..

كان البقاء في مكاني أسلم وأكثر أمانًا من البحث عن حياة مختلفة مليئة بالمفاجآت ، غامضة وقد يظهر بها الأسوأ، على أقل تقدير أنا اِعتدت

على حياتي هذه بكل رتابتها ولا استعداد لدي لمفاجآت جديدة، أنا في مجرتي الخاصة لا أرى فيها إلا ما ألفته ، لكن أخاف لو خرجت للخارج، هل سأجد السماء صافية أم غائمة، سأجد البساتين أم الصحارى، سأجد حقيقة أم سرابًا، هل توجد سعادة أم المزيد من الأحزان ، قد أبدو هادئة، ساكنة،راضية ، مستسلمة، ولت مني أيام التمرد وانتهت الصراعات، لكني انتهيت إلي نتيجة مؤكدة أن التقاليدمهما كانت غريبة أو مجحفة؛ فإنها دائمًا تفوز.

أنام كل يوم على حلم أني بين أحضان رجل يهواني ويعشقني، أن هناك يد تحتضن كفي الناعس؛ ثمَّ أستيقظ بمنتصف الليل أشهق وينتزعني الحزن من أحلامي ويخبرني بكل بلادة؛ أنه لا أمل بالحب وأنا بهذا البيت، إلى جوار هذا الرجل.

ويبقي السؤال؛ ماذا نفعل إذا كانت الحميمية منفصلة عن الاستقرار الاجتماعي والدفء العائلي، هل نُضحي بالأولى أم الثانية؟ أم أني اخترت الحل الأفضل، نمشي على خط رفيع دقيق لنكسب الاثنين!!!

أنا هنا، لا أرحل، رغم أني لازلت أعاني، لا أستطيع العيش سعيدة دون حب يصل بي إلى السحاب، يدور بي بين الحقول والورود والأراضي الممطرة، لا أستطيع أن أكون سعيدة دون حب، ولا أملك الشجاعة للرحيل إلى المجهول، إلى عيون الناس وكلماتها القاسية.

أين هو الحب الذي يحول المر حلوًا، والغضب صفاءًا، والوجع شفاءًا، الذي يلين الحديد ويشق الحجر ويبعث الروح ويعطر الحياة،

أنا لست امرأة سيئة يا يوسف!...أنا مجبرة مضطرة، أنا اخترت الخسارة الأقل والمعاناة الأقل، والصورة الاجتماعية الأفضل لابني.

## (٢٠)

(يوسف)

في اليوم التالي اِستيقظتُ على اتصال هاتفي منها تعجبت في البداية؛ لأني لم أتوقع أن تحاول الاتصال بعد ما حدث ليلة أمس وإصرارها أن أبتعد عن حياتها؛ لكن علمت أن طفلها مريض؛ وهي بالعيادة وحدها.

نظرت لساعتي وتعجبت أكثر أني غفوت معظم ساعات النهار، وأضعت على نفسي الفرصة لرؤية البحر الواسع بروعته من الغرفة التي اخترتها لتطل على هذا المشهد، استسلمت للأمر الواقع لاعنًا غبائي، ولم أتردد.

ذهبت إلى المشفى مهرولًا، يساورني سؤال أخجل من أن أطرحه عليها، لماذا أنا؟ لماذا لم تتصل بزوجها أو أبيها؟ بحثت عنها حتى وجدتها أخيرًا:

- صباح الخير يا (حور)، خيرًا!

- (أدهم) مصاب بأزمة تنفسية حادة ويحتاج لجلسة استنشاق، أعتذر أني أزعجتك؛ لكني أحتاج أحد إلى جواري.

- لا بأس، أنا معك إلى أن تعودا إلى البيت.

نظرت للطفل الصغير بجوارها، كم هو رائع الجمال، ورث جمال أمه كله، الشعر الأسود الناعم والعيون الزرقاء، يقبع ساكنًا تحت القناع

الخاص بجلسة الاستنشاق، يتعالى صدره بقوة مع كل نفس، وقد انخلع قلبي عطفًا عليه، كيف يجني الآباء على تلك الملائكة التي تقبع بين أيديهم، أشفقت عليه أن يواجه نفس مصيري؛ إما أن يفقد أمه، أو يفقد حضورها بحياته رغم تواجدها.

أبقيتها إلى جوار طفلها وانطلقت أنهي إجراءات المستشفى، وأشتري الأدوية اللازمة، وأنا أحاول كتمان ذلك التساؤل بداخلي، كنت أتأملها بين الحين والآخر؛ كيف تغير حالها بين عدة ساعات، أرى وجه فتاتي القديم وروحها البريئة تحوم قلقًا حول طفلها، تركته ليلًا وحيدًا وتسللت عنه هاربة، كيف هذا التناقض الكبير بداخلها، ولماذا لا أستطيع الغضب عليها أو احتقارها بعد كل ما رأيت.

بقيت معهما إلى أن انتهت الأزمة وأخذنا طفلها الصغير وذهبت بهما إلى منزلهما، عندما ألحت عليَّ الصعود، لم أتردد، كنت بحاجة إلى الحديث معها حقًا، شطائر سريعة وكوبين من الحليب جلسنا نتناولها حول الصبي الغافي في فراشه الصغير، أعادني ذلك إلى الأيام الخوالي، عندما كنا نجتمع ثلاثتنا حول أكواب الحليب والشطائر السيئة التي كانت تعدها لنا، والتي كنا نحبها فقط لأنها تجمعنا.

ابتسمت دون وعي وأنا أفكر بتلك الأيام:

- لماذا تضحك؟

- مازلتِ تعدين الشطائر بنفس السوء.

ضحكنا معًا ضحكة سريعة قبل أن نتوقف كلانا وقد استشعرنا الحرج، كيف نبتسم وأحمد ليس هنا معنا.

صمت يشوبه الخجل غلفنا وأنا أحاول إلهاء نفسي بمضغ الشطيرة؛ لكن عقلي كان يلح بنفس السؤال بصورة غير طبيعية وغير إرادية..

- أعتقد أني أرى أثر تساؤل على عينيك يا (يوسف).

- هل تعتقدين أنكِ تفعلين حقًا؟

- نعم، أرى حيرة في عينيك.

- أين والدك وأين زوجك يا( حُور) ، لماذا اتصلت بي أنا!

- أنا لا أتحدث مع أبي منذ سنة تقريبًا حتى في جنازة أحمد حاولت تجنبه قدر الإمكان.

- لماذا؟

- أمور كثيرة يا يوسف، لا أريد الجدال بها الآن.

- وزوجك؟

ابتسمت ساخرة:

- مسافر كالعادة لأمور العمل الهامة جدًا.

- لماذا لا تسافرين معه؟

- أسئلتك كثيرة يا يوسف، أرجوك، افهم، الخلاصة أني وحدي.

الصمت مرة أخرى، لا تريد التحدث، ولا أريد دفعها للكلام.

إلى أن غرق طفلها في نوم عميق، هممت أن أرحل، فلم يكن هناك داعيًا لبقائي، يجب أن أتركها تستريح
لكنها بادرت قائلة فجأة:

- يسرق مني شيئًا لا أدري ما كنيته، يسرق عمري، أيامي، حلمي، لا يحبني، لا يشعرني أني امرأة، لا يقترب مني، لا يقبلني باشتهاء، لا يحدثني ولا أعرف أسراره، لا يخبرني عن يومه، لا يسألني عن يومي، لا أعرف أصدقاءه ولا أعرف مكانه، عندما مات أخي لم يحتضنني، لم يخبرني أن الأمور ستكون بخير، أنه موجود هنا من أجلي، أنا أنجبت يا (يوسف) لكني لم أتزوج بعد، أحتاج إلى حبيب.

كانت تقول ذلك والعبرات تسقط ببطء شديد من عينيها ودون وعي مني اقتربت منها وأنا شديد التأثر

أمسكت يديها بين كفي وقلت لها:
- لا تحتاج كل المواقف إلى حبيب، بعضها يحتاج إلى صديق لا يخذل أو رفيق لا يوجع، قلب مفتوح لا يمل منك.
- يا يوسف! الأصدقاء كلهم رحلوا يوم رحل (أحمد).
هززت رأسي موافقًا، وأنا أكثر مَن يعرف معنى الرحيل:

- الجميع يرحل يا (حُور) وأسوأ ما في الأمر، يرحلون دون وداع.
- عندما كنت صغيرة، كنت أخاف عليكما جدًا يا يوسف، كنت أعتقد أن الذئاب ستأكلكم وتأكل كل أصدقائي ورفاقي، إلى أن علمت أن المواقف والحياة هي مَن تأكلهم.
- لكن الحياة لم تأكلني، أنا هنا جوارك وسأكون دائمًا.
قالت هامسة كمَن يرجو ألا تتحقق أمنيته:

- بل سترحل، أنا تعلمت هذا الدرس كثيرًا.

كنت أنظر إليها مسحورًا، ولا أدري أين أهرب من الغرق في زرقة عينيها وحاولت أن أتمالك نفسي وأتحدث بجدية:
- (حُور) كوني صريحة وواضحة مع نفسكِ، أنتِ أمام خيارين إما أن تصلحي حياتك أو تستغني عن زواجك؛ لكن الخيار الثالث غير مسموح لك.
- ما الخيار الثالث؟
- ما تفعلينه الآن، أنتِ تدمرين نفسكِ وحياتكِ.
- أهلي رفضوا فكرة الانفصال عندما لجأت إليهم، أنا وحدي ولا أحد يفهم ما أشعره أو يقدر موقفي وما أحتاج، أنا أخاف من شبح الطلاق، ولا أقوى على هذا القرار وحدي ولا أجد من يدعمني.

- لا أحد معكِ في الحالتين، أنت زوجة وحيدة ومطلقة وحيدة، لا تهتمي بما يراه الناس، احسمي ذلك الأمر بما ترينه أنتِ فقط.
- ماذا أفعل! أنا لا أعرف! انصحني أنتَ يا يوسف.
أجبت سؤالها بانفعال، كأني أريد زلزلتها من هذا الثبات البارد:

- لا أستطيع نصحكِ ولا أي كائن يستطيع أخذ هذا القرار بدلًا عنكِ، فكري بالأمر بتروٍ، لا أستطيع نصحك بالحل؛ لكني أنصحك بالشجاعة؛ فأيًّا كان قراركِ واجهيه بكل حسم وشجاعة، من الأكيد أن الجميع يحمل مشاكل في زواجه ومع شريكه؛ لكن هناك مشاكل تشبه نزلة البرد يمكن لمسكن قوي القضاء عليها، تؤلمنا وقتًا هينًا ثمَّ نعود من جديد، ونتعافى منها، وهناك مشاكل تشبه السرطان تتفشى في الجسد وتسممه وتذهب بالعقل وتجعلك تترنح ولا تدرك أين تقف، هذه يجب بترها وإلا دمرنا أنفسنا، أنا أخاف عليكِ حقًا، وأتمنى أن تفهمي ذلك.

نظرت إليَّ واقتربت مني أكثر بعيونها الزرقاء سماء واسعة صافية مغرقة لامعة بدمعة معلقة بين أهدابها وقالت:
- أنا أفهم ذلك، أراه في عينيكَ وأسمعه في نبرة صوتكَ.
- لا أريدكِ تعيسة.

- التعاسة ألا يحتضنك أحد، فارق كبير بين حضن يُدفئ وحضن يشيك يا (يوسف).

لم أشعر ساعتها إلا بذلك الخدر يرتفع في جسدي، تجلس جواري وأنظر إليها.. أنا مخدر تماماً أحاول تمالك نفسي وأقول بصوت خافت هامس:

- ابتعدي عنه، ابتعدي عنه ولو فترة قصيرة، بعض المواقف تكون في البعد أوضح، تخلي عن ذلك الشخص، الذي يشعرك بالوحدة؛ فشعورك بالوحدة في وجود مَن تظنين أنه قريب أصعب، من شعورك بالوحدة، كونك وحدك فعلًا.

هزت رأسها وهي موافقة على كلامي وعيوننا مصلوبة، متعلقة ببعضنا، وبالوصل الصامت الذي يلح على عقولنا، اقتربت منها.. نعم... اقتربت أكثر، اقتربت أشتهي العسل معقود بين شفتيها، أشتهي أناتها، أعماقها وقلبي يصرخ من فورة نبضاته، تسارعت الأنفاس واِشتعل الجسد، أنا أمام أجمل امرأة وقعت عليها عيناي طوال حياتي، أحمل داخلي لها عاطفة قوية، أنا أمشي على تلك الحافة الخطرة من السقوط بعمقها، كلي خوف أن أقترب وكلي خوف أن تبتعد وقلبي فقط؛ يود لو أنها سعيدة وبخير؛ لكنها ليست بخير!

أتمنـى أن أهـديها تلـك السـعادة وذلـك الحـب الـذي تمنتـه أود أن أهـديها بعض السكن ذلك الحلم القديم والرغبة المدفونة في أعمـاقي تتجسد بـين ذراعي وتشعل في عقلي كل نيران الرغبة في تذوق عذوبتها.
ارتعدت، وعيناها تنظر إليَّ، ودموعها تهوى كحبات لؤلؤ فوق وجهها الدافئ الحاني، كأنها تصوب فوهة مسدس نحوي، تعلم أن بإمكانها قتلي دون أن تطلـق رصاصـة، الحـب يولـد فـي قلوبنـا منـذ اللحظـة الأولـى، وينتظر تلك الفرصة التي يظهر فيها ويطفو للسطح ويكفي أن تنظر إليَّ بعينيها وتقترب مني لأشتم عطرها النفاذ وأتذوق دفـء أنفاسها.
تسارع أنفاسـها يلاحق نبضـات قلبـي دون أن تطلـق رصاصـة سأفارق هذه الحياة، سأكون جثة هامدة تحت قدميها، هي هنا قريبة من أحضاني إنها ترغبني كما رغبتها، تأتيني على استحياء تداعب قلبي هامسة
أنـا الآن ملـك متـوج علـى عرشـها الحـاني، زنزانـة احتضـنت سـجينين يجاهدان لتحرير مسعاهم
قلت لها بصوت هامس، وأنا أقترب أكثر وأكثر:

- إن الألم دوامة، إذا تركته يسيطر على حياتك، جرفك وإِعتصـرك، لا تلتفتي إليه، فقط عيشي هذه اللحظة واجعلي هذا كل همكِ.

نعم كل مـا سيطر علـى عقلـي "هذه اللحظـة" فقط هذه اللحظـة، كيـف نسرق من الزمن هذه اللحظة.

هممتُ باقتناص شفتيها؛ لكنني فجأة تجمدت، ابتلعت ريقي وتجمدت، سكنت كل جوارحي فجأة، كنت عاجزًا تمامًا!!

اِبتلعتُ ريقي وأنفاسي الخبيثة، كان هناك شيء ما يصدني، هناك شئ ما يشلني، ويخرس صوتي، ويلجم ذراعي، شيء لا أعلمه، لكنه يُسمم خاطري.

كيف صدتني هذه التناقضات داخل مشاعري!! ما القوة الخفية التي سيطرت عليّ وقتها؟

لا أعلم ماذا حدث لي! ما الذي بداخلي أشعرني بكل هذا العار؟ أشعرني بالخيانة، مَن أخون ؟ هل أخون صديقي الخائف على مصير أخته؟ لكني أحبها من عميق قلبي.

هل أخون زوجها؛ لكني لا أعرفه، هل أخون خوفها وحزنها وخيباتها المتتالية، هل أخون ذكرى طفولتي وحضن أمي، أم أخون طفلها البريء الراقد دون وعي إلى جوارنا، لم أفهم ما يحدث، لم أفهم شيئًا ساعتها إلا أن هناك غصة داخلية بقلبي، تخبرني أني أخون شيئًا ما بداخلي، لكني لا أعرفه!

اِنسحبتُ بمنتهى الهدوء من بين أحضانها، وضعتُ يديها الناعمتين على ابنها الصغير وعدلت عليهما الغطاء؛ وكأني لم أشعر بأي شيء، وكأنه لم تقُمْ بداخلي ألف ثورة وثورة كي أحتضنها وأطفئ لهيب نيراني؛ وكأني لم أشعر خيبتها وكأن أشياء كثيرة بادية لم تتواجد من الأساس.

تحدثت بصوت كله برود:

- تأخرالوقت ويجب أن ترتاحي، أنتِ لم تنمِ من ليلة الأمس، سأنتظر اتصالك؛ لأطمئن عليك.

ردت بخجل وهي تحاول ضبط نبرات صوتها كي لا أشعر بكل ما شعرت به فعلًا:

- لا تشغل بالك، سنكون بخير، وشكرًا كثيرًا على تعبك ووقتك.

- لا يوجد تعب، اعتبريني (أحمد)، في أي وقت سآتي إليك فورًا.

- أنت لست أخي يا (يوسف).

نظرت إليها بعطفٍ وقلبي يغالبني، نعم أدركت ذلك تمامًا في هذه اللحظة، لا داعي لتذكيري، لم أكن أخاها؛ ولا أستطيع أن أكون يومًا، لن يمكنني أن أكون مكانه، وأستأمن نفسي عليها، لن يمكنني سوى أن أحبها، بصمتٍ وغباءٍ وترقب وتوخي وحذر، أحبك! بكل غباء يا (حُور) أحبك... لكن لساني أخرج كلمات مختلفة فقلت لها:

- أعلم؛ لكني أحاول أن أكون مكانه، أحلام سعيدة يا (حُور).

رحلتُ وتركتها لابنها، رحلتُ وأنا أجر هزيمة جديدة وألمًا جديدًا وسؤالًا جديدًا خلفي لماذا الأقدار بكل هذه الحيرة؟ لماذا ما نريده دائمًا بعيدًا معرقلًا !! لماذا تهزمنا الأيام بما نتعلق به، وتحاربنا بما نرغبه لماذا أحبها؟ لماذا؟

**أتلك عيونك تسأل سؤال؟**

**تبحث تاريخًا عبر الزمان**

**يوم اِلتقيتك نبض وروح**

**ثم اِنتهيتك تطعن جروح**

**أنهكت سري بغدرٍ يفوح**

**وتأتي الآن !! كيف عيونك ترسل سلام**

**تطارد شوقي عبر المكان،**

**سقطت غصوني  بثقل الآلام**

**وسهرت جفوني تبكي الملام**

**ندمًا لحالي تعض الأنام**

**وكيف الآن؟**

**تأتي عيونك تبحث حنان**

**من أين يأتي؟**

**جفت حدائق، ماتت جِنان،**

**وما بقيَ مني بقايا كيان**

**فكيف تجرأ لقذف السهام،**

وتأتي عيونك لترسل سلام
لماذا الآن؟
أأسكن ظلامًا بعد الوضوح،
أبيع نورًا بوجعٍ ينوح،
أشري دموعًا، وأطفئ شموعًا
من أجل ظمأ يزيد القروح،
من أجل قلب يبيع الهوان،
يقتل أمان
يقصف بعمري قبل الأوان
أسقط حصوني وكل الآمال
ولا اطمئنان.......
أراكِ الآن ؛ وجع الزمان
عيونًا ووعدًا يحوي انعدام
يفتك بقلبي
اِنظر أمامك

**تجده شهيدًا**

**تجده صريعًا بين الحطام**

**وأين العزاء!!**

**ما كان كان وفات الأوان**

**لأي سلام**

**لأي امتنان**

**لانعاش روح!**

**************************

# ( ٢١ )

(يوسف)

في تلك الليلة نزلت من بيتها، والنيران توقد بقلبي جمرًا، كان تصرفي اعترافًا ضمنيًا بعشقي لها وأنا الذي ظللتُ أهرب طوال عمري من سكرة ذلك الشعور، سقطت تحت قدميها صريعًا آملًا وصلها، كيف استطعت الاستسلام، والتعثر بذلك التعلق لإنسان مرة أخرى؟ كعادة طفل صغير ساذج، يحاول أن يهرب من ذنبه، عُدتُ إلى غرفة الفندق وفتحت هاتفي أبحث عن (سارة) لماذا أبحث عنها؟ لا أدري!

كل ما أعلم أن الحديث معها غير حقيقي، وأعلم أنها لا تنتمي إلى نفس خلايا عقلي؛ إنها مجرد إلهاء.

تشتيت لمشاعري، أبحث عنه كلما ضاق بي الحال، ظاهرة لا أستطيع تفسيرها بحياتي.

لا أعرف كيف أبدأ معها الحديث؛ لكنني بحاجة أن أتحدث إلى أي إنسان، بحاجة لفض نزاعات قلبي وعقلي وشغلها بأى شيء آخر وأنا حقًا أحب طريقتها المسلية التي تحاول بها هدايتي؛ وكأنها تستطيع إقناعي أو التأثير بي بسذاجتها تلك، أود ذلك الصراع الذي يلهي أفكاري عن الغرق في بحار (حُور)؛ إنها القشة التي يتعلق بها الغريق،

أحب ذلك المجهود الذي تبذله من أجلي، أعتقد أن الفكرة تستهويني؛ لأنني بحاجة أن أجد من يبذل من أجلي أي شيء، ولو كان مجرد أفكار.

ذهبت أبحث عن أي شيء كتبته لأبدأ منه حديثًا، قلبتُ في صفحتها لأجد طرف ذلك الخيط الذي يمهد درب أسلكه إليها.....

"وغدًا عندما يأتي الميعاد، القلوب التي ذابت بنيران العشق وحدها التي تنجو"

" جلال الدين الرومي "

أي عشق هذا الذي تتحدث عنه هذه الفتاة، إن عقلها فاسد بالكامل، ساذج، غير ناضج، كتبت إليها رسالة بأول كلمات خطرت على بالي أرد به على هذا المنشور :

- كيف مَن ذاب في النيران ينجو؟

- أهلاً (يوسف)، كيف حالك؟

لم ترد على سؤالي؛ كأنها تفهم أن المقصود ليس السؤال.

- كيف حالكِ أنتِ (ياسمين)؟ ما الذي يبقيكِ يقظة إلى هذه الساعة؟

- كنت أذاكر اقتربت الامتحانات.

- هل أشغلك وقت مذاكرتك!.

- لا لقد تعبت في كل الأحوال وأحتاج إلى استراحة، هات ما عندك، أشعر أنه يوجد كلام على طرف لسانك.

صدقت الفتاة، كان لدي الكثير الذي أود أن أحكيه، الكثير والكثير حتى أني أعجز عن البدء، لكن لا أستطيع فتح مكنون قلبي وهواجسي لها، أنا لا أعرفها جيدًا في كل الأحوال، مجرد فتاة اِلتقيتها صدفة عن طريق الانترنت وبعض الأحاديث الخفيفة بدأت تجر بعضها، أريد فقط تبادل حديث غير جدي للتسرية عن نفسي.

هناك خوف وتربص بداخل صدري تجاهها، أنا لا أثق بها ولا بأسلوبها المنمق وتهذيبها المتكلف المصطنع؛ لكني لم أكف عن محاولة الحديث معها، رغم شعوري أن وراءها شيء أكبر من ذلك المظهر البريء، شيء مريب لازلت لا أعرفه؛ وكأننا على طرفي مغناطيس لا يقرب بيننا ولا يتركنا نبتعد.

- كنت فقط أتساءل عن نيرانك عزيزتي.

- أضحكتني؛ إنه أمر لا يفهمه مَن مثلك.

- وهل توجد نيران أخرى غير التي يوقدها إلهك؛ ليحرق بها مَن لا يعجبه.

- لا تتحدث عن إلهي؛ فأنت لا تعرفه.

- أعرف نرجسيته؛ أنه لو شاء لهدى الناس ولو شاء لكفر الناس؛ لكنه يحب تعذيبهم، لماذا يعذب من كتب عليه الكفر أيتها المؤمنة؟

- هل تريد إجابة حقًا؛ أم أنك فقط تريد أن تتجادل حول حقيقة أنت مسلم بها، ولن تغيرها !!

- قولي ما لديك، سأعطيك فرصة وأقرأ ما تكتبين لآخره.

- يا (يوسف) إن الله هدى الجميع لم يهدِ فقط المؤمنين.

- كيف هذا؟!

- الهداية أنواع، هناك هداية تدلك على الطريق، وهناك هداية تعينك في تجاوزه؛ أما عن هداية الطريق فلقد أرسلها الله إلى الجميع، وأخبرنا عن الطريق الواجب سلكه أما هداية المعونة فلا تفسير لها أبلغ من قوله (والذين اهتدوا زادهم هدى)، كأنك عابر سبيل لم تجد فقط مَن يرشدك بل يتطوع لأن يصطحبك إلى النهاية حتى يتأكد من أنك لن تضل خلال سيرك، اقرأ القرآن ستجد " أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى" الله هدى الجميع؛ لكنه لا يختص بزيادة هداه إلا مَن اِختار الطريق الصحيح.

- أنتِ لا تملكين إجابات إلا من كتابكِ ذاك الذي لا أؤمن به في كل الأحوال.

- حسنًا يا (يوسف) انسَ أمر القرآن وما يقوله وأجبني عن سؤالي، هل السرقة والاغتصاب والقتل شيء جيد أم سيء؟

- ماهذا السؤال العجيب!

- أجبني أرجوك

- شيء سيء؛ بالتأكيد
- حسنًا افترض أني سارقة وأسرق الكثير من الناس ولا أهتم لهم، كيف تقنعني بالمنطق أن ما أفعله شيء سيء؟
- إنها تؤذي الناس.
- وهل تعتقد أني أهتم لأمر الناس؟ أنا أهتم لأمري فقط ولا يعنيني أذية الآخرين.
- لن يحترمك المجتمع.
- لماذا يشكل الاحترام لي أهمية؟ إذا كنت سآكل وألبس وأعيش الأفضل، أعطني سببًا قويًا كي لا أسرق، هيا يا (يوسف).
- الشرطة ستقبض عليك.
- أنا شخصية كبيرة بالدولة ، الشرطة والوزراء وكل شيء تحت سيطرتي! هل يوجد سبب آخر يجعلني أرى أن السرقة سيئة يجب تركها؟
- لا أفهم إلى أين ستصلين بهذه الأسئلة!
- إذا كنت سأسرق ولا أهتم لأحد؛ فقد يكون خوفي إذا آمنت هو الرادع الوحيد للجم تلك الرغبات بداخلي، كما أنه يجب أن يجد المسروق حقه يومًا ما، إن العدالة كلها تكمن في أن تعلم أن حقك لن يضيع إذا ظلمك أحد.

دارت ببالي ساعتها كلمات (أحمد) "لو لم تتواجد عدالة بعد الموت؛ فإن هذه الحياة غير عادلة وبلا فائدة"

شخصان مختلفان ونفس المنطق، ما هذه الصدف غير المُنصفة؟ مازالت كل كلمة سمعتها منه آخر مرة تهاتف أذني وتضرب بعقلي.

- حسنًا، أيتها المتحذلقة لم أقتنع بكلامك.

- حسنًا، أيها الذكي لا تقتنع، أريدك فقط أن تفهم أن الله يخاطب الناس بقدر قلوبهم، إن قلوب الناس تختلف عن بعضها؛ كذلك خطاب الله يختلف من موضع لآخر، هناك من يهتز قلبه لحديث الحب والترغيب؛ فيخبرهم أن الله غفور رحيم، يرحب بأي عائد تائب إليه وهناك القاسي الذي لن يردعه سوى خوفه من العذاب؛ فيذكره بجهنم حتى يلتزم حده، العدل يا (يوسف) فكرة العدل تقتضي الإنصاف، ومَن يدخل جهنم؛ فإنه حصاد يده وباختياره.

- ولماذا يعذب الهندوس والمِلل الأخرى التي لا تعلم؟

- من قال إنه سيعذبهم؟ ومن قال أنهم لا يعلمون.

- أليسوا كفارًا بالنسبة لكم !

- مَن قال لك أنهم كفار وسيعذبهم الله؟ نحن لا نعلم من منهم مهتدي حقاً ومن كافر فلا تنصب من وعيك حكمًا على أمور لا تفهمها.

(لا يجوز أن تبني من وعيك الشخصي الذاتي قناعة وحكمًا تدين بها الناس، وتحكم بها على أشياء لا تعرفها، اِقرأ، تعلم، اِسألْ)

قالها لي أحمد يومًا، من أين يأتي هؤلاء الناس بتلك الأفكار الغريبة!

أعادتني إلى وعيي برسالة جديدة كتبتها:

- لا يجوز أن نضع بين أيدينا مفاتيح الجنة والنار ونحكم على الناس بدلًا من الله، ولا تعتقد أنك تدبر الأمر كإله؛ اِجتمع به العدل والرحمة معًا، نحن لا نعلم ولن نعلم ما مصير المِلل الأخرى، ومَن منهم كافر، ومَن منهم مؤمن، نحن لا ندري الكثير يا يوسف عن بواطن الناس، لا تستكثر أي شيء على رحمة الله وعدله.

- لا أرى أي عدل أو رحمة يا (ياسمين)!

- أنت فقط لا تريد أن ترى، إن لم تستطع فتح قلبك، أفتح عقلك، اِقرأ وتعلم، واجه أفكارك من المنطق الذي يناسبك.

- منطقي ينفر من دينكم وإلهكم وأفكاركم.

- هل تعرف ما المشكلة هنا!.

- ؟؟؟؟

- نحن ننفر من بعضنا؛ فلا نقترب ونرى الصور الصحيحة للأمور.

- ألا ترين أن الأمور في دينكم منفرة جدًا، عذاب ونيران وجهنم!!

- لن أعترض على كلامك من جهة أراها أنا عن نفسي منفرة، نحن ننفر بعضنا البعض من الدين، نحث الأطفال للصلاة بقول أنكم ستعذبون في جهنم إذا لم تفعلوا؛ ثمَّ نعود نحدثهم عن عذاب القبر والثعبان الضخم الذي سيلتهمهم، رغم أن أحدهم لا يملك الدليل على

صحة كل ذلك، نُصَدِر لهم فكرة إله جبار غليظ يحب السادية والتعذيب، نغفل الحقيقة الوحيدة المؤكدة هنا، التي نراها بكل الأدلة، رحمة الله سبقت عذابه، نحن نحتاج إلى الصلاة كي نتقرب إلى الله الرحيم الغفور؛ لأننا نحتاج ذلك الحب المتبادل من وجود الله جوارك وبحياتك في كل لحظة تمر بها، نحن مَن يحتاج هذه الصلاة يا (يوسف)، والله غني عنَّا وعن صلاتنا وعن تعذيبنا، نحن نصدر أفكارًا غير حقيقية وصور منفرة غير منطقية عن ديننا وإلهنا.

هز فكري كلماتها؛ ليس لاقتناعي بها ولكن لقناعتها هي القوية وإيمانها بفكرتها التي تجعلها على استعداد كامل لقلب الحقائق وتزييفها.

- يعجبني إصرارك على فكرتك، لكني لم أقتنع.

- لا أريد إقناعك، لا أهتم.

- يا عزيزتي إن كل حديثك هو محاولات بائسة حتى أؤمن بدينك.

- أنا لا أهتم إن آمنت أم ألحدت، إنها حريتك وحياتك.

- لا أصدقك!.

- سأستمحيك عذرًا، أنا متعبة وأحتاج أن أنام، السلام عليكم.

اِنتابني نفس ذلك الشعور باللذة؛ الذي يجتاحني كل مرة، أثقلت عليها وأتعبتها دون أن أعطيها هذه الفائدة التي تمنت، واِضطرت للهرب والخروج من الحديث معي كالعادة.

- حسنًا تصبحين على خير.

- في رعاية الله (يوسف).

أي رعاية هذه التي تتحدث عنها !! ساذجة،

فأنا في غنى عن رعاية إلهك،

أنا في غنى عن إلهك.

## ( ٢٢ )

(صفاء)

تدق الذكريات باب عقلي بمنتهى القوة، ولا تستطيع الهاءه وجوه المارة بالطريق جواري ، ولا واجهات المحلات و السيارات المارة بأصواتها المزعجة ، هذا ما يحدث بكل مرة أسير وحدي، تتفاقم الأفكار وتطاردني ذكريات الماضي،...

باءت كل محاولاتي الباهتة للاقتراب منه بالفشل الذريع، مزاج صعب في كل شيء في اللباس والطعام والألوان بل وفي أسماء الأولاد، لا يرضى إلا بما يوافق ذوقه؛ ولأن ذوقه صعب فلا تجد ما يوافقه، الملح قليل في الطعام ثمَّ يتذمر لأنه كثير، الشاي حلو والفنجان التالي مر؛ حتى لون قماش ثوبي، يضطهده ويزدريه.

بخيل الكلام، بخيل العواطف والإحساس والإحسان، منان حتى دون أن يعطى، وإذا أعطى يعود بالمن والأذى عليَّ، ودائمًا يذكرني أنه من قبل الزواج بي رغم أني أذكر تمامًا أنه من جاء بيتنا وطلب الزواج مني، لا يعطي فرصة لي للفرح، للإحساس ببعض البهجة في هذا السجن بجواره.

غاضب باستمرار، لا أدري لماذا يحمل كل هذا الغضب داخله، يلقي في قلبي الرعب إذا وقفت بوجهه، ويدمر البيت وما تقترب منه يده إذا عارضته، أخاف كثيرًا أن يصل به الغضب للاعتداء عليَّ وضربي.

إلى جواره أنا دائمًا خائفة، خائفة من شيء ما ولا أدريه؛ لكنني لم أستسلم إلا بعد وقت طويل، كنت دائمًا أحمل بداخلي الأمل أن يقترب، أن يأتيني يومًا ليس كزوج وسيد بل كحبيب، كصديق، كرفيق، لكن هذا اليوم الذي حلمت به لم يأتِ يومًا.

ظلَّ على حاله لا يتغير مستبد في كلمته وفي قراره، وأنا كنت أريد أن أُعطى حق الاختيار أحيانًا، أحتاج للشعور أني موجودة وأنه يراني، أني كيان حقيقي، أني لست مجرد شبح.

أصبحت أنظر إليه طوال الوقت الذي يقضيه في البيت، واتعجب من هذا الغريب ببيتي، هل تزوجت، متى تزوجت، ومَن هذا!.

قل شيئًا، لا تقف هناك وتقول لا شيء، قل لي أنك لا تريدني، قل لي أن أرحل، قل شيئًا أرجوك، كان هذا الصوت داخلي يطاردني طوال فترات بقائه القصيرة بالمنزل؛ ثمَّ بدأت أشك أن الأمر أكبر من محاولاتي هذه، وبدأ شعور يتسرب داخلي لعلي لا أريد الاقتراب منه، لعلي لا أحب الاقتراب منه مرة أخرى، لعلي أريد أن أبتعد، وأبتعد وأتقوقع داخل نفسي في أحلامي البعيدة، كنت هنا بجسدي لكنني لست هنا حقًا، لا أشعر كثيرًا بالواقع وما يحدث حولي، روحي منفصلة

تمامًا، أتمشى على الشاطئ، أغوص أعماق البحار، أجلس بالظل تحت النخيل ونسمات الهواء الباردة المنعشة تضرب وجهي وتعبث بخصلات شعري، كل ذلك وأنا على فراشي بين وسائدي، أسمع أحيانًا صراخ أطفال صغار، يخرجني من نشوتي للحظات، ثمَّ أعود أضع رأسي على وسادتي وأخوض معارك ذلك الحلم اللذيذ.

أرى شبحًا لشخص يحبني، أتأبط ذراعه، أتدفأ بصدره، يشتاقني، يشتاق اِحتضاني، يخاف عليّ، أتحدث إليه وأكتب له خطاباتي، أرى كل ما حرمت منه في حياتي أحلامًا مجدولة، وأحداثًا تشاغل بالي طوال النهار الذي لا أستيقظ به كثيرًا.

كنا نتجادل ونتناقش بحدة وأصرخ به أحيانًا من شدة غضبي عليه، ومهما اِحتد بيننا النقاش، كانت كلمة واحدة تنهيه، "أنا أحبك"، لها تأثير السحر، تُخرسني، ثمَّ أخجل منه وأقول بكل اِستسلام: " أعدك أن هذا لن يتكرر مرة أخرى! ".

علاقتنا مليئة بالقرارات، أين نأكل، أين نسافر، كيف نقضي الأجازة، وأي مدرسة سنختار للأطفال.

كنت أستيقظ أحيانًا وأعود لرشدي؛ فتساورني نفسي بكل أنواع الشكوك، أين الواقع وأين الخيال؟

لعلي بكابوس أستيقظ منه حين أرقد على وسادتي لاستيقظ على الواقع الحقيقي بحياتي أو لعلي مخطئة وهذا العذاب كله هو الواقع.

لمَ أنـا، لمـاذا اِخترتنـي لتعذبني يـا الله؟ لمـاذا أنـام ودمـوعي علـى خدي بسبب غريب لا أدري من أقحمه بحياتي، لماذا تذبحني لحظة الجرح هذه؟ لماذا أنا مَن يتألم؟ لماذا أستحق هذا العقاب!!

أعـود لأغفـو؛ ثـمَّ أعـود لمحاولـة الاسـتيقاظ، فأمسـك قلمـي وأوراقـي وأكتب، وكل ما يدور ببـالي، لمـاذا أنـا؟ لمـاذا أنـا يـا الله؟ والآن بعد أن اِستيقظت من غيابة هذا الجب الذي رماني داخلـه، قد حرمنـي من أهم شيء بحياتي، اِختطفَ روحي وسرق كياني، بكل برود، بكل جبروت طعن سكينه البارد بقلبي، وأخرجنـي من حياتـه دون سـابق إنـذار، ولـم يحنُ قلبه القاسي وأنـا أعـاني وحدي، وأنـا أمرض من قسوته وأرتمـي بين أسِرة المستشفيات.

من أين يأتي الناس بكل قسوة القلوب هذه! هل يعطف يومًا ويعيد لـي روحي الذي حرمني منها ؟

هل يعود الغائب يومًا !!

*****************

## ( ٢٣ )

(يوسف)

عندما استيقظت، لم أدرِ متى نمت، كيف نمت، نوم هادئ كالأطفال، هل هذه الفتاة ساحرة أم مشعوذة من نوع ما!! فتحت عيوني فقفزت بعقلي كل تفاصيل البارحة، ولامني جسدي الناعس، لا يجوز أن أبقى في فراشي ألعن حظي، يجب عليَّ النهوض وتنظيف عقلي من هذه الأوهام.

طلبت فنجان قهوة وخرجت أرتشفه بالشرفة أنظر إلى البحر وشوارع الإسكندرية الجميلة الرائعة، يبدو أنها أمطرت في الليل ولم أشعر، كل الشوراع والبيوت كأنها غسلت وتطهرت؛ كأنها تعلن البراءة من إثمي. (حُور) كانت خير مثال لذلك المفهوم الجديد عن الحياة الذي بدأت باكتشافه، نفس الاستنتاج أعود إليه

هل بداخل كل إنسان شخصان يتصارعان! هل بداخلنا قوتان تعملان ضد بعضهما، حين يتحتم عليه الاختيار في محنته، يكون هناك دائمًا فائز.

هل هي تختار حقًا بين هذا الخير وهذا الشر القابع بداخلها أم أنه طريق لا محالة أن تسير بداخله.!!

هل هي مخيرة أم مسيرة، نفس السؤال أعود إليه، هل هذا هو الكبر الذي يتحدث عنه كتابهم هو من يدفعها من داخلها؛ أم أن هناك دفع من يد خفية من الخارج، لتكون لها الأولوية فوق الجميع وتتجاهل كل ما عداها؛ حتى طفلها، ها أنا أدور وأنتهي عند نفس الحلقات المفرغة، نفس التساؤل هل أصل كل الشر بالكون "الكبر"؟ مرة أخرى ذلك الألم يفتك برأسي.

الهواء المنعش، لون البحر، وروعة السماء يزينها ضوء خافت يتسلل بين الغيوم، ورائحة الهواء كانت محاولات باهتة للتسرية عن نفسي.

أنا لا أفكر إلا ب (حُور)، أين أذهب الآن فقد جئت من أجل (حُور)؛ لكني أخشى لقاءها، يجب أن أعطيها وأعطي نفسي فرصة لالتقاط أنفاسنا.

لا أملك ذلك النشاط الذي يؤهلني للسفر كل هذه المسافة مرة أخرى لذا اتخذت قراري بالبقاء بضع ساعات في الفندق للراحة قبل أن أقود سيارتي وأعود إلى القاهرة خاصة بعد كلامي مع (ياسمين) الذي أشعل داخلي ذلك الحماس؛ لأثبت لها كم هي غبية ومضلة، اِشتعلت بداخلي الحماسة مرة أخرى لإكمال معركتي، ومعاودة البحث داخل ذلك الكتاب الذي أحمله معي.

حان الأوان لأن أفرغ بعض الوقت لخوض باقي التحدي، إن الكتاب طويل وأنا مازلت أقف عند نفس الآيات بنفس الصفحة، هل سأستهلك

عمري كله لمحاولة إنهائه، عليَّ أن أسرع قليلًا في القراءة؛ لكن الكلمات تستوقفني وتشدني وتمهلني كي أتأملها مرة ومرتين وألف.

كان دائمًا هناك هذا الشعور أن أمرًا ما سيفوتني؛ لو تعجلت ويجب أن أقف قليلًا وأحاول اكتشافه .

مشيت خطوات إلى مكان شنطة سفري، وأخرجت ذلك الكتاب منها، ذلك الكتاب الذي لم أتخيل يومًا أن يتواجد معي في أي مكان، أصبحت أصطحبه معي إلى كل مكان، جلستُ بالشرفة وأنا أحاول أن أهدئ حالي وأفرغ بالي، وفتحته عند نفس الكلمات التي توقفت عندها آخر مرة:

"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ".

السجود لِمَ اِختار هذا الكاتب السجود! السجود يعني الخضوع، يعني أن أحدًا له أسبقية وأفضلية على الآخر، هل يعني أن الإنسان هذا الكائن الشرير؛ له أفضلية على ملائكة لا تخطئ ولا تعصي !! هل الإنسان تغلب على تلك المخلوقات النورانية بكل أنانية قلبه وسواد أفعاله وشيطانية أفكاره!!

لماذا؟ السجود لا يصح مع تلك المعادلة المقلوبة، هل هذا السجود يعني أن الملائكة ستخدم الإنسان وتكون تحت إمرته؟ والشيطان! ما دور الشيطان؟

هنا في هذه الرواية كفر وعصي واِستكبر ورفض أن يكون الإنسان أفضل منه، لماذا يتواجد في هذه الرواية؟ لماذا لم يتجاهله الراوي في الرواية، ولم يذكر وجوده ويحرج نفسه مع موقفه المغاير لمشيئته؟

أو لعلها مشيئته، لعله مُسير هو الآخر، فكيف يخدم الإنسان وهو رافض للخضوع له! وهو يملك ذلك الكبر الذي يجعله يرفض أن يخضع !!

أرى دائمًا أن سبب الشر الرئيسي في الحياة المال والسلطة؛ لكن هذا الكتاب يريد أن يخبرني بكل إصرار؛ أن أصل كل هذا الشر القابع بالعالم هو(الكِبْر)، هل أنا مَن يصل إلى هذه الاستنتاجات بنفسي أم أنه يسيرني إليها بإرداتي! ما هو الكِبْر حقاً !! أن تضع نفسك فوق الجميع، وتتجاهل حقوقهم وقيمهم الحقيقية؟ تكون لكَ أولوية فوق الجميع، وتتجاهل ما عداها !! رفض الشيطان الإيمان لكِبره وحسده آدم فكان أصل الشرور!!

هل هذا كلام منطقي؟ هل هذا أنا مَن يفكر؟ كلما هممتُ بفتح هذا الكتاب والتفكير في المعنى الذي يريده هذا الكاتب تألم عقلي من توجيه الأفكار إلى مناطق أخرى وتقتحمني البلبلة والتساؤلات وتقضي علي بل تتغير كل تساؤلاتي إلى اتجاهات أخرى وتقفز مني استنتاجات جديدة مثيرة للجدل، ومتغيرة المغزى والمعنى.

حسنًا إنهما قوتان متضادتان الملائكة خيرة والشياطين سيئة والإنسان يملك القدرتين ويقف بينهما لا يميل إلى أي كفة، لا يوجد إنسان ملاك، ولا إنسان شيطان بالكامل؛ جميعنا نملك القطع ذاتها من بعض الخير وبعض الشر، وكأنما الإنسان يحمل ملاكًا وشيطانًا بداخله يتصارعان على مصيره.

هل الإنسان في هذه الحياة يعاني صراعًا دائمًا مع كبره؟ هل هذا ما يريد إخباري به؟

أن القوتين تتصارعان بداخلنا؛ وأنهما ضروريتان، أنهما عاملان رئيسيان ليكون الإنسان إنسانًا؛ ليستطيع قلبه قبول الخيارات التي تتمثل أمامه في حياته ليستطيع مواكبة الحياة وتقبل تغيراتها.

هل كل ذلك حتى يستطيع الاختيار؟ هل الكاتب يريد أن يخبرني بكل إصرار أن الإنسان مُخير!

يتحتم عليه الاختيار بين هذا الخير وهذا الشر القابع بداخله، أعتقد أن الرسالة قد وصلتني، لكني لا أستطيع تقبلها، لا أصدق هذا ولا يمكنني أن اقتنع به، أحاول أن أكون محايدًا هنا؛ لكن ليس لدرجة تقمص أفكاره، كل إنسان يملك الجزء السيء والخير، ولا يوجد إنسان كامل كانت هذه فكرة بديهية لا تحتاج لكل هذه الرواية، الجميع يصارع طوال حياته، يخطئ ويصيب، ويخطئ ويصيب، لكن مَن يستطيع الجزم أن الصواب صواب، وأن الخطأ خطأ؟ أين الصحيح والخطأ بين

هذا التباين القوي بين الأعراف والشعوب! حتى يتعلم الإنسان ويفهم ويستطيع الاختيار! مَن يستطيع الجزم حين تتكرر الخيارات والابتلاءات وتتكرر! حتى يصل الإنسان إلى كامل نمو عقله وقلبه أو هكذا قد يتخيل؛ أنه نضج في حين أنه سقط دون أن تفوز إحدى الكفتين على الأخرى.

هذا هو الواقع أمامي في حين يريد الكاتب أن يصور لي هذه الابتلاءات كاختبارت الجامعة والعمل، يجب أن تخوضها بنجاح لترتقي إلى الدرجة الأعلى، وكل هذا باختيارنا نحن لكن ما هو النجاح والفلاح الحقيقي! يا لغبائي! ويا لعقلي! كم أكره هذا الشعور، كلما هممتُ لهزيمته، قذف داخلي معنى آخر تغافلت عنه، كأنه مَن يقرأني ولست أنا مَن يقرأه، كأنه ساحر من الجن يسكن داخلي

يا لقدري! هل أتحداه أم أتحدى نفسي! هل أهزمه أم أهزم نفسي بنفسي! إن المعنى النهائي والنتيجة النهائية لمجرد بضع سطور قليلة أن الإنسان كائن متعلم له عقل، كائن مكرم، كائن أخلاقي، ذكي وهو أسير لكل تلك المؤثرات من حوله، حسنًا لقد اِكتفيت هنا أنا اِكتفيت.

جاءت ببالي (ياسمين) كالعادة، لا أدري لمَ هي؟، ذهبت إلى صفحتها بالفيس بوك لا إراديًا، أبحث عن الإلهاء من آلام رأسي وروحي المتواصلة كالعادة.

بدأت بقراءة كتاباتها القديمة واحدة واحدة حتى وصلت لهذه الكلمات:

"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"
إن روح الله هي الضمير، هي الأخلاق التي تتصارع بداخل النفس، الفخر، الكِبر، الحسد هي أصل كل الشرور

قرأت كلماتها، وأعدت تأملها، ولم أستطع أن أمنع نفسي من السخرية منها في داخلي، قادتني دواخلي دون إرادة في هذه اللحظة للمقارنة بين الفتاتين (ياسمين) و(حُور).

كانت الفتاة صغيرة تبدو بريئة رقيقة ساذجة مثلما كانت (حور) يومًا ما قبل أن تغدر بها الأيام وتغربلها يمينًا ويسارًا وتضعها في الابتلاءات والاختيارات، هل ستظل (سارة) تحتفظ بتلك السذاجة عندما تعتصرها الأيام كما فعلت لحُور، هل يمكن أن تنجو ولا تصل لنفس المصير! أم ستسقط خلال اعتقادها أنها تنضج وتفهم الحياة.

هل الإنسان مسير أم مخير في مصيره !! هذا السؤال يلح ويلح ويصر على الإلحاح بعقلي.

لم أتمالك نفسي حقًا أردت أن أتناقش معها، صرت أتعاطف معها حقًا، وأريد إيقاظها من غفلة تلك الأوهام التي تحياها، أتمنى ترتيب أفكارها المزعومة ، كتبت لها رداً كعادة تلك الأيام الأخيرة :

-بما أنكِ واثقة تمام الثقة من دقة استنتاجك، هل يمكنكِ إخباري عن رحلة الحياة التي يبدأها الجميع، عندما تكون روح الله بداخلنا ثمَّ لا ندري هل نحن مسيرون أم مخيرون بهذه الرحلة!.

كتبت كلماتي ونهضت لأطلب فنجان قهوة آخر، وكلي فضول لقراءة ردها؛ فكنت أفتح هاتفي كل دقيقة لأرى هل ردت أم لا!! كنت أخشى أن تكون قد اِكتفت من الجدل ولا تريد التحدث إليَّ مرة أخرى، كنت أخشى عليها أن تقرر التقوقع داخل تلك الأسوار التي تعتقد أنها تحميها.

اِنتظرتُ فترة ليست بقصيرة قبل أن يأتيني ردها:

- عزيزي (يوسف) الحياة رحلة بدأها الجميع، رحلة للإنسان بدأت بالجنة وتنتهي للجنة، هل نحن مخيرون أو مسيرون أو الاثنان معًا؛ هذا أمر شديد التعقيد لا يفهمه الكثير، لكن دعني أؤكد لكَ؛ أنك مخير تحت مشيئة الله الذي لا يضعك تحت مصير يصعب عليك تحمله أو اختباره، أنت توضع في اختبارات تليق

بفطرتك وقلبك وعقلك ،فلن تصعد لمستوى اختبار أنت لا تستطيع تجاوزه .

بعدها بلحظات جائتنى رسالة أخرى منها ، كأن الأمر أثار عقلها وفضول أفكارها لأقصي درجة ، لا تريد ترك فراغ دون رد كامل ، كتبت لي :

- الحياة رحلة مليئة بالعمل والجهاد والشقاء والوجع، طريق وصول ليس سهلًا ولا سريعًا ولا طرق مختصرة له ولا ادعاءات به، طريق يعبره ويشعر به قلبك أكثر مما يفعل جسدك؛ لذلك الأقرب لله لا تراه عيناك؛ بل يشعر به قلبك.

حسنًا آثار إعجابي سرعتها ولباقتها في الرد كالعادة، هل هي عبقرية، أم أن هناك مَن يلقنها ويساعدها في ضخ أفكارها تلك! كيف تكون تلك الصغيرة بكل هذا الترتيب واللباقة والمنطق في الحديث؛ حتى إن كان منطقًا مغلوطـًا، فهي صغيرة على تكوينه!

- أتعجب من ثقتكِ العالية وهذا الأثر الإيجابي الذي تكتبه كلماتكِ، من أين أتتكِ كل هذه الثقة أنكِ على صواب!
- هل ستكون قدري ليلًاو نهارًا؟
- هل حياتك مشغولة جدًا لدرجة لا تتحمل ثرثرة الآخرين؟
- أشعر لهجة سخرية من كلامك رغم أني لا أراك.
- أنتِ شديدة الإيمان بنفسكِ كما بعقيدتكِ.
- دعني أخبرك أمرًا لا فكرة ولا مضمون استطاع أن يحدث هذا الأثر الإيجابي في نفس الإنسان كالإيمان.
- حقًا؟

- سخرية للمرة الثانية! إنه تسليم بلا شروط ولا براهين، هو خروج من محاولات الفهم والبحث والتنقيب والاقتناع، إلى الروحانيات والاستمتاع والاستماع لصوت القلب.

- وماذا أخبرك صوت قلبك أيها الطفلة الصغيرة ؟

- لو كان كل ما حولنا يبرهن ويثبت ويؤكد وجود الله بشكل قاطع، لو كان عقلك الصغير يملك تلك القدرة على استعاب ماهيته وكينونته وما يحدث في هذا الكون الشاسع من حولك، ما كانت للحياة قيمتها الحالية، كان سيؤمن الجميع بكل اقتناع، كانت ستضيع طعم حلاوة الإيمان، تلك التي يرشدك لها صوت قلبك وإحساسك وعاطفتك وبعض الدلائل التي توضع في طريقك لتؤكد لك أن هناك من يجبر قلبك وخاطرك.

- هل تصدقين كلامكِ، مَن هذا الذي يجبر قلبكِ وخاطركِ؟

- أنا أعلم أن هناك مَن يستشعر ألمي، أن هناك خالق كريم قريب مني رغم بعد السماء، يسمع أناتي وهمساتي وهمهمتي وصوتي، إنها حلاوة شعور تجعلك تسلم له وتطيع أوامره دون الحاجة لرؤيته بعين اليقين، دون الحاجة إلى إثبات وإقناع، ودون الحاجة إلى إجابات أسئلة طاف واِحتار بها بعض الذين لا يؤمنون.

- أنت ساذجة وكلامكِ منافي للمنطق، حسنًا هل يستطيع ذلك الإيمان بداخلك أن يخبرني مَن خلق هذا الإله؟

- إنه سؤال فاسد

- بل أنتِ لا تعرفين، لا تملكين الإجابات كما تدعين أمام الناس يا (ياسمين) .

- بل أنتَ مجادل، إن الله يُستدل به ولا يُستدل عليه، الله يبرهن على وجود الذي خلقه ولا يجوز أن تتخذ من الوجود برهانًا على وجوده.

- لا أفهم، أنتِ تفسرين الألغاز بالألغاز.

- أعلم أنك لا ولن تفهم، السؤال فاسد لأنك تخضع الخالق لنفس قانون الخلق، فأنتَ إذا صنعت عروسة تتحرك بالخيوط لا يجوز لها أن تتساءل كيف تتحرك أنتَ بلا خيوط؛ لأنك لا تخضع معها لنفس القوانين، فوجود الأسباب قانون البشر، السببية قانون لنا نحن الأشخاص المقيدين بالزمان والمكان، والذي خلق الزمان والمكان لا يجوز أن نحكم عليه به أو نقيده بقوانين الزمان والمكان والسببية، فكر بعقلك قليلًا.

شعرت أني بدأت أخرجها عن شعورها وسيظهر الوجه الآخر للعملة التي تدعي كل تلك المثالية، قررت أن أزيد عليها وأحيطها بالعديد من التساؤلات؛ حتى تفرغ كل حججها وأسبابها، وتعترف أن هناك في هذا العمق السحيق من قلبها ذلك السؤال الذي لم تعرف إجابته بعد ويثير داخلها الفضول والشك فقلت:

- أيتها الفيلسوفة الصغيرة، لماذا خلق الله الشر؟

- لست فيلسوفة ولا صغيرة، وأرجوك لا تتحاور إن لم تستطع احترام حدود الحوار ومَن يحاورك.

- هل ستهربين كالعادة؟

- أعتذر عن عدم قدرتي لإكمال الحديث معك الآن فلديّ محاضرات.

- لكني مُصِر أن للحديث بقية.

- لا يا (يوسف)! انتهى وعليك أن تبحث إجابات أسئلتك بنفسك الآن، عليك أن تسعى للمعرفة بكل حياد، ساعدتك بما فيه الكفاية، فقط أريد أن ألفت نظرك لشيء هام قد تتغافل عنه، عندما تتساءل عن الشرعليك أن تكون مدركًا أن الشر في الدنيا هو الاستثناء، وأن الخير هو القاعدة؛ فالصحة هي القاعدة والمرض استثناء، والأشياء لا تتميز ولا تبرز معانيها إلا بمضاداتها، فكيف تقدر صحتك إذا لم تتذوق مرة طعم المرض.

- حسنًا أعتذر عن الإطالة وشكرًا لوقتك، أتمنى أن نكمل الحديث قريبًا.

- إن أردت حقًا أن تكمل حديثك وتسمع أكثر مني أعطِ لنفسك فرصة حيادية، وجه عقلك للبحث عن فكرة أكثر إيجابية وسط ضوضاء الحياة، فقد أصبحنا جميعًا نعاني، كلنا ندور بسرعات متفاوتة في نفس

الدائرة من الإحباطات لست وحدك مَن عانى من الحياة، توقف قليلًا واِلتقط أنفاسك، اقرأ وتعلم.

- حسنًا، أعدك أن أحاول.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- الوداع.

رغم أني استشعرت غضبها، فقد كنت سعيدًا منتشيًا جدًا بذلك الحديث القصير الذي سرقته منها خلسة، والذي اِستطعت به أن أستثير عقلها كالعادة حد الغضب، لا أدري لمَ يعجبني الحديث معها، وأنا أكره هذا النموذج من البشر الذي يدعي أمورًا لا يفهمها، أخذت أنظر إلى الشاشة وأبتسم، يبدو أنها المغامرة، يبدو أني وضعت يدي على أهم طريق يصل بي، قريبًا سأثبت أنكم جميعًا كاذبون ولا تعرفون الحقيقة، جميعكم تتعلقون بأوهام لتتحملوا بطش وظلم الحياة.

وضعت هاتفي جواري ورغم فنجان القهوة الذي شربت، فقد شعرت بغلبة النعاس وأنا أجلس بجوار هواء البحر منذ بضعة ساعات مرت سريعًا دون أن أشعر، وضعت الكتاب جواري وأخذت قيلولة سريعة حتى أستطيع السفر إلى القاهرة، وضعت رأسي على الوسادة وتسللت إلى نوم هادئ مريح.

**************

## ( ٢٤ )

(صفاء)

عندما دخلت المكتبة، تهلل وجه أستاذ(طه) الذي لايراني، عدت إلى منزلهم، نعم عدت، لم تستطع خطاي التوجه إلى أي مكان آخر، أنا أجد نفسي هنا، كان قراري أن أرحل قبل أن يصل د/ (إبراهيم)، لم أعرف كيف أخبره أن الزواج ليس من الاختيارات المتاحة لي الآن دون أن أخسره، كيف أخبره؟

قررت البقاء قليلًا، والرحيل قبل موعد عودته، نعم سأرحل فأنا لا أقوى على مواجهته.

في ذلك اليوم لم أقرأ شيئًا، في ذلك اليوم كانت رغبة أستاذ (طه) أن أتكلم فقط، يريد أن يعلم ما يؤرق بالي ويساعدني، يحاول إيجاد الحل معي، وقد تحدثت معه عن هذه التفاصيل من حياتي التي تؤرقني، لم أجد مَن هو أكثر راحة منه لألقي لديه همومي كلها.

تحدث إليه.....

تحدث حديث طويل محمل بكل ما أعاني...

رميت بكل حمولي وسردت له تفاصيل قصتي كلها دون تجميل...

تحدث وتحدث....

إلى أن هدأ صدري ونفضت عنه كل همومه....

كم اِرتحتُ للحديث معه وبدأ الانشراح يدخل إلى قلبي وبعض السكينة تقتحمه؛ لكن كل ذلك تبدد عند دخول (إبراهيم)، ما الذي أتى به باكرًا، فشلت الآن خطتي للهرب منه، كان يقترب إلينا بطيء الخطى مهمومًا، كأن السماء قد سقطت على كاهليه، هل أرى بعينه آثار بكاء؟ أم أني واهمة!

هل حدث لابنته (ياسمين) مكروهًا ما؟ هل أسأله؟ هل أتحدث معه؟ رمى جسده على أحد المقاعد بالمكتبة وزفر زفيرًا طويلًا، ثمَّ صمت لم أتمالك نفسي، رغم أني كنت مُصِرة على عدم الحديث معه الآن:

- هل حدث شيء ما د/(إبراهيم)؟

هز رأسه بالإيجاب ولم يجب...

- إبراهيم! ماذا حدث يا بني! لماذا أنت صامت؟
- لا شيء أبي.
- صوتك لا يعجبني.
- أريد التحدث مع صفاء قليلًا.
- حسنًا سأذهب وأترككما تناقشا مشاريعكما.
- لا داعي أبي ليس بالأمر أسرار.

كان د/ (إبراهيم) مُصِرًا على بقاء أبيه، في حين أصر أستاذ (طه) على الرحيل، ما الذي يحدث هنا يا ترى! توجه إليَّ بالحديث، وأنا أود أن

تنشق الأرض وتبتلعني فلا أعرف كيف أرد طلبه بطريقة لا تجعله يكرهني، كيف أقولها له دون أن أجرحه، كم تمنيت ألا أواجه ذلك الموقف.

- صفاء

- نعم

- هل يمكنني أن أخبرك أمرًا وتعديني أن تكوني شجاعة.

أي أمر هذا، لم يكن يظهر عليه تلك النظرة التي توحي بأنه يعرض عليَّ الزواج، كان وجهه جادًا، كان وجه الطبيب (إبراهيم) وليس ذلك الرجل الذي طلب مني الزواج هذا الصباح.

- أقلقتني.

- عديني.

- سأحاول.

- هل تعرفين، وأنا في طريقي إلى البيت، رتبت الكلام بداخل عقلي أكثر من مائة مرة، والآن لا أدري كيف أقول ذلك.

-خيرًا؟

كانت عينه تلمع، كمن يحبس بداخلها دموعه، إن دموعه تخشى أن تتحرر، إن الأمر جاد، صمته طال، ولا يرد.

- خيرًا يا د/(إبراهيم)!

مازال صامتًا ينظر إليَّ تارة وإلى الأرض تارة، حائر، تائه، هل تخونه كلماته ويخونه التعبير، استمعت شجاعتي لأمده الشجاعة قائلة :

- هل تعرف أقصر الطرق هو الخط المستقيم، ماذا حدث؟ هل للأمر علاقة بالفحوصات التي أجريتها اليوم؟

هز رأسه مرة أخرى، وسقط قلبي بين قدمي....

- هل الأمر بهذا السوء د /(إبراهيم) ؟

مازال صامتا وأنا أستجديه :

- أنا أنتظر أن تتحدث، أحتاج أن أسمعك؛ فلا تطيل صمتك.

- حسنًا، لقد عرفت اليوم تفسير ذلك الوزن الذي تفقديه بسرعة، واللبن الذي لم يجف والصداع الدائم وتلك النشوة التي اِعترتك تجاه نفسك في الأيام الأخيرة.

- أكمل، أسعك.

## (٢٥)

(يوسف)

عُدتُ إلى القاهرة وقررتُ العكوف على ذلك الكتاب الذي بيدي، قررتُ أن يكون مشروع حياتي، اِعتزلت العمل واِعتزلت الناس والأصدقاء؛ حتى أبي لم أعد أراه بالبيت ولا أعلم متى يرحل ومتى يعود، كنتُ جالسًا بغرفتي ألملم وجعي وشوقي كلما تذكرت (حُور) وأشد على نفسي بقوة حماسية جبارة لأنهي ما بدأت كلما تذكرت (ياسمين)

"وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"

تشوشت قليلًا من ذلك الكاتب، ومن العودة إلى نفس القصة الأولى، وكنت أظنه منهمكًا في محاولة بث رسالته، أعدتُ قراءة الكلمات فلاحظت أنها كلمات عادية، لا تحمل أي تهديد أو أي نوع من الخوف. كأنه اِختار أي شجرة، مجرد شجرة بلا أي شيء مميز بها، لا هي شجرة الخلد، ولا هي شجرة لملك لا يفنى كما أخبرهما الشيطان، فقط كَمن دخل حديقته وأشار إلى أول شجرة عادية قابلته وقال ابتعدوا عن هذه

لا أدري لـمَ أشـعر بـالرضـا !! فقد كنـتُ أتوقـع الغضـب والقـوة والعنـف والتهديد عند إلقاء هذه العبارة، كنـت أتوقـع أن أرى أمـرًا لكنـي رأيـتُ صورة لمجرد جملة عابرة بلا كل هذه الأهمية، ثمَّ عدت أبحث ثانية فلم أجد الغضب أو الثورة عندما أكلا منها بالفعل

"فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" هل كـان الأمـر بكل هذه البساطة دون ثورة أو انتقام؟؟

دون تهديـد بـالموت أو العـذاب، دون أن يبحـث عـن تلـك المـرأة التـي عاونته؛ فينالها النصيب الأكبر من العذاب الذي تستحقه؟

لأنها عاونت الشيطان في استغلال آدم وحثه على المعصية؟ كانـت كـل توقعـاتي خيـال، فقـد ضـرب الكاتـب بكـل توقعـاتي عـرض الحـائط، واِعترف أن الشيطان أغوى كلاهما معًا، لأول مرة فـي حيـاتي أكتشـف أن هـذا الكتـاب لـم يوجـه أي اتهامـات لحـواء علـى هـذه الحادثـة وعلـى عكس كل ماكنـت أسمعه وأقرأه طـوال حيـاتي، فقد كـان الكاتـب يضـع للمرأة اِعتبارًا عكس ما قرأته في كتب الأديان الأخرى.

كـان هـذا الكتـاب يجبرنـي علـى إعـادة قـراءة الكلمـات مـرات ومـرات؛ لأتأكد من كل حرف أني لم أخطأ في قراءة أو فهم أو استنتاج أو معنـى " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ " عدتُ أتوقف أمام هذه الجملـة أيضًـا هل يحـاول أن يسمي أكبر خطيئة حدثت في تاريخ الإنسانية كلها، "زلـة" التـي تسببت

بكل معاناتنا هنا على الأرض، وكما يدعي الجميع فقد خلقنا في الأساس في الجنة، وتسببت خطيئة آدم بطردنا منها، مجرد زلة، لا خطيئة ولا معصية ولا كفر، فقط "زلة"؟ كانت الأفكار والملحوظات تقفز إلى عقلي بمنتهى القوة والسرعة، أين الغضب العارم لذلك الرب الذي أتصوره آخر تصوراتي عن الزلة أن تفقد تركيزك أو أعصابك لحظات؛ فتخطئ في كلمة أو تنسى أمرًا ما كان يجب عليك فعله؛ فالزلة ليست أمرًا جليًا فكيف يسمي فعلة آدم التي دفع ثمنها كل البشر بعده مجرد زلة؟ ثمَّ يعاقبه بكل هذه القسوة عليَّ العودة للأمر من جديد، كلما ظننت أني أحاربه من جبهة انقلبت عليَّ فهو هنا يتفق معي تمامًا، يتعامل معي بمنتهى الدبلوماسية ويسير كما يفكر منطقي، فلم أرَ أبدًا طوال حياتي أن خطأ آدم كان يستحق كل هذه القسوة والعذاب، فلم يقتل أو يؤلم أو يعذب أحدًا، لم يغتصب ولم يسرق كانت فقط مجرد قطعة فاكهة في جنة كبيرة عامرة مليئة بالفواكه.

كنتُ أرى دائمًا القصة شديدة الظلم، فقد تجاوز العقاب جنس العمل بأضعاف وأضعاف، لكنني لا أتفق معه في هذا العقاب وتجاوزه المنطق.

"وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"

تأملتها، لم تكن كلمات رب غاضب، قال (مستقر) و(متاع)، وليس عقاب أو عذاب، بكل بساطة يعلن أن نزول آدم الأرض لم يكن عقابًا،

لم يكن لتعذيبه، حسنًا ما هي الرسالة التي تشير إليها الآن؟ بعد كل ما أثرتُه داخلي من بلبلة؟

هل يدعي الآن الهدوء والرحمة؟ بعد التأمل قليلًا في وجود تلك البشرية كلها خلف آدم، فلا أعتقد أبدًا أن هذا العالم الزاخر بآلامه وآماله رُتب على معصية، لا يعد ذلك نتيجة عقلية أو منطقية لذنب آدم، لابد أن ذلك قدر إلهي محض، فلا يوجد أي عذر منطقي أن ترتبط خطيئة واحدة يعتبرها هذا الكتاب زلة، بوجود عالم وانتشار بشر حول القارات يشقون ويكدحون، يبنون أحلام تتهاوى فوق رؤوسهم، لابد أن هناك حكمة ما أكبر من ذلك.

"فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ" ما الذي كانا فيه؟ حسنًا كالعادة يعيدني إلى البداية مرة أخرى، كلما اعتقدت الوصول إلى هدف ما.

لقد أخبرني أن الإنسان كائن أخلاقي متعلم له إرادة حرة تحركه قوتين متناقضتين بداخله، لقد خلق ليستقر بالأرض في الأساس، لم يخلق للجنة، لماذا كان بها إذًا؟ لماذا كان دخوله الجنة من البداية؟

هل كانت فترة تمهيدية ليستعد الإنسان؛ لينمو ويدرك أنه كائن متعلم أخلاقي صاحب إرادة!!

قفزت فجأة من مكاني كمن لدغه ثعبان، احتلتني الفكرة تمامًا، وتسللت إلى داخل عقلي

" إرادة " ...

" إرادة حرة "

هل كانت هذه الزلة هي أول إرادة حرة للإنسان؟ إعلان خفي عن قدرته لاتخاذ قرارات حرة بنفسه وقدرته على تولي أموره دون إرادة عليه؟ يا لعقلي! هل كانت مثل احتضان الطفل لينمو ويدرك الحياة؟ قبل أن نخرجه للشارع وحده؟ علينا أن نتأكد أنه أصبح مسؤولًا عن نفسه وقراراته، كانت هذه الإشارة الأولى لاستعداده النزول إلى الأرض (أن يتخذ أول قرار مستقل في حياته) هل هو هنا يحاول إدعاء الرحمة مرة أخرى، فلم يطرد آدم من الجنة بل على العكس، منحه الجنة ومهده لرحلة الأرض، هل يحاول تغيير مسار القصة من عقاب إلى منحة، أصبح الأمر يبدو كأنه عطية؛ إنه تمهيد الإنسان للاختيار الحر

يا لعبقرية الكاتب! حقيقة كلما أبحرت أكثر أشعر أني أحارب شخصًا يعرفني كثيرًا، ويقلب عليَّ كل أفكاري التي أحاربه بها، ويكشف كل زوايا فكري التي أتربص منها.

"وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"

هل هي مستقر؛ لأنه خلق لها في الأساس، خلق لتعمير الأرض، إنها موطنه.

حسنًا مازلت أنتظر وأتوقع غضب ذلك الرب فلا أصدق أبدًا أنه بكل هذه البساطة والتلقائية والرحمة

"فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" يُصِر على وضع الأمر بوضوح للمرة الثانية أمام عيوني، مُصرٌ على قتل شكوكي وإعلان ادعائه للمرة الثانية، «هو ليس رب غاضب» هو رب رحيم ويلقي التوبة الربانية على البشر، فلم يترك آدم يتخبط في الأرض وحيدًا خائفًا، مغضوبًا عليه بل توجه إليه وأهداه كلمات ليتوب بها عليه، ما نوع هذه الكلمات؟ كلمات أمل؟ كلمات توبة؟ كلمات رحمة وشفقة؟ كلمات تسرية؟ما هي هذه الكلمات!؟ ماذا كانت يا ترُى! شعرتُ في هذه الكلمات صورة كطفل صغير أغضب أمه وبكى؛ فاحتضنته رغم كل شيء بل هي عاطفة أقوى من مجرد حنان الأم.

زوجان خائفان خجلان من نفسهما يشعران بالندم، ينظر إليهما بنظرة تعاطف وأمل،....

يخبرهما ألا يخافا أبدًا،...

أنه هنا جوارهما، سيساعدهما، ما الأمر؟ أنا لا أفهم! يخبرهما أن عليهما أن يتماسكا، ويتبعا هداه ولن يصيبهما أي مكروه، إنه وعد مكفول النفاذ، سأساعدكما، سأرشدكما، لن أترككما متخبطيْن

"فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"

في هذه اللحظة تذكرت (أحمد) كان خائفًا ولكنه متأملًا، واثقًا أنه لن يموت على هذا الحال الذي لم يعجبه، تمنى أن يتوجه له ربه ليهديه، رغم كل خطاياه، كان بداخله قلب نظيف يدعو ربه، هل هناك رب إذًا

لهذا الكون!؟ هل استسلم بسهولة لهذا الاقتحام العقلي، هل هناك رب غير غاضب يحيطنا، هل سيحتل عقلي مثل هؤلاء الساذجين الأغبياء.
رب رحيم يحكم هذا العالم الجاحد!! قاد خطواته هذه الليلة إلى الصلاة التي لم يهتم بها عمره، هل أسطورة القوى العظمى حقيقة، تحرك كل هذه الخيوط وتحاول إصلاح ما أفسده الإنسان داخل نفسه وخارجها.
اِقشعر بدني قشعريرة قوية، رعشات متتالية انتابتني وأنا أجلس وحيدًا في هذا الظلام، الخوف والرهبة تتسلل إلى نفسي.
فكرة اِقتحمتني أن هذه القوى هي ما تدفعني إلى قراءة هذا الكتاب بين يدي، أن هذه القوى تراني وتلتفت إلي الآن في هذه اللحظة، وتدفع فكري وأفعالي لاتفحص كل كلمة به؛ إنها تتلاعب بي مثل دمية بخيوط.
تركتُ الكتاب سريعًا واِنتفضتُ واقفًا أبتعد عنه،..
اِبتعدت عنه،....
واِلتصقتُ إلى الحائط،...
أنظر إليه مذعورًا، ترتعد كل أوصالي، أنظر إليه بخوفٍ شديدٍ أحاول أن أنسى هذه الفكرة التي تسلطت عليَّ في هذه اللحظة لم أرهُ مجرد كتاب عادي أمامي مثل مئات الكتب التي أقرأها.
كنتُ أرى أمامي كيانًا،كيانًا ما، يخاطبني ويتحداني ويعلن أنه سينتصر، خرجتُ مسرعًا من الغرفة وأنا أشعر برعشات متتالية تقتحم

جسدي، أترنح محاولًا الاستناد إلى حوائط المنزل، قطرات العرق تتهاوى على جبيني بشدة، تحرق عيني، تزغلل بصري رغم أننا في منتصف الشتاء؛ لكن كأن الجمر يشتعل بجسدي ورأسي مزيج من اللاشعور والخوف والجزع والصدمة والرهبة.

كنتُ أرى كل شيء أمامي يتهاوى ويتمايل ويتراقص، وتوازني يختل وعيني تهبط عليها غشاوة كسحابة بيضاء، هل أفقد البصر؟ ساعتها بقايا من وعيي أخبرني أني أفقد الوعي،...

أن هذا الكتاب به قوة شريرة حقًا.

أنه يقتلني،....

إنه ساحر، إنه ينتصر، وأنا أسقط وأتهاوى، أختنق كمَن سقط وسط المحيط؛ ولا أحد هنا لينقذني، عقلي ينزلق إلى مغارة سوداء عميقة، عالق بداخله السؤال، ما هذا التيه، ما أنا؟ مَن أنا؟ كيف أكون؟ أنا الذي سجد لي الملائكة، وسخرت لي الأرض، خلقت من ماء شهوة وانتهى إلى جيفة، يقتلني مكروب لا أكاد أراه ولا أشعر بوجوده، وأنسف شعوبًا وبلادًا بسلاح اخترعه عقلي، كيف تكذب المظاهر؛ وتخفي جلودنا حقائق عظيمة لا نعرفها، تتشابه وجوهنا وتختلف داخلنا نفس الذات، هل نملك تلك الذات أم استعرناها فقط، هل هي ذرة من عدم خلقها رب ووضع بها سرها، ابتلاها بالخير والشر ليفضحها أمام نفسها، هل أقرب شيء مني لم أعد أعرفه، بل لم أكن أعرفه يومًا.

وصلتُ لباب في النهاية، عليه الكثير من الرموز الغريبة، لم أستطع فتحه، كيف أفك رموز ذلك الطلسم أمامي، كيف تُرفع الحجب، ويُكشف الغطاء، ويغدو البصر حديدًا.

ما أمري؟ ما أنا؟...

أمسكتني يد تنتزعني من بين غيابات ذلك الظلام الذي يلفني ، أخيرًا إنسان ما جاء لإنقاذي ، لكنها يد أمي تربط على يدي وتطمأنني، كنت شديد الفرح لوجودها جواري أخيرًا لإنقاذها لي.

أنت هنا! أنت أمامي! جواري! لا أكاد أصدق ما يحدث! ابتسمت لي وعيونها تحتضنني قائلة :

- ليس الآن!.. أنت لن تستطيع فتح هذا الباب دون الكثير من المعرفة.

- أمي...لما تركتني وحدي، أخرجتني من جنتك وتركتني وحدي، أنا لم أذنب.

- ليس ذنبًا يا حبيبي إنها الحياة، رحلة ليست هينة؛ لكني هنا دائمًا جوارك، ألقي إليك دعائي بكل صلاة، وأتمنى لكَ الخير.

- هل أنت بالجنة الآن!

- أنا هنا بداخلك!

أشارت إليَّ موضع قلبي، اصبعها يشبه وهجة النور، أصابتني به؛ فقذفتني صاعقة كالكهرباء، انتقلت الوهجة من اصبعها إلى قلبي، كيف أشعلت قلبي فأصبح مثل قنديلًا مضيئًا بين صدري، ظللت أنظر إليه

ولا أكاد أصدق ما أرى، إنها تستدير لترحل مرة أخرى، لكنـي لاحقتها متسائلاً :

- لماذا خُلقنا يا أمي؟

- بل أخبرني أنت يا (يوسف) لماذا نمتلك العقل إن كان ينحرف بنا عن معرفة الله، عن الإيمان بالله، لماذا لدينا حرية الاختيار أن نؤمن أو نكفر؟ لماذا نعاني بالأرض ولا نصعد مباشرة إلى الجنة؟

- تعودين عليَّ بأسئلتي يا أمي أنا متعب أريد أن أفهم، إن كان بكل هذه الرحمة والعطف، لماذا لا يهدينا جميعًا وينتهي الأمر، لماذا لم يتركنا هناك بالجنة!

- أنت وحدك تملك الإجابات عزيزي، أنت وحدك تعرف أن المنطق والإيمان متطابقان؛ لكنك تخاف أن تفتح عقلك "قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ" إنه اختيارك، إنها حريتك، الحرية تلعب دورًا هامًا في نموك.

- لماذا نعاني يا أمي؟ المعاناة صعبة، كُسر قلبي، برحيلك ورحيل أحمد، هل علي أن أتعايش مع المعاناة؛ لأتخلص من ذنوبي وتتعذب روحي بالأرض؛ فأصعد للسماء طاهرًا، هل هي عقوبة؟

- بل هو سمو للروح.

- أين هو السمو يا أمي يُباع مع صكوك الغفران، أم أن هناك آلهة عدة تتصارع عليه، ولا تهدينا منه سوى البلاء، أخبريني ماذا أفعل، كيف أتخلص من كل ذلك الألم وأجد سمو الروح.

- أنت ستعاني كل مَن يعيش يعاني، إنه جزء مهم من تكوينك ونموك وتزكيتك، تقبله بشجاعة وتصارع معه ولكن لا تجزع، إنه الهدف من الحياة عزيزي، إنه الجهاد.

- لا أريد أن أتقاتل.

- ليس عليك أن تقاتل؛ عليك أن تسامح، عليك أن تحب، عليك أن تصبر، عليك أن تُعطي وتتعاطف، كي تفهم الجهاد.

- هل يعاني الطيبون بهذه البشاعة، لماذا علينا أن نمر بكل هذه المعاناة.

- وهل تريد أن يتركك الله تنعم بالحياة حتى تعتقد أن لن يقدر عليك أحد حتى تتشبث بها وتنسى رحلتك الحقيقية، كيف تصل إلى اليقين إن لم تعاني وتتواصل مع أخيك الإنسان، ينفطر قلبك ويرق ويأن، كيف تتوقع ألا يتسلل الكبر إلى قلبك؛ لتعيش الحياة الحقيقية.

- ما الحياة الحقيقية؟

- ستعرف يا (يوسف).

- كيف يتحمل الناس صفعات الموت.

- لن يحملك الله أكثر مما يستطيع تحمله قلبك.
- لا أريد أن أعاني التجربة.
- كيف تعرف ما تحب وما لا تحب إلا بالتجربة.
استيقظتُ من إغمائتي على صوت قوي يهاتف عقلي ويزلزله
"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"
استيقظتُ مضطرب الجوارح، لا أدري كيف يمكن لحلم أن يصل حد الواقع، كنت هناك حقًا؛ كأنني لمست يدها وسمعت صوتها؛ كأنني رأيت وجهها الذي نسيت ملامحه.
حملتُ جسدي المرتعش المضطرب المتعرق ناهضًا من الأرض، ومشيت بخطواتٍ مترنحة إلى غرفتي وأنا أصارع ذهني بين أضغاث أحلامه وحنينه القوي، فتحتُ صندوقي القديم الذي أصبح يكاد لا يغلق من كثرة هذه الخطابات.
أخرجت أول خطاب طالته يدي وفتحته بيدين مرتعشة ودموعي تسبقني وأنا أقرأه.......
"كيف أتغلب على ذلك الوجع العشوائي الذي يدق أعماق قلبي كلما تذكرت أنك لست هنا، كيف أكف عن مراجعة الماضي وفتح دفاتر لا أذكر بها الكثير، لم أعد أذكر وجهك، ضاعت من الألبومات كل ملامحك بمنتهي القسوة، لا صورة قديمة لكِ، ولا طلل لحلم أتذكره، أين أجد نشوة وجودك معي، أضاعوك يا أمي دون انتباه!

يمضى الوقت سريعًا كلمح البصر، وأنت لست هنا، يمضي كأنني أعيش ولا أعيش، يقولون أن أجمل الأوقات التي تمر بالإنسان أيام طفولته، لكنك بخلتي عليَّ بإتمام جمالها، أين أنت الآن؟ لماذا لا تتخلي عني فكرة أنك هناك بمكان ما يمكنني الوصول إليه!! لماذا لا أصدق أنك أمسيتي طيفًا ورحلت إلى الأبد؟

لم أستطع تقبل رحيلك بصدرٍ رحب، ولازلت لا أستطيع، قال لي أحدهم أن أكتب إليك كلما اِشتقت رسالة وسترسل إليك الملائكة كلماتي؛ لكني لم أعد أؤمن بالملائكة، ولا أدري مَن سيحمل إليكِ كلماتي يا أمي، كيف أُشفى من إدمان الكتابة إليك وأنا لا أجد جدوى من كلماتي! أتقنت الغياب وأنا أتقنت الحنين أنا وحيد، ابنك وحيد جدًا من دونك.

لن تتخيلي كم صار ابنك ماقتًا لهذه الحياة، كنت أول الراحلين لكنك لست آخرهم، يرحل الجميع تِباعًا وأنا أقف أشاهد لا حيلة لي ولا أستطيع منع كل هذا، يرحل الجميع وأنا أتألم يا أمي، يرحلون وأنا هنا وحدي."

# ( ٢٦ )

(حُور)

إياكِ يا نفس أن تتعلقي؛ فليس كل من أحببتِ قد يحبكِ، وليس كل ما تمنيت سوف يأتي، وليس كل من يحاول إظهار الحب قد يحبك، وإن أبدت العيون غير ذلك.

قد يبدو ذلك حقيقة في البداية؛ ثمَّ يتحول سراب كأنه لم يتواجد يومًا، سرعان ما يذوب الحب كقوالب الثلج حين تعتصره الحياة؛ لتتجلي الحقيقة المُرة، لن يعود مرة أخرى، لن يسأل، لن يتصل؛ بل سيترك خلفه قلبًا يشكو الألم ويتلوع وتذرف الدموع بلا رحمة كما فعل أول مرة، أعادها مرة ثانية وأنا طاوعته، لعلي طاوعت خيالاتي، لعله لم يحبني يومًا، لعلي أتوهم تلك الرغبة التي تنجلي بعينيه، تلك الرهبة التي تظهر إذا ما اقتربت.

مَن ألوم عندما أسيء دائمًا الاختيار؟ أم أن الاختيار يسيئني كل مرة؟ لا وجود للحبيب أو الصديق بهذه الحياة بل فقط علاقات مبتورة، خاوية، تشع نقصًا من الأعماق.

في غرفتي أجهز شنطة السفر لزوجي المسافر دائمًا، لم تعد علاقتنا تتجاوز تجهيز شنطة أو تفريغها، لم أحاول سؤاله أين هو ذاهب، لم

أعد اهتم، كان عقلي شديد الانشغال بيوسف وموقفه، مرت الأيام ثمَّ الأسابيع، ثمَّ الشهور ولم يتصل، لا أكاد أصدق أن هذا الحديث الصافي الذي بدا عليه الصدق الشديد لم يكن يخرج من قلبه، كان فقط ترهات تنطلق من طرف لسانه.

عاد للقاهرة دون أن يخبرني، ومرت الأيام ولم يتصل، وها أنا وحيدة مرة أخرى، أتوهم أشياء لم يعترف بها يومًا لماذا جاء!! كان هذا السؤال يطاردني، ولمَ رحل؟ لما أعطاني أمل كاذب؟ كيف كنت بالسذاجة لأنتظره!! كيف كنت بالسذاجة؛ لأعتقد أنه سيعود!! لحظة غضب عارمة، لحظة واحدة، لحظة ألم جعلتني أتجنب النظر إلى هذه المرآة أمامي.

شعرت بيدين توضعان على كتفي:

- لماذا كل هذه العصبية على الملابس، ماذا فعلت لك؟

حاولت الابتسام وأنا أعرف كم أصبحت متميزة في التظاهر بعكس ما أبطن، على أن أتظاهر بأن دعابته ألقت بداخلي سرور غير متوقع.

- أبدًا لست عصبية.

قلتها بكل هدوء وابتسامتي لا تفارق ثغري.

- (حُور) لماذا لا تحضرين حقيبتكِ وتتركي لي حقيبتي، سأحضرها بنفسي.
- حقيبتي؟
- نعم سنسافر معًا هذه المرة، نسافر جميعًا كأسرة، ولا تنسي معطفك الفرو الأسود الطقس هناك شديد البرودة.
نظرت إليه مذعورة وقد أصابني الجزع، معطفي، كيف أخبره أني فقدته في أحد السيارات، ثمَّ عاد الذعر يكشر لي أنيابه من جديد من فكرة وجودي جواره فترة طويلة.
- لا لا لا  لا أستطيع.
- كيف لا تستطيعين، هل أنت مرتبطة بمشاريع أخرى لا أعرفها!
ابتلعت ريقي؛ وأنا لا أفهم مغزى هذا الحديث، هل ترامى إلى مسامعه أخبارًا عني، أم أن هذا ضمير اِستيقظ متأخرًا ؟ كيف يمكنني إخباره أنني لا أتحمل فكرة البقاء إلى جواره كل هذه المدة، أنني مصابة بنفور شديد منه وأرتاح في فترات سفره؛ كيف أخبره أنني بكل بساطة لم أعد أرحب الاقتراب والتواجد معه.
- (حُور) لماذا لا تريدين السفر معي؟
- ليس الأمر أني لا أريد، أنا أجد البقاء (بأدهم) في منزلنا موائم أكثر لي، لا أقوى على مراقبة حركاته الكثيرة خارج المنزل.
- حسنًا كما تشائين؛ لكني أريد أن أطلب منك طلبًا أخيرًا.

-ماذا؟

- لا أعرف كيف أبدأ هذا الحديث؛ لكنى سأخبرك مباشرة أنكِ تغيرتي كثيرًا في الشهور الأخيرة ولا أعرف السبب، لا أعرف إلا أني أشتاق سؤالك عني وانتظارك ومحاصرتك لي.

- كنت دائمًا تضيق من هذه الأمور.

- أحيانًا لا نقدر الأشياء تقديرًا مناسبًا، وأنا حقيقة أفتقدك.

كنتُ أنظر إليه متعجبة، انتظرته وقتًا طويلًا، لكن الآن أصبح وجوده واِقترابه بلا معنى، باهت، بلا طعم، عجيب ذاك الشعور، عندما تأتي الأشياء بعد أن نتوقف عن توقعها وانتظارها.

أي افتقاد هذا الذي يتحدث عنه، لا يمكنه التمييز بين الافتقاد وحب التملك، لا يصدق أني أتحرر من قيوده، أخرج خارج مداراته، يريد أسيرته، يستمتع بتعذيبها.

لا أعتقد مَن مثلك يستطيع تقدير الأشياء ولا افتقادها، يحاول الآن التعرف عليَّ، يحاول الرجوع بالزمن؟ فات الأوان... أنظر إليك ولسان حالي يعدك بكل اللغات أن لا عودة أبدًا، لن ترى ريحي الطيب، ولن تتذوق عشقي، لن يطالك حنان ولن يلحقك شغفي، لا عودة أبدًا، فات الأوان، نفذ رصيدك، ولن يعود الزمان، أنظر إليه وعيني تستجديه بكل اللغات أن يرحل ويتركني.

تستجديه بكل اللغات أن البعد أرحم، أن الوحدة من دونه ألطف، تخبره بكل ثقة أني كطيف حين يرحل لا يعود أبدًا، اِرحل فقط واِتركني أو لعله وقت تلك الخطوة الجريئة التي تداعب خيالي كل فترة ،...

أرحل أنا!.....

نعم أرحل أنا ليس فقط عنه، بل عن كل تلك الحياة المؤلمة.

# ( ٢٧ )

(يوسف)

هل حدث أن تحدثت مع أحدهم، حتى أدمنت وجوده رغم الاختلاف الشديد بينكما، طال معها الحديث ومر الوقت، واسترسلت الكلمات بسلاسة حتى عجزت عن تفسير ذاتك، حدث هذا خلال فترة عزلتي التي قضيتها أحاول تفسير كل ما حولي.

كيف أعتزل الجميع وألجأ إليها، أكرهها وأحب الحديث معها، أختلف معها وأتفق في أنسها، أطيب لحظاتي الحديث والمناقشة معها وإن اختلفنا، إنها حصن اطمئن داخله، ريح طيبة تمرعلى نفسي بسلام، مسيح يمسح على حزني، تنقلني إلى بعد آخر، تحصرني في زاوية طاهرة وتزيل عني أحمالي.

كانت أشياء كثيرة لا أدري كنهها، الصديق الذي فقدت، والأم التي رحلت، والوطن الذي لم أنتمي إليه، شعرت أني أعرفها منذ زمن بعيد، أحكي لها كل ما يخطر ببالي دون حظر أو تجمل أو تغيير، كهفي وملجأي الذي يأويني حين تشتعل بصدري نيران (حُور) ويشغل مضجعي ثورة براكينها، حضن أمي برائحته المقدسة، وجه طفلتي

البريئة المشرقة كالشمس، لم أستطع تفسير علاقتي بها أبدًا، ولا سر ارتباطي بها ولا سبب تقبلها لي؛ رغم أن ذلك ضد مبادئ دينها.

تلح بخاطري وأيامي ولا ترحل رغم عزلتي، لا أريد تفسيرها وفلترتها أو فهرستها في مضمون وإطار واضح، أريدها فقط موجودة، وقريبة، وهذا دفعني لأسألها :

- هل أسألك سؤالاً وتجيبي بالحقيقة؟

- وهل تعتقد أني أخبرك غير الحقيقة.

- أشك أحيانًا بأنكِ تكشفين الجزء الأصغر منها.

- مممم.. حسنًا اسأل.

- لماذا تتحدثين معي بكل الأحوال؟ أنا لست مؤمنًا مثلك ولا أنتمي لمعتقداتك.

- ولماذا تتحدث أنت معي وأنا مؤمنة ولا أنتمي لمعتقداتك.

- يا عزيزتي أنتِ الفتاة هنا، ألا تخشين مني؟

- لم أخشَ منك ولو للحظة يا (يوسف).

- كيف لا تخشين ممن مثلي؛ ألا ترين أني لا أملك المبادىء والقيم مثلك.

- من أخبرك هذا أنت، بل تملكها بالفطرة، لماذا تبحث وتتساءل إن كنت لا تملكها، وفي كل الأحوال أنا لا أحكم على الناس من ظاهرها؛

فلكل منا صلاته الخاصة بعميق قلبه، تلك الصلاة التي ينظر إليها الله ولا يعرفها غيره.

- لكني لا أفعل ولن أفعل.

- ما يدريك لعلك تفعل ولا تدري.

- لا لن أفعل أبدًا ما حييت، أن أحني رأسي لأحد.

- لماذا تقرأ القرآن إذًا.

- لأكتشف الخديعة القابعة داخله.

- يسعدنى إذًا أن أشاركك اكتشافها؛ فلا أحب أن أحيى عمرى كله مخدوعة؛ لذلك سأبقى هنا حتى تصل إلى أي حقيقة تجدها.

- هل تعرفين أحيانًا لا أثق أني سأصل ولا أعرف عن ماذا أبحث!

- إن البحث عن الله متأصل في قلوبنا جميعًا، الكل يلجأ إليه يوماً ما .

- أنا لا أبحث عن الله؛ أبحث عن الحقيقة أيتها المستفزة!

- أنت تبحث بالمكان الصحيح إذًا؛ إنك تحمل بيدك المعجزة التي تتوارثها الأجيال.

- أي معجزة.

- القرآن، إنه المعجزة الوحيدة الباقية، التي نراها من أثر الأنبياء والرسل؛ فلا أحد ورث طب عيسى أو وجد عصا موسى.

ضحكت ساخرا :

- بالغتي كثيرًا يا (ياسمين).

- أبدًا، سأخبرك سرًا آخر، أبحث داخلك، الكون كله يقبع بداخلك، كل ما تحبه وتريده وترغبه وتبحث عنه، كل شيء متعلق هنا بداخلك لكن بدرجات متفاوتة، لذلك عندما تبحث عن أي شيء أبحث عن تلك الحقيقة التي تختبئ منك داخلك.

- تناقضين نفسك، أين أبحث، في القرآن أم بداخلي!

- أنت قرآن متنقل يمشي على قدمين، أنت السر والحقيقة، أنت قدرة الله.

- أين هو أثر هذه القدرة، لماذا لا يهديني إذًا؟

- ألا ترى البشر ينفعلون بالحب والكراهية والفرح والحزن، أو يهدأون للنوم، إن هذا التباين هو قدرة الله، نبضات قلبك داخل حناياك، سريان دمك، ذلك الإحساس القابع بداخلك الآن، تجدد خلاياك للحياة، كل ذلك هو أثر قدرة الله حولك وبداخلك.

- أنت تتفلسفين فقط، أنت لا تعرفين، تمامًا كما الآخرين.

- كونك لا تستطيع اكتشاف أعماقك، لا يجعل مني أنا الجاهلة.

- حسنًا! إن كان كل هذا يقبع داخلي ويصعب عليّ رؤيته، دعيني أتجول خارجًا لبعض الوقت.

- ما هو الشيء الذي تتوقع اكتشافه بالخارج، ولا يتواجد داخلك؟

- ممممممم ، حسنا يا فيلسوفة سأذهب لأبحث عن الشيطان.

- حتى الشيطان لا تبحث عنه خارجك، الشيطان ليس قوة خارقة ولا رعد صاعد، الشيطان صوت هادئ ناعم محبب ينبعث إليك من داخلك من أقرب الأماكن إلى قلبك،....

هزتني كلماتها قليلًا "الشيطان يقبع بداخلي" ذلك الصوت الهادئ الناعم الذي ينبعث من أقرب الأماكن إلى قلبي، انتابتني قشعريرة شديدة قبل أن أطرد تلك الفكرة الخبيثة من رأسي، طردت أفكارها سريعًا عني، قبل أن تحتلني، لن أتفق معها أبدًا؛ لكنها كانت على حق في أمر واحد أنا أعلمه جيدًا.

كيف لي أن أعرف الحقيقة، وقد عجزت عن معرفة ذاتي ودواخلي؟

## ( ٢٨ )

## الشك هو ضمير اليقين

(يوسف)

عند هذه المرحلة لم أعد أستطيع الصمود وحدي، أعترف أني احتجت لمساعدة، ليس مساعدة لكي أستوضح الأمور؛ ولكني أردت مساعدة كي أرى شيئًا مريبًا لم ألحظه، وللأسف لم أجد المساعدة، لا أحد يقرأ القرآن، معظم مَن يفتحه يرى آيات تتكرر بنفس المعلومات والنمطية، ولا يدركون تلك الفروق الصغيرة التي تبرز أمامهم، لا أحد يفهم، يتصفحونه ككتاب يصلح للقراءة مع فنجان قهوة ، القرآن بالنسبة للبعض؛ هو أشهر كتاب بالتاريخ أو فقط الأعلى مبيعات.

كتاب أتى من أكثر البيئات بدائية ورجعية؛ بلا حضارة ولا تاريخ يذكر، بلا أعمال خالدة، فيكتسح البشرية، ثمَّ يخلد على مر التاريخ، في كل الأحوال بدأت أشك أن يكون هذا كلام بشر، إنه نص ذكي له فلسفة أعلى من بيئة صحراوية فقيرة، إلا إذا كان هذا البشر شديد الدهاء والذكاء والعبقرية عكس كل الإمكانيات المتاحة حوله، أو كان بشر يملك القدرة على السفر عبر الزمن حتى يأتي بفلسفة تشمل النفوس بكل زمان.

لم أرد مساعدة من علماء أو فقهاء أو شيوخ وأنا لم أقتنع بهم يومًا، لا أثق بهم أبدًا، أريد أن أتحدث لإنسان مثلي يشك ويخاف ويبحث عن الحقيقة، بعيدًا عن النمطية الفكرية التي يورثها الآباء لأبنائهم.

أريد أن أكتشف أين خطأ (حُور)؟ ولماذا (ياسمين) تبدو بكل هذه الثقة؟.لماذا نختلف ولماذا نتألم ولماذا نتغير؟ خصصتُ للأمر ثلاثة أسابيع في البداية، وتركتُ عملي وكل الحياة ورائي، وأنا الآن أقترب من خمسة شهور ولم أنجز منه شيئًا بعد.

خمسة أشهر لم تواتينِ الجرأة لأتحدث إلى (حُور)، وأشعر بخيبة أمل صديقي فلم أستطع أن أساعدها؛ بل فقط زدت الهم بوجودي الباهت المؤقت بحياتها، انهمكت أشغل فكري بأمر هذا الكتاب الذي أحمله معي طوال الوقت، قرأت كتب المستشرقين والملحدين، ومَن دخلوا الإسلام حديثًا، قرأت في الإنجيل مرة ثانية والتوراة وما استنتجته أنه لابد أن يكونوا جميعًا من نفس المصدر؛ إنها كتب تتمم بعضها، تشعر وكأنها تأتي بنفس الفكرة، القرآن تمم باقِ الكتب؛ لذلك هو يصر على تمجيد الشخصيات اليهودية والمسيحية، لكنه أكثر توضيحًا، أكثر بلاغة، أكثر رزانة وعقلًا وحكمة، وأيضًا أكثر شمولًا، تشعر أن من كتبه سكن كل العصور، جمع كل تلك الحكم البالغة التي قرعت آذان الأمم خلال شتى الأزمنة، استعراض دقيق لما تحتاجه كل نفس وكل أمة، رغم أن وجوده كان منذ أربعة عشر قرنًا، إلا أن معانيه قديمة

جديدة، أنظر إلى آيات وثيقة الارتباط بظروف جاءت بها، شديدة الارتباط بكل الظروف الجديدة، به حقيقة أساسية مفردة؛ لكنه يضعها داخل ألف ثوب؛ لتناسب كل إنسان، أعتقد أن هذا التكرار مقصود، به نوع من الهيمنة النفسية على مَن يقرأه؛ فالغرض ليس تقرير حقيقة فقط بل بناء مشاعر وأفكار وشخصية، تكوين نفسية وطابع مختلف، يتحدث عن ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل مَن زل، ثمَّ يواجهه بهدوء كمَن يمسح بلطف على روحه، قراءته تشبه إلى حد كبير، جلسات علاج نفسي مع طبيب شديد الفطنة، شديد الفهم والحيطة، يتكلم عن العاطفة مع ارتباطها بأعتى الغرائز عمقًا، فمَن استغلق فؤاده أمام آية، لابد أن يجد غايته في آية أخرى تثير شجنه، أتت صياغته في إطار من الجمال الأدبي؛ عناية خاصة من الكاتب كي يحفظه ويصونه في قلوب مَن يقرأه، يناسب بيئة العرب في تلك الحقبة، التي كان بها العرب يرون المثل الأعلى للنبوغ قصيدة جيدة، أو كلمة حكيمة، كانت صناعة الكلام لديهم تصارع ومبارزة، له هيمنة تصل إلى الأعماق، يجعلك تقبل ما يريد، إما راغبًا أو راهبًا، لم يكن الكتاب الوحيد الذي قرأته، أنا قرأت مئات الكتب التي تركت أثرها على نفسي أما هذا الكتاب فقد ترك داخلي أعمق أثر ولا يمكنني معرفة الكاتب بطريقة يسيرة، لا يمكنني تخمين جنسيته أو أضع عنه حكمًا معينًا سوى أنه عبقري ساحر.

والأعجب وجدت أن الإنسانية لم تعرف في ماضيها الطويل، رجلًا وقره الأبطال وكرمه الناس من كافة الملل، وشهد على عظمته غير المسلمين مثل صاحب ذلك الكتاب، الرسول ﷴ، رغم كل ما سمعته عنه، وجدت الكثير من الكتب التي كتبها غير المسلمين تشهد على عظمته.

أما الإنجيل حين قرأته شعرت أنه يتحدث فقط إلى الرجال، قد لا تجد موقفًا أو تصريحًا لربهم يسوع يقيد المرأة أو يقلل من شأنها، وقيمتها، لكن لن تجد حديثًا مباشرًا إليها، أو خطاب موجه إليها، لتعرف قيمتها، حدودها، حقها، وواجبتها، أراه تجاهلها؛ إنها في المجتمع المسيحي ساكن مُسَلم بوجوده.

في سفر الأمثال، وجدت النصائح بالتزام العفة موجهة إلى الرجال فقط، كمَن ينظر إلى الرجل كضحية إغواء، والمرأة لم تُحذر أبدًا؛ لأنه يعتبرها مُغْوِية، قد يكون ذلك لأن الأناجيل الموجودة حاليًا، لا علاقة لها بالإنجيل الموحى إلى عيسى، الذي اندثر مع الاضطهاد الروماني القديم للمسيحية، والأناجيل الموجودة ما هي إلا سير خاصة كتبها رجال خلفوا عيسى بعد حادثة موته المبهمة، وضعوا بها ما لديهم من معارف ووصايا، وتواريخ حتى إن كاتب إنجيل لوقا، لم يرَ المسيح يومًا أو يسمع منه، وكان هذا اكتشاف مبهم بالنسبة لي، فكيف تتقبله الكنيسة التي تدعو لدين عيسى دون تشكيك أو حرج.

لقد بذل العالم الغربي إذًا مجهود كبير في القرن الأخير ليتجاوز احتقاره للمرأة؛ فالنصرانية لم تكن «تاريخيًا» في صف النساء، إذ كانت تعتبرها كائن بلا قيمة.

أما القرآن يشمل المرأة في كل كلماته رغم أني اعتقدت يومًا أنه غير مناصر للنساء، أنه دين يضطهد النساء ويتجاهلهم؛ لكني اكتشفت أنه مناصر للمرأة أكثر من أي دين آخر على هذه الأرض؛ فالمرأة شريكة الرجل، يتحملون المسؤولية سويًا، ولم يرم إليها تهمة الإغواء أو حملها مسؤولية الخطيئة الكبرى حتى إنه جعل حق الأم في البر أكبر من حق الأب، كما لا يفاضل بين الرجال والنساء في الأجر ولا الثواب (لهن مثل الذي عليهن بالمعروف).

يقدم للمرأة تشريعات دقيقة وتعريفات واضحة، لما لها من حقوق، وإهتم لضمان حقوقها ويحث علي معاملة النساء بعدل ورفق وعطف؛ حتى إنه ضمن لها حقها من الميراث ووجود ذمة مالية منفصلة خاصة بها.

لكن استوقفني إباحته التعدد، إحترتُ كثيرًا بينه وبين باقي أجزاء هذا الدين الذي يصر على عدم تقليل شأن المرأة، لكن من الإنصاف هنا أن أنظر لظاهرة العشيقة التي تتواجد بكثرة في الدول الأوروبية وتنتهك حقوقها، على الأقل جعل لها شرعية بما يناسب رغبات البشر، تضمن للمرأة إطار لعلاقة محترمة بكرامة تنجو فيها من استغلالها كأداة

للشهوة، يعترف بها المجتمع ويصونها الرجل، فمَن رغب في تلك العلاقات الجانبية عليه أن يتزوج ويتكفل بكافة حقوق تلك المرأة، أو يبتعد عنها ويتركها لشأنها، إنه تلجيم للعلاقات أكثر منه تعدد؛ فالرجل عليه أن يفكر ألف مرة قبل إقامة تلك العلاقة الثانية التي لن يسهل عليه التخلص منها.

التهم الموجهة كثيرة وتطول؛ ولكني أرى أنه نزل في بيئة تأِد البنات خوفًا من عارهم، وتُستباح فيه أعراض النساء في الميراث ويتزوج به الرجل عشرين امرأة، أراه يفهم نفسية الإنسان وما يحتاجه ويضعه في إطارات مناسبة؛ ليحافظ على مجتمع مترابط.

كان إنقاذًا للمرأة من الموت والعار والاستعباد والمذلة والهوان كبائعة هوى وهل المرأة في أوروبا سعيدة الآن بوضعها، ألا تريد الاستقرار، والإنجيل يختلف عن كتاب المسلمين في محور أساسي؛ فحين يصور القرآن الإله بوجود متعال عن هذا الكون تمثل المسيحية الإله كأنه مباطن للكون ويظهر أمام البشر في صورة إنسان عادي مثلهم، وأعتقد لولا هذه النقطة ما وجد تضاد بين ما تهدف إليه الديانتين من قيم، وهذا المبدأ يتسع في المسيحية؛ ليصور العالم تحت إشراف قوى ثلاثية، الله، عيسي، والروح القدس وتارة يضيق ليصور كل هؤلاء كصور متعددة لإله واحد، ولم أفهم وجهة نظرهم في اعتبار عيسي إله؛ فلو كانت

الولادة دون أب ترشح للألوهية هي السبب، لكان آدم أولى بها، أو تلك الملائكة، الكائنات النورانية التي لا تخطئ أبدًا مثل أي إنسان.

أما اليهودية فلا ترى المرأة من الأساس، فلم تعتبر المرأة إنسانًا له كيان، لم تكن إنسانًا بل كانت مجرد شيء، تعتبر اليهوديّة المرأة أصل الشر في العالم، أو هي المسؤولة عن الخطيئة البشرية الأولى؛ لأنها بزعمهم هي السبب في خروج آدم عليه السلام من الجنة، ونرى ذلك بوضوح في التوراة، تعتقد اليهوديّة أنّ نجاسة ولادة الأنثى ضعف نجاسة ولادة الذكر "إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا تكون نجسة سبعة أيام ثمَّ تقيم ثلاثة وثلاثين يومًا في دم تطهيرها وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ثمَّ تقيم ستة وستين يومًا في دم تطهيرها"

حتى هؤلاء الفلاسفة الذين أثبتت عقولهم أقوى النظريات البشرية، والفلسفات لم يعطِ أحد للمرأة أهمية أو يراها فذلك المدعو "نيتشه" رغم أنه نشأ بين رعاية أمّه وأخته اللتين بقيتا معه طوال حياته حتى يوم وفاته وقامتا بمساعدته في أتعس أيامه قال عن المرأة عبارته الشهيرة "المرأة فخٌّ نصبته الطبيعة"؛ هو يرى أن المرأة مصدر كل الجنون واللاعقلانية، وهي الكائن المزعج الذي يشتت انتباه الرجل الفيلسوف عن مهمته في السعي وراء الحقيقة.

كان يحمل في أعماقه عداءً إن لم نقل كراهية للمرأة، كما فعل معظم الفلاسفة ممَن سبقوه كأفلاطون وأرسطو، رغم تلك البصمة التي تركوها على العالم بعدهم، لم ينصف أيًا منهم المرأة.

لم ينصف المرأة أي كتاب أو أي كاتب بقدر هذا الكتاب الذي أحمله بين يدي، الذي تعرفت عليه بكثير من التخبط والعتمة، أشعر بتسارع صدماته داخل عقلي، أصبحت لا أستطيب الأكل ولا النوم، أعاند النوم ولا أعرف إلى أين يقودني أرقي، لا أخرج ولا أريد التحدث إلى أي إنسان، شعرت أني أسد ثائر وسط حريق الغابة.

سيطرت عليَّ فكرة أن أجد الحقيقة الكاملة، كنت بطيئًا جدًا في القراءة، وكم قاومت نفسي لكي لا أسرع إلى آخره، تلك السور التي تبدو بسيطة وسهلة وسريعة لكني أمهلت نفسي كثيرًا.

تجولت داخله كسائح وليس كمتطفل لأرى كل الزوايا المختفية، أدور بين الكلمات هنا وهناك، تستهويني المقارنات والمتشابهات، عندما وصلت سورة (القصص)، أربكتني هذه الكلمات التي تبدو بسيطة، سريعة، مرت عليَّ مر الكرام بسورة 'يوسف' ...

"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" لماذا كانت هي أحسن القصص، هل هناك علاقة بينها وبين هذه السورة التي تحكي عن قصة نبي اليهود (موسى)، وجدت ذهني يذهب إلى المقارنة بين كلمة القصص هنا وهنا! كلاهما تحكي قصة نبي، هذا سقط في غيابة الجُبِ بينما سقط

هذا باليم، يجمعها ذلك الوقوع والسقوط إلى المجهول، إلى العتمة هذا دفعه إخوته للموت، وهذا أنقذته أخته من الموت!!

كلاهما فُتنا، (يوسف) فُتِنَ بالحب وقاوم ولم يسقط؛ لكن تشاء الأقدار أن يدخل السجن رغم براءته، في حين فُتِنَ (موسى) بالقتل وقتل بالفعل؛ لكنه نجا واستطاع الهرب!! كم من مرة نجونا بأفعالنا التي تستحق العقاب وبشدة، وكم مرة ظُلمنا بما لم نفعل ولم نرتكب!!

"""أحسن القصص """

ظل هذا التعبير يتغلغل بعقلي، ويثيره، أحسن القصص، قصة كل إنسان، السقوط والنهوض، الحقيقة والوهم، حيرة الأقدار، عدم توقع نوع البلاء والاختبار، صعوبة الخيار، النجاح والفشل مع النفس، تخبط المشاعر، والوحدة الأكيدة """الوحدة""" مهما رغبنا عكس ذلك.

الحياة رحلة للجميع بنفس المنحنيات، وإن اختلفت الأحداث، الجميع يسقط فيها يومًا ما في غيابة الجُبِ، الكل يتواجد ظلام قريب جدًا منه لابد أن يتذوقه ويمر به يومًا ما، الصعود من ذلك الجُبِ يعتمد كل الاعتماد على الإنسان نفسه مهما اِعتقد أنه مظلوم فقد ظَلم يومًا، ومهما شعر أنه مُقصى فلقد قَصي غيره يومًا ما، تلك الرحلة هي رحلة تعتمد على الإنسان نفسه، ويعتمد فيها الإنسان وحده على نفسه، يبدأها وحده، يعيشها وحده مهما تخيل غير ذلك ويخرج منها وحده.

الحياة ليست سوى فصل واحد من رواية طويلة، ينتهي هذا الفصل برحلة الموت، لعل (أحمد) صديقي يستمتع برحلته هناك، لعل أمي بخير وبانتظاري، الموت ليس نهاية القصة، الموت هو البداية التي يجب انتظارها، إنها نفس القصة للجميع.

أبدع ذلك الكاتب حين ذكرها بأحسن القصص، لأنها تشير إلى أمر آخر يغفله الجميع، فقد يكون أجمل شيء بحياتك هو أسوأها؛ بل هو سر شقائك الوحيد، فقد كان حب يوسف من أبيه نعمته ونقمته، وسبب لكل تلك الشرور التي تصاعدت في قلوب مَن يحيطه، وكان دخول بيت العزيز أمرًا رائعًا إلا أنه السبب في دخوله السجن؛ فلو علم (يوسف) لتمنى زوال تلك المنح من حياته، لكن دخول السجن رغم أنه كابوس لا يريده أحد إلا أنه سبب ليكون (يوسف) عزيز مصر فلا ندري أبدًا كيف تتلاعب بنا الحياة وأين المحن والمنح وما الفارق بينهما! هل هي تدابير عشوائية أم أن هناك من يخطو بقلمه تلك الأقدار؟ إنه النبي الوحيد الذي تحدث عنه هذا الكتاب دون معجزات كبيرة خارقة للعادة، كان مجرد إنسانًا عاديًا مبتليًا، استخدم علمه لفك رموز الأحلام، أكثر القصص التي تحارب اليأس بداخل نفس إنسان، كيف دبرت الأقدار حاجة عزيز مصر للأبناء، ثمَّ دبرت حاجة مصر كلها لتفسير رؤيا تغنيهم في السنين العجاف!! هل هي قصة حقيقية؛ حتى وإن كانت من تدبير الكاتب فقد أبدع فيها، وشغلت ذهني، وجذبت انتباهي.

بدأت نفسي تميل لكاتب هذا الكتاب وتتفق معه على وجهات نظر أساسية جدًا كلما تعمقت بالقراءة صار خصمي أقرب ما يكون لصديق حميم؛ لكني خفت كثيرًا عندما قرأت (والله خير الماكرين) شعرت أنه تهديد خفي غير معلن، الله وحده يعلم المعنى الحقيقي للقرآن ويهبه لمَن يشاء وكل مَن يقرأ يصل إليه معنى نعم كنت خائفًا ومرعوبًا، لا أدري هل خائف لأني على صواب! أم خائف لأني على خطأ! فكلتا الحالتين آثارت داخلي الرعب الشديد.

وآثار رعبي أن تترتب أمامي حقائق أساسية واضحة؛ لكني تعمدت تجاهلها، الله أعطانا تلك السلطة العليا لنخرج عن أوامره ونعصيه؛ ولكن لم يعطِ أحد القدرة أن يعلو على مشيئته.

إن الله يحرسك تحت مشيئته، ويترك لك كامل الحرية في معصيته، يتحكم بالأقدار لا بإرادتك، تذكرت يوم أن تسللت (حُور) للمعصية، وعصت إرادة الله ولكنها لم تعلُ على مشيئته حين وضعني مصادفة في طريقها، كيف وصل الحول بينها وبين قدرها إلى هذه الدرجة! وكأن حريتنا هي عين مشيئته، حريتنا هي منحة إلهية.

كالعادة كنت أتبلبل داخل النظريات، حين أعتقد أني وصلت إلى قمة الفهم، أراني لم أفهم شيئًا بعد، وجدتني أتناول هذا الدين كفلسفة، وكنت أعتقده دائمًا سيجارة أفيون لتخدير الفقراء عن ألمهم.

هذا الكتاب جعلني أكتشف معاني أخرى غير تلك الأماكن السطحية التي اعتدت النظر إليها، فلم تكن أي كلمة توضع هباءً لمجرد شغل مكان.

كانت المعاني تدور وتكثر وتزداد وضوحًا وعمقًا بداخل عقلي؛ لكنها مازالت تدور حول نفس المحاور الثلاثة، نحن هنا على الأرض كي نتزكى وننمو ونتعلم، عبر امتلاك القدرات العقلية، عبر امتلاك الاختيار والإرادة، عبر امتلاك التجربة والمعاناة.

كلما مررنا بالتجارب الحياتية المختلفة؛ كلما أدركنا العطاء والستر، وأدركنا تلك المعاني والمشاعر التي تربط جميع البشر، أدركنا معنى أرواحنا التي تئِنّ وتشتاق وتحب وترحم أكثر من أجسادنا كأننا في رحم الحياة؛ كطفل يكمل نموه استعدادًا لحياته الحقيقية، نحن نجزع عند الموت، كما يجزع طفل صغير عند ولادته، وقد يعتقد هذا الصغير أنه الموت، أنه النهاية، يخاف ويجزع ويبكي؛ وهو فقط يبدأ حياته.

هذه النفس المُتزكية، هي القوى الحقيقة التي نحملها معنا إلى الحياة الحقيقية؛ هي كل متاعنا الذي نحتاجه معنا.

انتهى النمو الجسدي، ونحن في الحياة بمرحلة نمو روحاني ونفسي، لم يكن الأمر هزليًا ولا للمتعة والتسلية كما اِعتقدت، لم يكن هناك رب يجلس على عرشه يشعر بالملل فخلق كائنات تمثل مسرحيات هزلية

حقيقية وتعذب بعضها البعض، كان للأمر أبعادًا أخرى، كان للأمر علاقة بالحب، إن العطية الحقيقية والمكافئة هي الحب، حب الله.

سيحبون الله ويحبهم، كان المعنى أن الله يعطي الرحمة والتعاطف والود والكرم والتوفيق للجميع بلا تفريق؛ لكن وحدهم المؤمنين تقبلوها ولم يرفضوها، عندما أحبوا الله، لا يرى ولا يتذوق ولا يشعر بعلاقة الحب هذه سوى المؤمنين، وأما من لم يؤمن فقد رفض علاقة الحب وقابل العطايا بالرفض، ترك الهدية الحقيقية خلف ظهره وكفر بها.

وحدهم المؤمنين سيختبرون علاقة الحب القوية تلك مع الله "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ"

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ"

"قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"

رسائل واضحة، لم تكن علاقة جبار بعبيده ولا علاقة طاغية بشعبه، كانت علاقة الهدف منها فقط الحب، ليس فقط في علاقتنا الأساسية مع الله بل أيضًا في علاقتنا الأساسية بالحياة، لن يضمن لنا الراحة النفسية هنا في هذه الحياة إلا الحب، في علاقتك بالبشر، لن تجد ذلك السلام الذي تسعى إليه إلا بتبادل الحب.

إن رحم الحياة هدفها الأساسي أن تنشئ مجموعة من البشر تنشئ بإرادتها الحرة هذا النوع السامي والقدرة على الحب، خلقتنا لنحبك، وكل الرسائل تدعو إلى الحب؛ لكن كان الأمر أكثر بساطة من كل هذا العذاب.

لماذا لم تبرمج عقولنا لحبك، وتتركنا في الجنة جوارك!! كانت هذه نقطة خلافي الأخيرة معه، التي جعلتني أتوقف وأبتعد وأرفض، إذا أردت الحب، أنت قادر على الحصول عليه، أنت خلقت كل هذه الدنيا في سبعة أيام، فأنت لن تعجز عن خلق هذا الحب بقلب إنسان.

لم أستطع أن أستبصر، وكان الباقي بين يدي القليل من صفحات الكتاب، ولا أريد ترك حلقات مفتوحة، أريد أن أنهي هذا الموقف؛ حتى يستريح قلبي ويطمئن.

هل أنا غبي؟ أم أن هذه النقطة لم يتحدث عنها هنا، إن كان هذا كتاب سماوي نزل ليختم كل الأديان؛ فلن يترك أي سؤال بلا إجابة، وهذا الكتاب بلا إجابة إلى الآن عن تساؤلي هذا.

الصلات التي تجمع قطع الأحجية عندي مفقودة، أشعر باليأس والكثير من الأسى، بعد كل مجهودي المضني هذا وصلت لنفس الباب الموصد لكنها محاولة جيدة من هذا الكاتب كادت أن تفتني وتقنعني حقًا، في كل الأحوال، لا أحد عرف إجابات هذه الأسئلة إلى الآن، لا يوجد عبقري عبر التاريخ اِستطاع اكتشاف الإجابات لهذه الأسئلة الفلسفية.

هذا الكاتب قام بمحاولة شديدة العبقرية قريبة من الكمال لكني لم أحصل على إجاباتي بعد، وأنا لن أقتنع ولن أؤمن به والصلات منقطعة لن أقتنع دون أن أصل لإجابات كل الأسئلة.

تركت الكتاب، وضعته على نفس المنضدة جوار هذه الكتب الكثيرة التي اضطررت للجوء إليها والمقارنة بينها، يائسًا محبطًا، لم أصل إلى أي نتيجة، بعد كل هذه الأيام الطويلة المضنية.

تركت كل شيء خلفي مبعثرًا ونهضت من مكاني، وذهبت لأستحم، غسلت جلدي وحككته بقوة، أود خلعه عني، أخلع عن نفسي رداء الغباء، رداء الحماسة الذي شغلت به صدري دون فائدة ترجى.

ارتديت ملابس أنيقة، وضعت بضعة قطرات من أفضل أنواع العطر عندي وتوجهت إلى خارج باب هذا السجن؛ الذي حبست به نفسي طيلة هذه الشهور، لكن قبل أن أصل للباب جاءتني صوت رسالة تصل لهاتفي:

(السلام عليكم أخي يوسف)

نظرت إلى الرسالة وانتابني شعورغريب لم أدرِ ما هو، سريعًا ما زال عني عندما عرفت سبب تعجبي

المرة الأولى التي تبدأ (ياسمين) معي الحديث...

- صباح الخير (ياسمين).

- أريد الحديث معك بأمر هام يحتاج كامل انتباهك، أمر كنت أؤجله منذ أول يوم تحدثت فيه إليك.

- ما الأمر، لقد أقلقتني!.

- حسنًا هل أنت منتبه لي؟ بكامل انتباهك؟

- تحدثي يا فتاة لم أعد أستطيع الانتظار بعد.

- كانت أسئلتك أكثرعمقًا؛ مما أستطيع الوصول إليه.

- ماذا تقصدين!...

- استعنت طوال هذه الفترة بصديق من أجلك، آن أوان لقائكما.

## ( ٢٩ )

(صفاء)

في الصغر لم يخبرني أحد لماذا أعيش؛ لكنهم أخبروني كيف أعيش، كان الدور مرسومًا بإتقان لا يجوز به الخطأ، أنا أعيش كي آكل، أشرب، أنام، أطيع، أذاكر دروسي وأنجح، ثمَّ أتزوج وأطيع زوجي وأربي أولادي كما تربيت، مطيعين، مؤدبين ومتعلمين، بعدها سوف أموت وقد أكون أسعدت كل من حولي، ولكني لم أعرف أي سر عن إسعاد نفسي!!

بعد الخروج من تلك المستشفى، قادتني خطواتي إلى منزلهم دون إرادة، عدت إليهم مرة أخرى، أحمل بصدري ثقل ذلك العرض بالزواج الذي لا أعرف كيف أنهيه دون أن أخسرهم، دخلت المكتبة ذلك المكان الوحيد الذي أصبح يشعرني بالقليل من البهجة، ويزيل عني ثقل أفكاري، رائحة الورق والرفوف الممتلئة بالكتب يشعرني أن هناك حياة أخرى لم أعشها بعد، تهلل وجه أستاذ (طه) بدخولي رغم أنه لا يراني ، ابتسمت رغماً عني لطيبة قلبه التي تشرح صدري، اقتربت منه، جلست جوار كرسيه قائلة :

- ماذا تريدني أن أقرأ لك اليوم؟

- اليوم لن نقرأ، اليوم أنت ستكملين حكاياتك يا شهرزاد.

ابتسمت رغم نغزة الألم الذي ظهرت داخل صدري، من تذكر تلك التفاصيل المميتة التي كنت أجاهد كي أتجنبها، أجبرت نفسي على فتح موضوع آخر كي لا أفكر بالأمر.

- طلب د/ (إبراهيم) مني الزواج.

تهلل وجهه بالسعادة المفاجئة؛ ثمَّ قال:

- وأنتِ ماذا قررتِ؟

- لا أملك تلك القدرة على البدء من جديد.

- لماذا يا ابنتي! أنا أجدكم متقاربين الشخصية ويسعدني وجودك الدائم جواري.

رغم سعادتي الجمة بما سمعته منه من ترحيب بالفكرة؛ لم أستطع الادعاء أمامه وتغيير حقائق أشعر بها بداخلي، تمتمت بصوت منخفض ومتردد:

- الحقيقة أنا تعيسة وخائفة ومرتبكة، أنا أكره نفسي وحياتي؛ ولا أريد أن أمر بهذه التجربة مرة أخرى.

- رغم كونه بطاقة خروجك من بيت أبيكِ!!

- لا أريد أن أفعل هذا، لا أريد دخول حياته كهاربة أو لاجئة.

- رغم تلك المشاعر التي أشعرها بينكما.

صدمت للحظة من كلمته، متى شعر ذلك وأنا بالكاد أصادفه؛ ثمّ بلعت ريقي بكل صعوبة؛ وقلت بصوت مرتعش:

- لكنه لا يعرفني! كيف يتزوج إنسانة لا يعرف ما حدث لها في حياتها الماضية؟

- يا طفلتي الحبيبة؛ هو يرى منكِ ما يكفيه، والحقيقة أن حياتك الماضية وما حدث بها لا يعني أي شخص، إنها ملكك وحدك.

- أبدًا! أبدًا لا أعتقد ذلك، الزواج ليس بهذه البساطة!.

- لا تنكري بتلك القوة؛ فأنت مازلت أسيرة خوفك.

- مم أخاف!.

- خوفك من أن يتركك ويرحل!.

نعم! كنت أخاف من أشياء كثيرة صعب عليّ الاعتراف بها، أخاف أن أفقده، أخاف أن يفقدني، أخاف أن أؤلمه، أخاف أن يؤلمني، أخاف أن يملني، أخاف من فقد تلك اللذة التي تعتريني عند اهتمامه واضطرابه وتوتره مع رؤيتي، كنت أسيرة خوفي وكان خوفي من أن يعود الغائب يومًا؛ فلا يجدني بانتظاره هي أسوأ كوابيسي.

أخرجني من كهف أفكاري مهللًا بصوته:

- البحث عن بعض الإجابات يحتاج إلى رحلة؛ لكنها لا تحتاج لمجهود السفر المعتاد، إنها رحلة غير اعتيادية داخل نفسك، نتيجتها التعرف

على ذاتك أولًا، كيف تفكر وكيف تحب وكيف تكره، رحلة تنظم علاقتك بنفسك أولًا قبل علاقتك بحياتك.

- أية إجابات؟ عن أي أسئلة؟

- لماذا تستحقين السعادة!

- لا أعتقد أني أستحقها أحيانًا.

- خطأ، ليس حقيقيًا، أنتِ ترين أنك لست أهلًا للسعادة ولا تستحقينها أبدًا، أنتِ تعاقبين نفسك عن أشياء لا ذنب لك فيها، قد يحدث حولنا يا عزيزتي ما لا نملك القدرة على التدخل به أو تغييره، ويجب أن لا يشعرنا هذا بالذنب تجاه أنفسنا طوال العمر.

صمت بضع لحظات وأنا أفكر قبل أن أعيد عليه السؤال مرة أخرى:

- أخبرني ماذا تريدني أن أقرأ لك؟

- أخبرتك أننا لن نقرأ اليوم أنت ستتحدثين أكملي قصتك.

يصر أن يعيدني لنفس النفق مرة أخرى رغم مجاهدتي للابتعاد عنه.

- لا أريد حقيقة أن أتحدث عن الأمر.

- أريدك أن تواجهي أسوأ مخاوفك وأسوأ كوابيسك ليلًا، وتستمعي لنفسك، فقد تجديها أصغر كثيرًا مما يصوره خيالك.

- هل هذا علاج نفسي؟!

- إنها ببساطة الفضفضة مع شخص يحب أن يسمعك.

تنحنحت و خرج مني زفير استسلام........

- حسنًا ببساطة قررت الهروب من تلك البلبلة بداخلي بتفريغها على الورق، كل أفكاري، كل خلجات قلبي وكل إحباطاتي وأيضًا كل تطلعاتي، كل شيء فرغته على الورق بكل صدق وصراحة.

- وما كانت تطلعاتك!..

انتابني الخجل للحظات لكن استجمعت شجاعتي، خرجت مني الكلمات ببطء شديد وصوت خافت:

- كانت تطلعاتي كلها عن الحب.

- كيف فرغتي هذا على الورق؟

- بدأت أكتب الخطابات والأشعار، وأكب مشاعري التي لم تلقَ صدى لديه.

- جميل، هل تعرفين أن أفضل شيء لمكافحة مشاعرك السلبية أن تكتبي؟

- بل لم يكن جميلًا على الإطلاق عندما رآه.

- كيف؟

مازلت أذكر ذلك اليوم المشؤوم كأنه أمس، لا تنفك تلك الذكريات بالظهور مرارًا وتكرارًا في كل لحظة بيومي، وجه أطفالي بآخر لحظات رؤيتي لهما، استيقظت بمنتصف الليل لابنتي تبكي بكاءًا شديدًا، لا أستطيع إسكاتها، كانت تشهق حتى أصاب وجهها الزرقة وأصابني الرعب الشديد، اعتقدت أنه ربما مغص فجهزت لها رضعة

الأعشاب وعندما هممت بإطعامها استيقظ (يوسف) وأتى إليَّ مذعورًا من صوت بكائها الشديد حملته بين ذراعي وقبلته وأخبرته ألا يجزع، أجلسته جوارنا بالفراش وأنا أحمل طفلتي الصغيرة أهدهدها وأحاول إطعامها، وقفت لأمشي بها قليلًا علها تهدأ وفي النهاية بدأت تسكن وتهدأ قليلًا، وقد ظهر على جبينها قطرات العرق وهدأت أنفاسها المتلاحقة وتشنجاتها، وأنا تجدد لدي الأمل أن تصمت أخيرًا، وأحظى بقسط بسيط من النوم والراحة بعد هذا الإنهاك.

جلست بها على الفراش جوار (يوسف)، وسندت رأسي على ظهر الفراش، وأنا أهدهدها على كتفي حتى صمتت وشعرت أخيرًا بأنها قد استغرقت في سبات عميق، غفت عيناي وأنا جالسة بها ولم أشعر بأي شيء إلا حين أشرقت الشمس وامتلأت الحجرة بنورها تعاكس عيوني ورغم ذلك لم أقوَ على النهوض لإسدال ستائر النافذة التي نسيت إسدالها .

نظرت جواري إلى (يوسف) فوجدته نائمًا بهدوء، حاولت وضع طفلتي جواري على الفراش وفرد ظهري الذي آلمني من الغفو جالسة ؛ لكني لاحظت بها شيئًا غريبًا، كان وجهها شاحبًا جدًا وعيناها شبه مفتوحة وكل ما بها ساكن لا يتحرك، يبدو عليها شئ غريب، طفلتي لم تكن تتحرك، لم تكن تتنفس، طفلتي...طفلتي رحلت بين أحضاني.

ماتت..

وأنا غافية...

صرخت وظللت أصرخ كالمجنونة لا أصدق ما حدث، لا أدري إلى متى استمر صراخي

لكني فجأة استيقظت على مشهد الكثير من الناس والملابس السوداء ويدي خالية، خالية تمامًا من طفلتي الجميلة.

لم تتوقف مصيبتي عند هذا الحد، في وسط كل هذا نسيت أمر دفتري، عثر عليه زوجي بجوار فراش الأطفال تلك الليلة، قرأها كلها ولا أدري أين وجد الطاقة والوقت في وسط هذه المصيبة ليتفرغ ويقرأ كل هذا.

- أكملي لماذا توقفتِ؟

- أكره تذكر كل ذلك.

- لا بأس من التحلي بالشجاعة لمواجهة أنفسنا!

- كم كنت غبية!

- كيف؟

- كتبت الأشعار والخواطر، كتبت عن الحب وحلمي به، كتبت أنه رغم أني تزوجت لم أجد السعادة، ولم يتحقق حلمي في الحب ومازال يطاردني هاجس فارس أحلامي كتبت أن الحياة في بيت أهلي لم تساعدني؛ أن أكون ناجحة أو سعيدة، كيف تأتي السعادة ولم يسألني أحد عن ما أفضله لحياتي، أنا دائمًا مدفوعة بطريقة ما لأمر ما لم

أخطط له، متى سأنجح وأنا لم أختر مرة واحدة، أنا فراغ يتحرك بلا وجود، أنا بلا كيان.

- وماذا فعلت أنت لتغيير هذا الواقع؟

- أنا لم أفعل شيئًا بل هم فعلوا.

- ماذا فعلوا؟

- زوجوني

- و لم تصبحي سعيدة كما توقعتي، حسنًا ابنتي!.. أول شيء يجب أن تتعلميه أنكِ المسؤول الأول عن سعادتك، أنتِ لا تستطيعين تغيير تلك الأشياء المؤلمة الكثيرة التي مرت بكِ؛ لكنكِ تستطيعين تغيير طريقة تفكيركِ بها، هذه ستكون أول شيء تفعلينه لتتمكني من الإمساك بحياتكِ وإدارتها، أول مفتاح ، اِطردي تلك الإشارات السلبية التي تهيم داخل عقلك .

وضعت كفي علي وجهي، وهززت رأسي كمَن ينفض الأفكار حقًا عن رأسه وقلت بصوتٍ متألم:

- حقيقة حاولت لكني لم أستطع.

- إنها خطوة ليست بهذه البساطة، إنها ليست ضغطة زر، إذا أردت طرد الأفكار السلبية والتحلي بذلك السلام الداخلي، يجب عليك أولًا أن تتعلمي المسامحة.

- كيف أسامحهم على كل ما فعلوا بي.

- لأنك أنت مَن يحتاج لهذه المسامحة أكثر منهم.

- أنا!

- أنتِ تتأذين من دور الضحية المهيمن عليك أكثر مما يتأذون، أنتِ مَن يحتاج الانتفاضة وليس هم، أنتِ مَن تريدين التحكم بحياتك وليس هم، اسمعيني وافهمي؛ يجب أن تعلمي أنه لو دخل كل منَّا قلب الآخر لأشفق عليه، لقد فعلوا كل ذلك لمعتقدات وخبرات سلبية استنفذت عقولهم، لم يتعمد أحد أذيتك؛ بل اعتقدوا أنها الطريقة الصحيحة لإدارة حياتهم، لذلك فكري أنتِ في الطريقة الصحيحة لإدارة حياتك أنتِ، هذه مسؤوليتك، لومكِ لن يغير الأمور؛ بل سيزيدكِ سلبية، اتخذي القرار بتغير ردة فعلك تجاه ذلك الموقف المر وعدم الاستسلام لأي إنسان يملي عليكِ أفعالكِ، لا تستسلمي بهذا الضعف للتعاسة.

- ويوسف!

- مَن يوسف؟

- أخذه مني وسافر؛ ولا أعرف أين هو الآن، أحرق قلبي على ابني.

- وماذا أخبرك عن القصة الأصلية ليوسف - عليه السلام، سقط وحيدًا في غيابة الجُبِ فعاد بعدها ليكون عزيز مصر ثمَّ أم موسى عندما خافت على وليدها فقال الله لها "أن ألقيه في اليم ولا تخافي إنا رادوه إليك" فألقته في اليم وحيدًا أيضًا أما أنتِ فابنكِ بين أحضان أب يحبه.

- لكني أخاف عليه، أريد أن أربيه بنفسي، وأتأكد أنه على ما يرام، أخاف عليه من الحياة.

- لا تخافي كوني على ثقة بالله، أدعِ الله ليربيه لك أفضل مما تفعل أحضانكِ، كما اِصطنع موسى وأنقذ يوسف، في كل الأحوال يا ابنتي، مستقبل جيل يحيى وسط هذا الركام الكثيف من سوء الفهم والتوجيه والضلالات الثقافية والاجتماعية، لا يدعو للتفاؤل كثيرًا وإن كنت إلى جواره، الشباب ضائع بلا هدف، مبلبل الخاطر مشتت المشاعر، يتخبط في الحياة بلا هدى، لن يعينه سوى العناية الإلهية من عند الله، أقصى ما تستطعين فعله له هو الدعاء.

- الدعاء؟

- نعم يا(صفاء) ادعِ الله له حتى ينقذه من غيابة الجب؛ لكن ما السبب لأخذه ابنك من بين أحضانك؟

- لا أستطيع الحديث عن الأمر.

- تختارين الحل الأسهل، تلومين الحياة والظروف والناس من حولك؛ لكن الحل الأفضل والأصعب أن لا تقفي كثيرًا أمام نفس الحدث، سيطري على نفسكِ وكبِّي هذا المشهد بعيدًا عن مخيلتكِ حتى تكفي عن رؤيته، تحدثي عن الأمر وستجدينه أسهل من تلك المشاعر المتكتلة فوق قلبك.

- إن الذكريات تطاردني بقوة.

- انظرى لها من زاوية أخرى.
- وهل يمكنني أن أعبر ذلك الألم!!
- مجرد حديثك معي الآن واسترسالك به يعني أنكِ تريدين عبور هذا الألم، مهمتكِ ليس فقط البحث عن السعادة، مهمتكِ كسر تلك الجدران والحواجز بداخلك التي تبقي الألم حبيس صدرك أولًا.
- بعد رحيل جميع الأقارب، طلب زوجي من أبي أن يأخذني معه ويرحل؛ فلم يعد لي مكانًا بهذا البيت، أخبره ببساطة أني لا أرقى لمكانة الأم، أني مهملة، أني لا ألتفت لأولادي وأحافظ عليهم، أني أشغل نفسي بأشياءٍ تافهة بلا معنى ثمَّ رمى أمامه دفترى بكل ما به من كلمات وددت لو أن الأرض تنشق وتبتلعني كنتُ أبتلع ريقي مُرًا كالعلقم، ألا تكفيني مصيبتي فيقرر بكل قسوة التخلي عني وفضحي أمام أبي وأمي
فرَّ أبي بالدفتر ثمَّ نظر إليَّ ولم ينطق كلمة، صمت ذلك الصمت الذي لطالما أرعبني بطفولتي.
فجأة شعرت بكفه يرتطم بوجهي بكل قوة وقسوة،....
اِهتز كياني كله واِنتفض، وسقط جسدي المنهك أرضًا،....
قام أبي بواجبه الفاضل كأب لابنة لا تعرف واجبها جيدًا.
عندما أرتعب يوسف وجرى إليَّ محاولًا اِحتضاني، أمسكه أبوه بكل قسوة قبل أن يصل إليَّ وقال له:

"إن أمك قد ماتت"

# ( ٣٠ )

(يوسف)

(((((((((( أأأأأأأأبي... ))))))))))

خرجتُ من حجرتي أصرخ كالمجنون أبحث عنه في كل أرجاء البيت لا أكاد أصدق، أمي، إنها أمي، لِمَ حرمني منها؟ كيف طاوعه قلبه الجامد؟ متى حدث ذلك؟ أين هو هذا الخطاب؟ لا أكاد أصدق ما يحدث حولي، كيف تمكر بي الحياة لهذه الدرجة.

كنت أجرى وأدور في أرجاء المنزل صارخا، أبحث عنه ، وجدته يجلس بكل هدوء بالشرفة؛ كأن لا أحد ينادي، هو حتى لا يحاول الالتفات والنظر إليّ:

- أأأأأأأبي،، كيف واتتك الجرأة لتفعل بي ذلك؟

- كنت أعلم أنك ستعرف يومًا ما!

يتحدث بصوت هادئ، صوت بارد، صوت لا يهتم؛ كأنه ميت بجسد يتنفس، لا يتحرك ولا ينظر إليَّ، قلت بنفس غضبي وقد استفزني بروده الشديد:

- حقًا كنت تعلم!! وماذا أعددت لي من مفاجآت أخرى!

- اجلس يا (يوسف).

صرخت به بكل قوة:

- لا أريد أن أجلس، أريد أن أفهم!.

- لا يمكنني إخبارك سوى أمرًا واحدًا، كان منظوري للأمور مختلفًا، كان الأمر كله مربك لدرجة أفقدتنا جميعًا التفكير الصحيح، قالها وهو ينظر للأرض، يضع يده مضمومتين على طرف فمه، نظرتُ له بكل حدة وأنا أشعر بالغرق داخل دوامة هذه اللحظة، أهي كل حجته، منظوره للأمور مختلف، تخبط، عدم توازن!! كيف أرد على هذه الكلمات، شلَّ المنطق والعقل بداخلي، فقط كنت أنظر له وأنا أنتظر أن يقول شيئًا آخر!

أمر هام، شيء جلي، سبب قوي جدًا، شيء يقنعني، شيء يمكن أن أتقبله بسعة صدر، أو قد أحاول اقناع به ذاتي حتى لا أكرهه كل هذا الكره الذي أشعره، هل كنت هنا أعاني الوحدة مع امرأة لا أعرفها ؟ وأمي هناك تعاني ألمها مع رجل غريب، خرج صوته أخيرًا، خرج ضعيفًا مرتعشًا، خرج كأن نظرتي تذيب الكلمات على طرف فمه:

- تفشل معظم الزيجات نتيجة الشعور بالغضب يا (يوسف)، غضب خرج عن السيطرة ولم نستطع التحكم به، الغضب يا (يوسف) يورث الكثير من العِند، الكثير من الطاقة التي إن لم تغلبها غلبتك،

لماذا تعتقد أن هذا العالم ظالم؟ لأن لا أحد يستطيع إدارة غضبه؛ ليتهم يضعوا قوانين لإدارة الغضب، كما يضعوا قوانين لكل شيء.

صوته البارد يلين رويدًا رويدًا، بطريقة لم أعهدها على أبي، والجمود بعينيه يعكس حفرة عميقة من الحزن والأسى، الألم والحنين، نظرة بعينه لم أرها من قبل تتطلع إلى العدم، لا يخاف مواجهتي؛ بل كأنه يخشى مواجهة نفسه، كأن هناك ضمير بداخله لم أعرفه يومًا، ينهش ببقايا قلب في صدره ويؤلمه، يده ترتعش والانفعال بدأ يظهر جليًّا على وجهه وهو يتحدث قائلا :

- عندما تجد شخصين غاضبين من بعضيهما فحجتهما غالبًا في الشعور الذي ولد بداخلهما، يشعر كل منهما بعدم الإنصاف والتقدير من الآخر أو من الحياة، يولد داخلهما شعور بعدم العدالة في التعامل على المستوى الشخصي، ويظل ذلك لسنوات طويلة وأنا بعد مرور كل هذه السنين فقدت الكثير من قوتي، أنا أشبه الحجارة التي تلين حوافها من كثرة هطول المطر، أشبه الحجارة التي تشقق؛ فيبنعث من داخلها ماء نقي، أنا مشبع وجع من الحياة وأعلم جيدًا أن مشاعرنا هي أكثر ما يخدعنا، أعلم جيدًا ما مشكلتنا، المشكلة الحقيقية عندما تمتلئ نفوسنا بمشاعر لا نستطيع تحملها، نحن أضعف من معظم مشاعرنا، تتدمر الكثير من العلاقات؛ لأننا لم نستطع تحمل مشاعرنا.

وضع أبي وجهه بين كفيه وصمت وهو يهز رأسه أسفًا؛ وأنا مازلت أقف مكاني لا أقوى على الكلام، ولا أقوى على الحركة، ولا أقوى على فعل أي شيء إلا الاستناد على هذا الحائط خلفي، تتهاوى قدمي وأفقد اتزاني، سقطت رويدًا رويدًا حتى جلست أرضًا، أنظر إليه ودموعي تتساقط ولا أدري ماذا أفعل، فهذا أبي، وهذه أمي الحضن الذي فقدته ومازلت أفتقده في اليوم ألف مرة، ماذا أفعل وكيف أتصرف؟

لحظات من الصمت، لحظات من الإنهاك، قلبي ينفطر ألماً وهو يعود للحديث قائلا :

- ذلك الصراع الذي قدته من أجل عدالتي الشخصية، أورثني الكثير من التعاسة يا (يوسف)؛ كنت أعاقبها على ذلك الجرح العميق الذي غرزته بصدري، تألمتُ كثيرًا بسببها وتألمت أكثر من قراراتي المتصلبة؛ لكني عدت يا (يوسف) نعم، عُدتُ وأنا أتمنى أن تعود معي؛ لكني إلى الآن لا أدري كيف استطاعت ببساطة أن تتزوج وتنسى أمرنا تمامًا، بعد خمسة أشهر فقط، تزوجت رجلًا آخر وبدأت حياة جديدة خالية من ذكرانا.

- كيف لا تفهم ذلك، (أمي) كانت وحيدة، تخلى عنها الجميع، أنت غير عادل، قاسي القلب، لم يكن لها غيرك وأنت تخليت عنها بكل بساطة

وتصادر على حقها بالحياة من جديد؛ رغم أنك تزوجت ولم تلتفت لذكراها.

- لكنها الأم!

- كيف واتتك إذًا الجرأة لتحرمني منها أيها الأب ؟

- كنت أعتقد أنها ستنتظرنا، كنت أعتقد أنها فورة غضب، وستعود كل الأمور إلى سابق عهدها، كنت أعتقد أنها ستتعلم من خطأها، لا أن تتمادى فيه.

- وباءت كل اعتقاداتك فشلًا، شكرا لك على إضاعة (أمي) بطيش قراراتك.

- ذهبتُ يومًا لمكان سكنها، نظرت إليها من بعيد دون أن تشعر، رأيتها تسير مستندة على رجل غريب، رجل غيري، وهالني ذلك الجبروت الذي رأيته بعينيها، لم تكن هي يا (يوسف)، لم أجدها ولن أجدها مرة أخرى.

- لعله لم يكن جبروت (أبي) ، لعله الغدر والجرح والوحدة.

- كنت أمر بمرحلة من الغضب الأعمى الخالي من أي ذنب، مرت السنون ومعها هدأ غضبي وأصبح رمادًا، كانت قد أصبحت جزءًا من حياة أشخاص آخرين ورغم ذلك شعرت أنه من الإنصاف أن يكون بينكما صلة، ليس من أجلها بل من أجل نظرة عيونك التائهة التي كانت تفطر قلبي.

- أين قلبك هذا؟

- أنت لا تعلم كيف أهتم لأمرك (ابني)، كم أحبك، ماذا أفعل يا (يوسف)؟هي لم تتمهل، أصرت على الرحيل، رحلت مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت رحلة بلا عودة، بلا أمل.

- لعلها أرادت تحقيق أمنياتك.

جاءني صوته يئن من الداخل كمن يكتم بكاءه....

- ااااه يا (يوسف) ، سقط قلبي مني في لحظات لا أريد تذكرها، فكرة الماضي وماخسرته أصابتني بألم عظيم وفكرة المستقبل دونها أصابتني بألم أعظم، علمت أني كنت أمتلك ذلك الأمل الكاذب أن أراها يومًا ما، أن أتحسس كفيها، أن تنظر لي بعينيها، أرى وجهها وأسمع صوتها، كان ذلك جزء داخلي أنكره بشدة؛ وأنخلع ذلك الجزء ألمًا عندما اِنقطع الأمل، تمنيتُ لو أن التاريخ يعود فأغير كل قرارتي، كل شيء، كنت لأغير كل شيء يا (يوسف) لكن الزمن لا يعود، الزمن لا يتمهل.

جرت الدموع على قسمات وجهه القاسي، تفيض كشلال منفجر لتوه، لكني لا أشفق عليه، فهو يستحق كل هذا الألم الذي يعذبه....

- أمي... كانت تستحق أن أحتضن كفيها وهي تتألم وحدها.

- أنا أيضًا تألمت، شعرتُ بالفقد أكثر مما تتخيل، اِعتقدت أنه سيسعدك أن تعلم أن الافتقاد ترك داخل قلبي بقعة صماء أشد فتكًا من شعور الغضب.

- لا شــيء يســتطيع أن يســعدني الآن، إلا ألمــك هــذا، أنــت خــدعتني، تركتني أتألم لخطأ لم أرتكبه.

- أنا آسف يا (يوسف).

- لا يكفيني أسفك، لن يعيد إليّ أمي.

كنت أتأمل وجهه وأنا أتعجب....

وجهـه يشـبه وجـه طفـل صـغير أخطـأ ويشـعر بالنـدم... لا أدري هـل أغضب عليه أم أحتضنه!

هل أبكي أمي! أم أبكي أبي! إنه نفس السبب للمعضلة االتاريخية...

إنه "الكِبر"...

إنه الكِبر يا أبي أصل كل شرور الدنيا.

## ( ٣١ )

(إبراهيم)

قلتها بصوت خانع متردد، أنظر إليها والجزع يغشى كل تفاصيل وجهي....

- لقد حدث خلل في هرومونات العديد من الغدد، تلك الهرمونات هي المسؤولة عن كل العمليات الحيوية بجسدك.

- لا أريد أن أسمع محاضرة علمية.

- هذه المرة عليك أن تفهمي هذه المحاضرة العلمية، هناك غدة في الدماغ تسمى الغدة النخامية، مسؤولة عن عمل كل هذه الغدد الأخرى .

- ثمَّ ؟

- هذه الغدة لا تعمل لديك بالمعدل الطبيعي، إنها تعاني خللًا ما.

- خلل من أي نوع؟

- أرجو ألا تهلعي من كلامي، الغدة بجوارها كتلة صغيرة تضغط عليها وتسبب بعض الخلل.

ما معنى كتلة صغيرة؟

- شيء يشبه الورم.

وضعت يدها على فمها وقالت مترددة:

- هل تعني أني مصابة بالسرطان!.

- لا بل ورم صغير وقابل للعلاج.

- أنت تحاول تجميل الواقع.

- لا لا لا، أبدًا إنها الحقيقة.

كنت أتوق لاحتضانها هذه اللحظة داخل قلبي، تقوقعت في المقعد الذي يحتويها، واضعة يديها على وجهها وبكت بحرقة شديدة، بكت بكاءً لم أره على إنسان من قبل وهي تردد:

- واااأسفاه على يوسف، وااااأسفاه على يوسف!

اقتربت من مقعدها جالسًا على الأرض جوارها، واضعًا يدي حول كتفيها؛ متسائلًا:

- مَن يوسف؟

************

مازال ذلك اليوم عالق بذهني رغم مرور السنين لا أنساه أبدً ابلحظات قليلة اقتلعت قلبي من هول حزنها وجزعها.....

أيضا لا أنسى ذلك اليوم الذي قفز فيه قلبي تلك القفزات المتتتالية، وهي جواري بفستانها الأبيض، تمسك القلم لتوقع على عقد زواجنا، لم أستطع التنازل عن تلك المهلة المؤقتة من السعادة جوارها، آملًا أن يمهلنا القدر بعض الوقت المجاني.

لم تفُتْني رعشة يديها الباردة حين دخلت منزلنا لأول مرة كزوجتي، أمسكتها أطمئنها كي لا تخاف غدر الأيام، كنتُ مُقدرًا ألمها وخوفها،

وذلك الهم الذي يملأ رأسها وكنتُ مقدرًا محاولاتها إخفاء كل ذلك عني كي لا تفسد سعادتي.

أعلم أن نصف قلبها قد انشغل وأنهك حنينًا (ليوسف)؛ لكنني مكتفٍ بنصفه الآخر أو أقل، أنا كنت على استعداد أن أقتات على فتات بواقي قلبها، كان يكفيني وجودها ورؤيتها، كان يكفيني منها أي شيء وأقل مقابل، لكن ذلك الحنين يفسد عليها واجبها تجاه نفسها ؛ بأن تحظى ببعض السعادة والطمأنينة ، كأن ضميرها يؤلمها أن تنال أي شعور من دونه.

دخلت منزلي ودخلت حياتي تمسها مسًا خفيفًا كورقة شجر خريفية، تذبل بين ساحات الحدائق الخضراء، تكتم ألمها، وتتحامل حتى تقف تعد لي طعامي، ثمَّ تودعني عند الباب وتهندم ملابسي، ونظرة عينها تبدي امتنانًا لهذه التفاصيل التي تشعرها أنها زوجة، لم تفهم أني أراها زوجتي دون حاجة لكل ذلك الإنهاك.

كوب الشاي الذي تعده لي صباحًا وهى تحاول الابتسام لإيقاظي كان أكثر إنهاكًا من هدم حائط كامل بالنسبة لها، لكنها أصرت على إعداده؛ حتى خانتها قواها وصارت لا تقوى سوى الرقاد في الفراش.

معها كانت كل الأشياء الروتنية البسيطة تتحول أعمالًا بطولية لإهداء السعادة، تغير لون كل شيء حتى لون الليل الكاحل أصبح له مذاقًا يزداد عمقًا لأنك إلى جوار مَن تحب.

كان كل شيء حولنا يمكن أن يكون متكاملًا لولا فقدان الأمل الذي تسلل إلى نفوسنا، الأمل في بقائنا معًا.

مرت الأيام تِباعًا وكما هو متوقع لم تكن حالتها تتحسن، رغم كل أمنياتي، انتصر المنطق، انتصر العلم، وساءت حالتها تمامًا بنفس التفاصيل التي قرأت عنها في عشرات الكتب وعشرات المراجع ، مرض قلبي، وصار يشكو ألمًا شديدًا لا يتحمله مثلما تشكو ألماً شديدًا وصداعًا لا تستطيع تحمله.

زيارات الأطباء لا تنتهي، وزيادة قلقي لم تنتهِ، مرت الأيام تتبعها الأسابيع ثمَّ الشهور سريعًا ولا تتحسن بأي صورة، يطغى عليها الألم والمرض والشحوب.

وجه شاحب، جسد هزيل لا يقوى على الحراك، أرى عليها طغيان المرض وجبروته ونفوذه ولسان حال كل من حولنا يتساءل، ما نوع هذه العلاقة؟ لكني كنت أنظر إليها كل يوم وأكتشف عشقًا جديدًا يزداد داخلي عمقًا، حفرت بداخل قلبي نفقًا لا يعبره سواها، ودفنتُ سرها عميقًا فلا يستطيع إخراجه أحد.

كل الكلمات تعجز عن وصف ليالِ الجزع جوار إنسان تحبه يزداد مرضًا ويزداد شحوبًا ووجعًا، تخاف فقدانه، لا تنقطع صلواتك ودعاؤك له أن تخف آلامه، ولا شيء أسوأ من صرخة صامتة

مستجدية بعينيه تقول ما كل هذا؟ رباااه ما كل هذا؟ أسوأ شعور تصل إليه أن تكتشف أنك بلا حول ولاقوة.
ينتفض قلبك ويترك مكانه ويصيح ويولول حزنًا لكنك تقف كالحجر الأصم، لا تجد ما تقدمه، عاجزًا عن مساعدته، تزايد هدد الأصناف من المسكنات والمهدئات والزجاجات والأقراص اللعينة، حتى الطعام أصبح ذلك ممنوعًا، وذلك لا تتحمله معدتها وذلك يزيد ارتباك أمعائها، وذلك لا تشتهيه نفسها، صار كل شيء حولها بلا طعم.
نحلَ جسدها وبرزت عظامه، رائحة المرض العضال هي الغالبة، تشطر قلبي بعينيها في اللحظات القليلة التي تستيقظ بها وتنظر إليّ،.....
لكني توقفت يومًا عن زيارة الأطباء وتوقفت عن المحاولات الباهتة في التعلق بالأمل الكاذب، وانقطعت عن إحضار المزيد من أصناف الأدوية ، انقطعت عني كل الأسباب إلا الدعاء، لا أملك إلا الدعاء والصلاة الصامتة يتلوها قلبي.
أعلم أنها أقرب للموت وأنا أماطل الأيام وأجادلها دون حجة قوية، أستشف بصيص حياة قد أسعى إليه؛ لكني لم أجد إلا رائحة الموت، تبًا لعلم لا يستطيع إنقاذ أحبائنا، تبًا لكل الكتب التي قرأتها، تبًا لكل شيء.
ظللتُ ألعن تلك الأيام حتى اِستطعت أخيرًا تقبل الأمر بكل استسلام، إنه الرحيل لا محالة!

أجلس جوارها ألازمها دائمًا في الأيام الأخيرة، أنا و أمها و أبيها الذي لم يعد يفارقها بعد العملية الجراحية اللعينة التي باءت بالفشل، يجلس يتحسس يديها لعلها تشعر بوجوده، ثمَّ يتمتم في أذنيها بكلماتٍ وأدعية لعلها تسمعه؛ لكنها لم تسمعه، ولم تستيقظ بعدها ولم تمد يدها تحتضن يداه، أصبحت جسدًا ساكنًا لا يقوى على فعل أي شيء، سوى الألم الصامت الذي يُترجم أنينًا مكتومًا من أعماق صدرها.

عجيبة هي الأيام، وعجيب أمر البشر، لا نتعلم الكثير ولا نلاحظه إلا بعد فوات الأوان، كيف يمر الألم فيحطم حاجز الغضب الكبير الذي تبنيه قلوبنا في لحظات الغضب ولا تتبقى سوى الكلمات المؤلمة الأخيرة التي نتمنى أننا لم ننطقها يومًا، لا تتبقى سوى الجراح التي سببناها والوعود الكبيرة التي قطعناها على أنفسنا أن نظل غاضبين، تقف حاجزًا كبيرًا بيننا وبين مَن لم نعشق مثلهم بهذه الحياة.

كان يتلصص إليها بطرف عينيه ليتأكد أنها لا تتألم، يرجو أنها نائمة بسلام، ووجهه يقطر ألمًا يغلفه بنظرة كبر لم يعد يجيده، يتلمس طريقًا مفتوحًا إلى قلبها دون أن يبوح، يقف حائرًا ما بين انفطار قلبه وغضبه الكبير عليها، تفاصيل وعلامات كثيرة لا يمكن تكذيبها ، كما لا يمكن تكذيب الفرص الأخيرة التي تهدينا الحياة.

هل كان الأمر يستحق كل هذا الغضب؟ هل كان يستحق كل هذا الجفاء؟ كل هذا الكِبْر!

هل هنـاك شـيء بالحيـاة يسـتحق كـل هـذا؟ علمنـي ذلـك أن اللحظـات الماضية لا تعود مرة أخرى، وأن الحياة لا تهدي الفرص عبثًا، علمنـي ذلك كيف أحتضن ابنتـي (ياسمين) فعلًا وقولًا دائمًـا، علمنـى ألا أهين الفرص بكبرياء مزعوم.

**أحبك، رغم كل شيء**
**أنا العالق بك منذ الولادة**
**كأنك كنت كل شيء**
**أنت القيد وأنت القلادة**
**كيف النجاة بأرضك أنت**
**وأنا الأسير بلا سيادة!**

## (٣٢)

(الأم)

كنت أبكي من أعماقي، ليس لأني مريضة بل لأن كل أمل لدي بأن أراه مرة أخرى قد انقطع أمامي، بكائي لم يخفف عني حسرتي، توالت الأيام ووافقت على عرض الزواج الكريم، كنت وحيدة جدًا، أكثر وحدة من محاولات عدم الاكتراث والتفكير والانتظار.

بعدها وافقت على إجراء تلك العملية الجراحية تحت إلحاح تلك النظرة بعيون (إبراهيم)، ذلك الحزن والأسى والخوف الذي أراهم بوجهه، لم أستطع أن أخذله هو أيضًا كما خذلت نفس تلك النظرة يومًا ما بعيون ابني، إن أسوأ ما في الحياة، أنها تجبرك على استنفاذ قواك في معارك لا تريد خوضها بل يدفعك إليها كل مَن حولك وكل ما حولك.

كنت أصعد سلالم المشفى وهو يقبض على يدي بقوة، لا أقوى على الحديث، فقط أختلس النظر إلى وجهه، كلي خوف أن لا أرى هذا الوجه الذي علمني الحب بكل معانيه، يغلفني الخوف من شبح الفراق الدائم الذي يطارد حياتي.

شيءٌ خفي يطاردني بفكرة وجوبية ألا أتعلق بأي إنسان، مهما بلغ حبي له، وانتمائي إليه، لابد أن يأتي الفراق، لا تتعلق إلا بالحي الذي لا يموت ولا يغيب أبدًا.

حاولت أن أقاتل لكني منذ بداية طريقي وأنا أقاتل، أقاتل مجتمعًا، أقاتل عاداتٍ، أقاتل قيودًا، أقاتل الناس، أقاتل الظروف لأحظى بحياة أشعرني كل ما فيها بالوحدة ثمَّ بالأخير أنا الآن أقاتل نفسي، أقاتل المرض، كل ما حولي أصبح يقتل شغفي بالحياة وشغفي بكل شيء.

أنا هنا أحارب وحدي كل الأشياء مهما اعتقدت أن أحدًا ما إلى جواري، أنا وحدي بهذه المعركة، كما كنت دائمًا.

وصلت إلى تلك الحجرة المحجوزة لي بالمشفى، لم يعطِ فرصة للممرضات لمساعدتي في تبديل ملابسي وتجهيزي ، ظلَّ جواري بكل خطوة، دون أن أطلب، دون أن أتوقع أن أحظى يومًا بهذا الحب، رمى بكل توقعاتي السيئة بهذه الحياة عرض الحائط، مبرهنًا بقوة أنه مازال بهذا العالم شيء يسمى الحب، وجهي هذا ظلَّ مجهولًا إلى أن اِتضحت كل ملامحي في نظرة واحدة ألقتها عيونه إليَّ ثمَّ لابد ألا أألفه كثيرًا أو أتعلق به.

الحب هو قمة الأمان، والأمان هو ما يجعل المرأة أنثى في علاقتها مع أي رجل، الأمان هو الصدق الوحيد بحياة المرأة، أساسه الشجاعة، الشجاعة التي يهبها لها الرجل في التعبيرعن عواطفها.

مازلت أذكر تجربتي الأولى، تلك السرعة التي بدأت بها علاقتنا بالانهيار أذهلتني ومع ذلك حاولت أن أحاول لكني كنت أفقد تلك الرغبة بداخلي لأقترب منه، لا أدري لِمَ لمْ أرِد المحاولة هل كنت

مسيرة تحت خمرة شعور لا أستطيع تفسيره ، أم أنـي فقط عـاجزة عن المحاولة، متخاذلة النفس، أبت كرامتـي محـاولات الاقتراب وأنـا أعلـم أنهـا محـاولات دائمـة مـن طـرف واحـد، بقلـب حـزين علمـت أن هـذا الرجل، ليس رجلي، ليس هنا، ليس ملكي.

أذكـر جيـدًا كـم تأزمـت وتأذيـت عنـد طلاقـي، الـذي أراه الآن منحـة ربانيـة، كـي يصـبح (إبـراهيم) جـزءًا مـن حيـاتي، كـي يعتـاد (يوسـف) فراقي وينساني، كي لا أرى التوجس والخوف بعينيه من لحظـة مـوتي الوشيكة حتى أني أحمد الله على موت طفلتي الصغيرة، أعلم الآن أنـها سبقتني إلى الجنة وأن لقاءنا قريب، يا لسخرية الأقدار، هـا هـي نفسـي تميل لأجزع مصائب مرت بي، وتنفخ فـي روحـي رضـا طيـب بأنـها كانت أفضل ما قدمته الحياة لي.

أنهيت ارتداء تلك الملابس الزرقاء لأدخل حجرة العمليات، رجفة بـرد شديدة رعش لها جسدي، سقطت منـي دمعـة حاولـت كثيـرًا أن أمنعهـا، أخشى أن تكون آخر ذكرياته منـي دمعـة، كم أنـا مودعـة غيـر رحيمـة، تركت نفس تلك النظرة الدامعة لولدي يوم رحيلي عنه،....

مررت لي رجفة البرد تلك قشعريرة رمت بـي إلـى ذكـرى ليـالي ذلك الشتـاء كـم كانـت قارسـة البـرودة، حتـى وصـل البـرد إلـى أعمـاق قلبـي وشعوري، أقضـي بهـا النـهار وحدي تمامًا مع طفلي الصغير، لا أتحدث إلا إليه:

- حبيبي (يوسف)

ينظر إليَّ ولا يفهم لكنه سعيد أني أتحدث إليه:

- اعذرني حبيبي أني لم أوفر لك الأم والأب اللذان تستحقهما.

ابتسم ابتسامات جميلة متتالية وابتسمت أنا بدوري رغم كل الحزن الذي بداخلي يطربه صوته وتطربني ضحكاته...

- هل تعلم أننا ثنائي لطيف، هل تعلم كم أحبك، أنت الشيء الوحيد الجيد بحياتي الآن، الشيء الوحيد الذي يستحق بقائي هنا.

كنت أسرد عليه تلك الكلمات رغم علمي أنه لا يفهمها..

تلك الذكريات جعلتني على حافة انهيار نفسي، لم يسرِ عني إلا نظرة (إبراهيم) لي، نفس النظرة التي كنت أراها بعيني (يوسف) يومًا ما، لم يحاول أن يفسر لي بالمنطق أو أن يعطيني حلولًا أو يهديني كلمات لن تستطيع استيعاب ذلك الموقف، فقط أهداني نظرة حب وتعاطف، أهداني مودته وغلفني برحمته، تلك النظرة بعينيه كانت تكفيني.

مشيتُ عدة خطوات أنظر من نافذة تلك الحجرة إلى الشوارع والمباني، نظرة مودع أم نظرة خائف، الشمس تختبئ وراء السحب تعود بي مرة أخرى لآخر شتاء مر بي مع (يوسف)، يقتلني حنيني إلى ضمه ضمةً

أخيرة، إلى سماع صوته، إلى معرفة بعض أخباره، هل هو بخير كما وعدني أستاذ (طه).

أمسك (إبراهيم) كتفي فأخرجني من سلسلة أفكاري معلنًا أنه الأمان، إنها اللحظة الحاسمة، فتح ذراعيه واستقبلني بين أحضانه، اِستدرت واِرتميت على صدره باكيةً بقوة دون أن أستطيع تمالك نفسي

- أرجوك، لا تبكي!.

- أنا فقط أشعر بانقباضة صدري.

- لا تخافي!

- أريد أن أرى (يوسف) واحتضنه بقوة وأشعر بأنفاسه.

اعتصرني بقوة بين ذراعيه وقَبَلَ جبيني....

توقف الزمن بنا لحظة في صمتٍ مهيبٍ ثمَّ حررني مرغمًا عندما أشارت إليه الممرضة بضرورة الذهاب إلى حجرة العمليات.

شددتُ على يده....

- لا تضيع أمانتي، أعطِ رسالتي ليوسف متى تقابله.

- لا تفكري بهذا الأمر، ستعطي الرسالة (ليوسف) بنفسك.

نمت على ذلك الفراش البارد في تلك الحجرة الباردة وكل ما ببالي وما أراه "وجه يوسف" ثمَّ ظلاااام!

****************

## (٣٣)

(يوسف)

هوايتي المفضلة، الزحف في الشوارع مثل طفل تائه، أو حيوان ضال، بلا هدى ولا هدف، فقط إشغال بالي، تفاصيل الشوارع والمارة، وأنوار السيارات العابرة تبارز عيوني وتلهب نظري، ككل شيء مررت به بحياتي، تركت له بيته وهربت، بعد تلك المشاداة غير المجدية، نقاش فات أوانه، ولا أفهم سر غضبي، فقد رحلت عني بكل الأحوال، تلك حقيقة كنت أعلمها منذ زمن، لماذا أشعر كأنها رحلت اليوم، أشعر بصدمة رحيلها تتجدد وتلهب قلبي كأنه خبر جديد لم أكن أتوقعه.

مازالت الحياة تصدمني، ولاتتهاون، لكن في رحلة شكي هذه، أعلم الآن يقينًا أن هناك إله لهذا الكون، متيقن أيضًا من عدم رحمته، لا توجد رحمة ولا عدل، إنها رحلة عذاب كاملة.

كانت البراكين تتفجر بداخلي، أين هو لأواجهه، أين هو فأسأله؟ لماذا ينأى بنفسه بعيدًا عن البشر، عن المعذبين، عن المتألمين! أسير خطى تائهة، بلا هدى، لعلي أجده أو أعثر عليه، مشيت ساعات طويلة، تتماسك دموعي كي لا أبكي، ويتصلب ظهري كي لا أسقط حتى

وجدت أثره، أليس هذا بيته؟ لعلي أجده بالداخل، لعلي أعثر عليه وسط مريديه.

فتحت الباب ودخلت، كان الناس يجلسون فرادى، مَن يصلي، ومَن يسبح، ومَن يقرأ بكتابه، ومجموعة صغيرة تلتف حول رجل يخطب فيهم، يلجأون إلى ربهم، ولا يدرون أنه تخلى عنهم، لا تحسبن تقدم العلم يفيد العقول بل العقول تتلاشى هنا في حلقة تدور في فلك هذا الشيخ الذي يجلس بينهم، يتباهى بما لا يعرف، ويبحثون عنده عن ما لا يملكه، لا يهتمون بالإجابات؛ فهم لا يعرفون الأسئلة، حتى أولئك الذين أجهدوا أنفسهم بالبحث، وصلوا فقط لأطرافها، ثمَّ سكنوا واستراحوا، لم يحاولوا التعمق أكثر، لماذا ترك الناس وحدهم لكل هذه الحيرة، لماذا لم يحنُ عليهم ويرِحهم ويهدِهم، لماذا تركهم فريسة التعسر والوجع.

صوت جهوري أجش، يشعل فتيل علل النفوس، وسط حلقة من تائهي العقول، أثار فضولي أن أجلس بينهم، أود حقًا أن أعلم ماذا يتواجد داخل تلك الرؤوس الصماء

"الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد، يا إخواني إن الله

يغضب على مَن يقارب محارمه، وعلى مَن يستهين معصيته، إن الله شديد البطش، شديد العقاب، قوي العذاب، كل مَن في الأرض وما في الأرض يخضع لأمره، مَن شاء ومَن لم يشأ"

- لماذا هذا الصياح، ألا يمكنك الحديث بصوتٍ أكثر هدوءًا؟

اِلتفتت كل الأعناق، إلى هذا الصوت الذي يجلس وحيدًا، ينظر إلى حلقة ذكرهم باستخفاف، والغضب يكسو الملامح، هل هذا السؤال لم يخطر ببال أحدهم يومًا فيعجبون من أمري، ألا يبالي أي من الجالسين أن يطلب منه أن يتحدث بصوت منخفض دون هذا الضجيج؟ ما سر إقبالهم على رجل يخوفهم من ربهم بشتى أنواع العذاب؟
اِلتفت إليَّ أحدهم قائلًا:
- أنا لا أفهم يا أخي، إن كان الدرس لا يعجبك، لماذا لا ترحل وتريح نفسك وتريحنا، سبحان الله!.
- هل هو بيتك فتطردني منه يا...... أخي!
لكن المتحدث تنحنح إشارة منه إليهم لتجاهل الأمر وإكمال الدرس وكأن شيئًا من لم يكن، يصيح بنفس الصوت الجهوري، يحتاج لمن يلقنه درسًا عن أدب الخطابة
"لكن رحمته واسعة، جعل الدين مفتاح الإغلاق، وجعل القرآن هداية الناس حتى نهاية هذا الكون"

ساعتها لم أتمالك نفسي، سألته ساخرًا:

- تلك الهداية التي صحبت الناس منذ بدء الخليقة هل هي حقيقة؟

أكمل حديثه كأنه لا يسمعني محاولًا لجم غضبه:

"الحياة يا إخواني، دار ابتلاء، دار اختبار، المسيء ينتظره العقاب والمحسن ينتظره الثواب، أمر لا مفر منه"

- هذا الامتحان مزوّر والنتائج مغشوشة، والله هيّأ للجنة أناسًا، وأجرى الأمور كما شاء، وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهزلية.

نهرني نفس الصوت السابق:

- لماذا جئت إن كنت لا تؤمن؟

- أنا هنا لأبحث عن ربك وأسأله، لماذا العبث بحياة الناس**!**.

- اخرس يا كافر.

- بل أنتَ الكافر ليست الحياة إلا رواية، يقوم كل أفرادها بما فرض عليهم من مواقف وكلمات.

لا أعرف عدد الألفاظ البذيئة التي اِنهالت عليَّ، ولا تلك الأيدي التي سقطت فوقي، لم أشعر إلا بهذا الرجل يحطني بذراعيه ويحميني بجسده وهو ينهرهم:

- هذا ابن أخي( سمير) ، عاد اليوم من أمريكا، هو لا يفهم لغتكم جيدا ولا يستطيع التعبير بشكل صحيح، ابتعدوا عنه.

رفعني الرجل لأقف وتأبط ذراعي ورحلنا وسط نظرات غضب ووجوه ثائرة، لم أنظر إليه ولم أتبين ملامحه إلا حين قال لي:

- ماذا تتوقع منه؟ مجتمع تثيره الغرائز بالأغاني، والصور والكتابات المنحرفة، تغزوه ثقافة تُصر على محو ثباته، والطعن في موروثاته، أربع وعشرون ساعة في كل يوم من الأسبوع، بيئة تطفح ليلًا نهارًا بكل الموبقات وهو لا يملك تلك الآذان إلا نصف ساعة كل أسبوع، هو في موقف لا يحسد عليه، كمَن يسرق منهم الوقت، إنه كضيف سُمح له بدخول البيت، لكنه لا يستطيع امتلاكه، يحاول أن يكون شديد الحيطة، فيصبح شديد التخبط، إن ذكرهم بالآخرة، زهد الناس بإحراز النجاح بالحياة، وإن ذكرهم بالدنيا، نسوا أن الموت يطوف فوق رؤوسهم.

- باختصار قل لي، اِعذر جهله وتقبل خِطابًا دينيًا سطحيًا هشًا لا يستوعبه غير عقل صغير بلا أمل في أن يفكر يومًا، لكني أتعجب حقًا من تقبلك لي بهذه البساطة ودفاعك عني بالداخل.

- درست بالخارج عدة سنوات لتحضير رسالة الدكتوراة، أنا دكتور بالكيمياء العضوية، علمتني تلك السنوات تقبل كل الناس بكل أفكارهم، في النهاية لا أحد سيء بالكامل أو مخطئ بالكامل، جميعنا نحمل أجزاء مختلفة من كل شيء.

- كيف لعالم مثلك أن يؤمن بغيبيات لا دليل مادي عليها؟.

- ممممم! إن أمورك معقدة أكثر مما تتوقعت، هل يمكنني أن أدعوك لكوب من الشاي؟.

- لا، شكرًا، يجب أن أرحل.

حرر ذراعي من قبضته وتركني لأرحل.....

- هل ستخبرني عن اسمك على الأقل قبل أن ترحل.

- أنا (يوسف) ،...

قلتها وأنا أهِم بالابتعاد عدة خطوات عندما استوقفتني كلماته:

- يوسف لو أن ابني مازال حيًا، لكان في مثل سنك، كان اسمه (يوسف) أيضًا.

أدرت وجهي اتجاهه وعدت نفس خطواتي للوراء مرة أخرى متسائلاً،.....

- هل ابنك مات؟

هز رأسه دون أن يتكلم، وقد اكتسى وجهه بعلامات الألم:

- كيف تشعر؟

كلي فضول أن أعرف كيف يدير الناس شعورهم بالفقد، كيف يتعاملون مع مشاعرهم، وكيف يستطيعون مواجهة الحياة من جديد، أطمئن أن الجميع يئنّ من الداخل، أطمئن أن الجميع ضعيف مثلي.
ابتسم بسخرية وقال:

- إنه ألم يصعب التحدث عنه أو وصفه، تعال معي، أحب حقًا أن أدعوك لكوب شاي وأتحدث معك.

ذهبت معه وفي نفسي حاجة لأستمع حديثه، لأتشاطر التجربة وأتشارك المشاعر مع مَن يفهم ذلك الوجع الذي أحمله بأعلى يسار صدري، جلست أستمع إليه يحدثني، لم أجد صعوبة في مبادلته الحديث، حديث لم أجده منذ وفاة ( أحمد)؛ كأنه صديق قديم أعرفه منذ الطفولة، أو كأن الحديث إلى غريب أسهل، حكى لي تفاصيل مرض ابنه لسنوات وموته، وتفاصيل حياته وألمه، وشكوت له همي الثقيل، شكوكي، وغربتي، ووحدتي، وتلك الشهور التي قضيتها أسير ذلك الكتاب، كنا نتبادل الأحزان، نواسي نفوسنا بالشعور المشترك بالفقد والافتقاد.
كنت أتعجب من ثباته وقوته، وأثار ذلك فضولي، سألته مباشرة دون مماطلة :

- ولم تفقد إيمانك رغم كل ما حدث !.

وضع يده على قلبه؛ قائلاً:

- ولو للحظة، لقد كان شفائي الوحيد اليقين بقضاء الله.

- لا أحب الفراق، أراه ظلماً كبيراً أن يخطف الموت الأحبة.

- وهل تريد أن يخلد الجميع للأبد! إن الموت ضروري لاستمرار الحياة، إنه سُنة الحياة التي لا مفر منها، لا يقين في الحياة يشبه ذلك المدعو الموت!

قلت متمتماً كمن يتحدث إلى نفسه :

- الحياة تنشأ من الفناء وتنكمش حول نفسها حتى تصل للعدم، ولا أحد يتريث قليلًا.

هز رأسه موافقاً وقال :

-حقيقة، الموت يتخطفهم الواحد تلو الآخر ورغم ذلك لا يكترث به أحد يا (يوسف) .

- كيف يمكن أن يتقبل الناس الموت دون جزع؟

- التمسك بالإيمان يا (يوسف) هو المفر الوحيد لمَن شاء ألا يتألم من الفراق وتصحيح الفهم في عقيدة القضاء والقدر.

- أي قضاء وقدر، ألا يذكر كتابكم أنه يعرف السر وأخفى، يعلم غيب السموات والأرض وكل شيء خاضع لإرادته، لماذا يُقدر لعباده الفراق والألم؟ لماذا يكتب عليهم الكفر؟ ما هذا التناقض؟!

- علمه نور يكشف وليس قوة ترغم الناس يا (يوسف).

- لا أفهم معنى ذلك حقيقةً، هل للإنسان حقًا إرادة حرة كما يدعي كتابكم، أم أن إرادته هي تنفيذ للدور الملقن له في الرواية.

- عجيب أمرك يا (يوسف)! بعد كل هذه الشهور من القراءة، تنزلق لنفس سؤالك الأول.

- ليس سؤالًا بهذه البساطة.

- بل بسيط جدًا أنتَ تملك يدين وقدمين هنا أمامي تفعل بهما ما يحلو لك، تملك عقلك وتفكيرك الذي تعارض به كل الأديان والعقائد، أنتَ الآن تحرك كل حواسك لتسبح ضد التيار ثمَّ تعود تتساءل هل أنا مَن يتحرك؟ أم أنا جثة هامدة؟ هل أنا حر؟ أم أنا مقيد ، كيف تعجز عن إجابة مثل هذا السؤال!.

- ما دور الأقدار إذًا؟

- الأقدار لتوزيع الأعباء على الناس، كما يوزع القائد جنوده بالمعركة بقدر هممهم، لا أحد يقف في مكان لا يقوى على تحمله، منهم مَن يتلقى الصفعة الأولى، ومنهم مَن يكتفي بالتأمل ونقل الذخيرة في المؤخرة.

لم أتفق معه، هززت رأسي مشككاً وأنا أخبره :

- هذا يضير بقاعدة العدل، يعطي قواعد وقوانين واحدة للجميع، ولا يضعهم بنفس الاختبار.

- يا (يوسف) النفوس كالمصابيح، هناك من يضيء كشمعة، ومَن يضيء كقمر، ومَن يضيء كشمس فلا تضع الشمس في غرفة ضيقة لتضيئها، ولا تضع الشمعة لتضيء مدينة، الله يهب الظروف المواتية بقدر طاقة النفوس، وكل إنسان له حسابه الخاص، بقدر فرصه وظروفه وقوته.

- لماذا إذًا لا أرى تلك الهمم والطاقات في الذين اتخذوا من الإسلام دينهم.

- لا تحسبن مَن حولك هم المسلمون، فالإسلام ليس شهادة مجردة من العمل، كلمة التوحيد ليست كافية، إنها البداية، أما الكمال فبالاعتقاد والعمل نطقوا بكلمة التوحيد ولم يفهموها، لا تحكم على دين الإسلام من سلوك المسلمين الآن، فتفتيت الصلة بين الدين والعمل سبب سقوط حضارتنا.

أتفقت هنا معه تماماً، فقد سقطت حضارتنافي بالفعل ، قلت له مؤكداً على كلامه :

- نمت حضارات مَن تلقبونهم كفارًا !

- أولئك نطقوا كلمة التوحيد ولم يفهموها، وهؤلاء فهموها وعملوا بها ولم ينطقوها.

- العمل! نعم؛ إنه العمل، كان من ملاحظاتي أثناء قراءتي لذلك الكتاب، ما من آية ذكرت الإيمان مجردًا، دائمًا تعطف عليه عمل الصالحات (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، فإذا ما عقدت مقارنة بين الهدى والضلال، ستجعل "الإيمان والعمل" كفة، و"الكفر" كفة أخرى.

- هل تعرف يا (يوسف) تلك التأملات التي حدثتني عنها، جعلتني أشعر أني لم أقرأ القرآن من قبل، فأنا أقرأه منذ زمن، ولم يقذف الله بداخلي تلك المعاني، أنا أراك الآن في اختبار يوازي همتك.

همتي!! سخرت من ذلك بداخلي، أي همة هذه؟ همتي تخبو، كلما تذكرت (حُور)، إنها معلقة بفكري ككل تلك الأفكار الأخرى، أعجز عن تصنيفها، أعجز عن الرحيل عنها، أو الاقتراب منها.

ذلك الاحتياج الفطري بداخلي لأمد غصوني، وارتفع بفروعي حولها أنبت داخلي شهوة لا أفكر بنتائجها، شهوة تصب النيران بأعماقي وتشعل أوصالي، كم حاولت ترويضها لتصبح ميلًا خفيًا بأعماق صدري؛ لكنه ميلٌ تجافيه الإرادة، يميل للإجرام برغبته بإصرار بالغ، كلما حاولت إلجامه جرحني بأعماقي، قد صارت جروح كثيرة لا تندمل أبدًا.

تجمعت عليَّ المآزق التي تحول بيني وبين قلبي، أصبحت أصارع نفسي في شتى الجبهات، الصراعات الأكيدة التي قدتها بحياتي، أصبحت جميعها، ضد نفسي ،...

جميعها ضد نفسي.

....

هزني صوته وأخرجني من أفكاري :

- لماذا أنت صامت وشارد، هل تفكر بجديد؟ أم مللت الحديث؟

- كنت أفكر فقط، بتلك الآية التي تعلق دائمًا بذهني.

- أي آية؟

- (والله خير الماكرين)، لا أدري لماذا هي عالقة، مبهمة مخيفة لي.

- مكر الله لا يشبه مكرنا، نحن نمكر لنخفي الحقائق، أما الله فيمكر ليكشف سترها.

خفق قلبي بقوة ساعتها، هل هذا هو المعنى الحقيقي، هل يتلاعب بي هذا الإله الآن ليضعني في ذلك الطريق عمدًا؟ هل أنا مَن يبحث عن الحقيقة أم أني دمية يحركها؟ نفضت تلك الأفكار العبثية المخيفة عن ذهني وغيرت حديثي.

- قطعت الإنسانية ثلاثة عشر قرنًا بعد رسالة محمد، خطت بها الحضارة شوطًا كبيرًا، ومازال الناس يتمسكون بالدين ويعتقدون أن الإيمان هو الحل، ماذا يفعل الدين لنا، ما الفارق الذي يحدثه الإيمان**!**.

- أنا أراها معجزة، يتغير كل شيء حولنا، ومازال نفس الدين بنفس العقيدة ترتكز على قواعد صلبة وتناسب كل الأزمان وكل البشر يتغير نفسياتهم، يتمسك به المحتاج فيجد غايته، يجد ملاذه، هذا دليل على حقيقته، الحقيقة لا تتغير مع تغير الأماكن والأزمنة.

- أنا لا أستطيع الإيمان بذلك، أنا لا أتقبل هذا الدين، ولا غيره، أنا كما تحب أن تسميني كافرًا، ملحدًا، شريرًا.

- الشكوك هي الموصلة إلى الحق؛ فمَن لم يشك لم ينظر، ومَن لم ينظر لم يبصر، ومَن لم يبصر بقي في العمى والضلال، الكثير من العلماء يا بني، قاموا بالتجرد من كل شيء، فآمنوا بكل شيء، فما تفعله الآن يا (يوسف)، ليس كفرًا أو إلحادًا، بل تَجَرُد ، أنت تسير في الطريق المؤدي إلى الحقيقة، والدليل أنك بحثت ومازلت تتساءل.

- التقليد الأعمى للاعتقادات والقيم الموروثة، أمر لا يمكنني التأقلم معه أو تصوّره، لم أجد سوى مذاهب يناقض بعضها بعضًا؛ فإما أن تكون باطلة كلّها، وإما أن يكون أحدها صحيحًا والباقي باطلًا، إنها مربكة لدرجة أعجز فيها عن فهم كيفية تقبل الجميع لها بلا أي مشكلة.

- الشك يتسلل إلى القلب، بشكل لا إرادي، أنا أفهم ما تمر به ولا أعارضك.

- أنت لم تخبرني بعد، كيف لعالم مثلك أن يؤمن بغيبات، لماذا لا تثق بحواسك وما تراه عينيك.

- أين الثّقة بالمحسوسات وأقواها البصر؛ وهي تنظر إلى السراب فتعتقده شيئًا لا تقدّم لنا الحواس أية فكرة عن الأشياء بصورة صحيحة، إنها دائمة الخداع لنا يا (يوسف)، الكثير من الفلاسفة فكر أن الحياة كلها قد تكون مجرد وهم أو خيال، كنائم يرى أحلامًا لا يشك بثبوتها واستقرارها، ثمَّ يصاب بالدهشة إذا ما اِستيقظ ووجدها مجرد حلم، أنتَ ترى الكواكب والنجوم بحجم ثقوب بالسماء وهي أكبر من الأرض عشرات الأضعاف حتى الأرض التي تسير عليها لا تكاد تمسك نفسها تحتك، كيف تتيقن من صدق هذه الحواس، لا شك أننا نعيش في عالم مملوء بالحقائق والقوى التي لا نعلم عنها أي شيء.

- وبذلك تكون علوم الطبيعة والفلك والطب علومًا معرّضة للشكّ القوي فيها، فما بالك بكتاب مات صاحبه منذ أكثر من ألف سنة، كيف تتوقع أن أؤمن به! أنتَ زدت داخلي شكوكي، أن كل الحياة قد تكون مجرد حلمًا لم نستقيظ منه بعد.

ضحك بصوت رزين ثمَّ نظر إلي وقال:

- تعمدت ذلك، أنتَ تبني مؤامرة كاملة على الشك، وتضن عليَّ أن أتذوق بعضه، هل تعرف الشيخ الغزالي؟

- نعم ذلك الرجل المتصوف.

- ذلك الرجل اعتمد الشك مثلك يومًا ما، كان وسيلته لاختيار منهج وتطهير عقله من أخطاء الموروثات، اِعتمد الشك كوسيلة وليس غاية،

شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني، ودخل في مرحلة من السفسطة غير المنطقية، لكن الطريف بالأمر، إن تلك الحقيقة التي وصل لها لم يصلها حسب قوله عبر العلوم الشرعية أو العقلية بل قال أن الله قد بث في صدره "نور الحقيقة" الإلهي فانكشفت له البديهيات والحقائق الأولى، في النهاية لم يعتمد على عقله لكشف الحقيقة بل ما زاده يقينًا هو ذلك الشعور الذي هز أعماق قلبه.

رددت وراءه جملته ساخرًا:

- شعور هز أعماق قلبه.

- سيصلك يومًا ما يا (يوسف) لكن عليك أن تكمل بحثك، لا تستسلم، مشكلة الغالبية مِن مَن مثلك أنهم لا يواصلون البحث والتفكير للتخلص من شكوكهم، هم يتخلصون من الدين للتنصل من الفروض والأوامر والنواهي واتباع شريعة الله، يركنون لهواهم، ويسمون أنفسهم ملحدين.

- لماذا لا يساعدهم هؤلاء الشيوخ بالمساجد؟.

- الحكاية أكبر من حصرها في جلسات النصح والإرشاد في حضرة رجال الدين.

- ليس صحيحًا بل رجال الدين لا يملكون إجابات لتلك الأسئلة، لا يملكون المنطق والفلسفة، هم أجهل مما يظنون.

- اسمع نصيحة من شيخ كبير مثلي، لا تكن شديد التعصب، تقبل الجميع، أنظر لكل إنسان من زاوية، من داخل قلبه، المتعصب يملك شكًا ارتيابيًا تجاه الآخرين وأفكارهم إنه على عكس الشك المنهجي المفيد، إنه مدمر لثوابت العقل ويقينه ومقدرته على التمييز، لكل إنسان منطق يختلف عن الآخر، ولا أعتقد أنك تملك المنطق ولا الفلسفة الصحيحة لتفهم كل الناس.

- حتى كتابكم، لا يجيب عن أسئلتي، كيف يغفل ربكم عن أفكاري إن كان يعلم غيب السماوات والأرض، وإن كان كتابًا لكل زمان ومكان أم أنه أيضًا لا يملك الجواب.

- القرآن لم يكن يواجهك في نزاع، لم يتصدى لك كمَن يتصدى لمعركة عنيفة، هو يتصدى لدحض شبهات الجميع كما يتصدى الفيلسوف للتعليم لعله راودك هذا الشعور وأنت تقرأه، تشعر أنه شيء يأتي من مكان بعيد جدًا، عاليًا، مقدسًا، لكن به صوت قريب جدًا منك، كلام موجه لطبيعتك، يخاطبك أنت لا غيرك، يتجاوب معك، يفهمك ولا يخيب أملك، صريح ومتلطف، يوجهك وأنت تنقاد لأدلته بكل إرادتك، تلك الإجابة التي لم تجدها، مرت بكَ، أنتَ فقط تغافلتها، أنتَ مرهق تحتاج لبعض الراحة والغذاء الجيد، أنتَ منهك القوى والمشاعر، شاحب كالموتى.

هززت رأسي مشككا وأنا أقول :

- لعل من كتبه ساحر، يجعل من يقرأه يمرض.
- لو كتب بيد بشر؛ فإنه بشر عبقري، خطاب ليس الواضح المكشوف الذي يسأم من قراءته الأذكياء، ولا يتحدث باللمحة والإشارة التي تُعجز الأغبياء، إنه حديث بين ذلك وذاك، يمشي على خيط رفيع بكل حرص، كي يكون قريب من الجميع، هذا النهج يا بني لا يخلف وراءه مرضًا.
كنت أعلم أن كل كلماته حقيقية فهذا السرداب السحري، اختطفني عدة شهور مخدر بداخله، منزوع الإرادة يوجهني في أي اتجاه شاء، لكني استعدت إرادتي وعقلي وذاتي وعدت أفكر من جديد، لذلك قلت له :

- أنت تمجد به أكثر من اللازم، إنه كتاب موجه للعقل في كل آياته، كان يجب أن يجيب على أسئلتي، لم أجد به الراحة من تلك التساؤلات بقلبي.

نظرتُ لساعتي؛ فتعجبت من مرور كل تلك الساعات الطويلة دون أن أشعر، وعدد أكواب الشاي المرصوصة أمامنا، الرجل يظهر عليه التعب وأمارات حاجته للنوم.
اعتذرت منه قائلاً :
- لقد أثقلت عليك اليوم، اسمح لي بالاستئذان كي تعود بيتك وتستريح.
- سأخبرك أمرًا واحدًا قبل أن ترحل يا (يوسف) لا تؤمن بشيء لا تقتنع به، لكن لا تتوقف عن البحث، الإنسان بدون عقيدة تعمر فؤاده،

كم مهمل، كائن منسحب بلا أهمية، والصراع بين الحق والباطل لابد أن يبلغ المرحلة التي ينزع فيها عنه ثوب الحياد؛ لكن الآن يا (يوسف) عليك أن تنال قسطًا من الراحة قبل أن تذهب وتستلم رسالة أمك ولا تتردد، اقرأها، واستمتع باحتضان حروف كلماتها.

ربت على كتفي بضع ربتات هادئة، ثم قام واقفاً ورحل وأنا أنظر إليه يمشي بخطوات تبدو ثابتة رغم ضعفه وأنين قلبه العالي ، أنظر إليه وأفكر بكل كلمة تركها لي...

كل كلمة...

## ( ٣٤ )

(الرسالة)

ابني الغالي...

قبل مولدك راودني حلم، لكني تناسيته، آتاني زائر لا أعرفه وأخبرني أنه سيرسل لي هدية ثمَّ سيعود لاستعادتها، أخبرني أن أستمتع بها قبل فوات الأوان، لم أتذكر ذلك الحلم إلا باليوم الذي أيقنت فيه أني لن أراك مرة ثانية، كلل ذلك الهاجس داخلي إصابتي بذلك المرض اللعين، وأنتَ مسافر بعيدًا في بلاد لا أعرفها، عرفتُ ساعتها أن حياتي كلها هي فرص قد يفوت فيها الأوان، لم أستطع الشفاء منه وذلك دفعني للتساؤل إذا كنت عاجزة عن مداواة جسدي؛ فماذا يمكن أن أفعل لجراح روحي؟

تلك اللحظات من السعادة والنشوة الأولى بيننا لا يمكن وصفها أو نسيانها مرت سريعًا كمر السحاب، بعدها توالت الأيام تمر كالبرق العاصف بحياتي، أنتَ لا تعلم كم تألمت في تلك الرحلة التي عشتها بداخلي بعد رحيلك، ولن تفهم شعور الدوامة بداخلي التي أبتلع باقي أجزائي، لم أستطع التغلب على ذلك سوى بكتابة العديد والعديد من الرسائل لعلها تصلك يومًا، إذا كنت تقرأ هذا، فإنها آخر رسائلي بل

رسالتي الوحيدة، تخلصت من كل الرسائل القديمة، ولولا محنتي هذه ما كنت أرسلت إليك سوى الرسائل الخاطئة، إن كتابة تلك الخطابات كانت أحد وسائلي للعناية بنفسي وبث بعض السلام بداخل روحي، والتمسك بالذكريات المبهجة داخلي، مازلت أذكر جيدًا آخر لقاء بيننا، كنتَ لا زلتَ طفلًا صغيرًا بريئًا، تتحلى بإيمان حقيقي يتمثل كله بالتعلق بذراع أمك؛ لكني خذلت ذلك اليقين بعينيك عندما لم أستطع الاقتراب منك وحملك بين أحضاني، أصابتني نظرة عينيك يومها بالهلع الشديد، ولم أستطع نسيانها أبدًا فقد أدركت وقتها أنك تخشى مواجة الحياة وحدك وأنك ستقوم برحلتك الخاصة بكل أملها وألمها وأهوالها دون أن تكون على استعداد، لم أتمكن من تلك الفرصة الأخيرة لأخبرك أن الرحلة بداخلك ستكون هي الأصعب والأكثر غموضًا وتشويقًا، إنها رحلة تتطلب منك الكثير من الشجاعة؛ لأنك ستخوضها وحدك بكل الأحوال في وجودي أو عدمه.

أعلم أنك كنت صغيرًا جدًا لذلك الدرس، لعلك فهمت أن الحياة تمر بالكثير من التغيرات وكل تغيير لابد له من خسارة ما، أو رحيل ما، لكن في المقابل ستشعر بالفخر عندما تتعلم التعامل مع تلك الضغوط وعندما تفهم ذلك الجانب الآخر من الألم، ستتعلم أشياء كثيرة عن نفسك، وعن الحياة.

قرأتُ يومًا رأيًا لأحد علماء النفس يقول أن الذين عانوا بالحياة هم مَن يحاولون دائمًا إيذاء من حولهم، لكني لم أصدق ذلك، أعلم يقينًا بقلبي أن تلك المعاناة ستكسبك الشجاعة وتفتح قلبك لتعلم الحقيقة، لتشق فلسفتك الخاصة، لترسم خريطة شخصية لك ولطريقك، لا تسألني كيف أعرف، فقد كنتُ أصلي كل ليلة كي تُشبهني، لتحمل نفس روحي، أنا أراك على الجانب الآخر من ذاتي، أراك في مرآة الزمن القادم، فقد أمضيتُ سنوات عمري أبحث عن تلك الخارطة بداخلي، متسائلة هل الخير بداخلنا فطرة أم علينا بذل مجهود لنحققه؟ هل أنا بحاجة للآخرين كما اعتقد أم أنها حياتي وحدي وعليَّ أن أتعلم كيفية خوضها دون خوف أو هلع؟ هل ستقصم ظهري الحياة بكل ما فيها أم تزيدني شجاعة ومرونة؟ قضيت سنوات كثيرة من عمري متسائلة هل أنا شديدة الذكاء أم أنني غبية لدرجة أن أعتقد أن تكون لي فلسفتي الخاصة عن الحياة وكنت أعتقد أن الخارطة الخاصة بي شديدة الوضوح إلى أن جاء ذلك اليوم ورحلت عن أحضاني، وواجهت خارطة أخرى جديدة وغريبة عني بنفس الوقت، ساعتها بدأت أتساءل عن أيهما الطريق الصحيح، ثمَّ أدركت أن لكل مرحلة خارطة مختلفة فلا تصلح خريطة الصحاري لاقتحام الغابات، لذلك في السعي بين قطبي الأمل وخيباته وقعت أكثر ذكرياتي، كم أصابتني الحيرة والتساؤل والتشتت والخوف والحذر والقلق خلال رحلتي .

اليوم فقط أستطيع أن أخبرك أني أصبحت أراها واضحة، كم أخذتني الحياة إلى طرق لم أتصورها، وجعلتني أواجه مواقف لم أحبها، وكم اِضطررتُ لخذلان نفسي، وتركت كثيرًا مما أحببته ورائي، كنت أعتقد كل هذا نوع من الفشل، لكنه لم يكن هو الفشل الحقيقي بل كانت معارك صغيرة للفوز بالمعرفة، أنا مثل كل البشر قد تكون رؤيتي خاطئة أو صحيحة لكني على يقين تام أن البهجة والمعاناة والحب والعاطفة والفراق هي من مكونات الحياة التي تمر بالجميع، هل تعرف ما الحقيقة التي قد تصل إليها يومًا؟

ستعصف بكَ الحياة، نعم ستعصف بكَ بلا رحمة، وقد تجبرك الحياة على عيش حياة لا تشبهك ولم تسعَ إليها، لكنك ستعيش، ستنظر حولك فتجد كل شيء ليس بالمكان الصحيح حتى أنت، لكنك تعيش، قد تعلم الحياة بتورم بعض جراحك، ولكنها ستؤلمك عليها مرة أخرى ولن تبالي لأمرك ، وأخرى وأخرى، ولا أحد يبالي.

وستكون وحيدًا جدًا رغم الزحام من حولك، ورغم أحاديثك الطويلة مع البعض، سيبتعد قريب ويقترب بعيد ويخونك صديق، سيكون هناك من ملك كل إحساس شغف مر في أوصال قلبك، ثمَّ يرحل ولا يهتم ويتركك تتألم، وتتوه منك الأحلام ويضيع منك الحب ثم تكتشف أنك وحدك وقد تتألم، تكتم ذلك السر الذي يمزقك ولا تستطيع البوح به، ثمَّ تعود تتألم مرة أخرى ستخطأ أحيانًا ولن تغفر أنتَ حتى لنفسك، خاصة

مـع تلـك الـدائرة التــي تحيطـك ولا تتغيـر، التــي تجبـرك الحيـاة علــى المكــــــــــــــــــــــــــوث بهــــــــــــــــــــــــــــا.

قد تبكي كثيرًا كثيرًا وتتألم كثيرًا ثمَّ تستيقظ يومًا معافى، ولم تعد تبالي، كأن شيئًا لم يكن، تمر على نفس جراحك المفتوحة لا تنزف ولا يقتلك الألم، تتضح لك الرؤية فلا تتألم ولا تهتم، لا تتعلق كثيرًا بأي شيء ولا تقدس وجود أي إنسان.

تكتشف الحقيقة، أنك أخيرًا قد نضجت، وأن كل ما مر لم يكن سوى خطط الحياة لجعلك تصمد ، كي تكسر تلك الدائرة وتتحمل المغامرة وتنـتفض مـن القيـود، تكسبك الـذكاء كـي تسـتطيع التخطـيط للهـرب.

كي تفقد المبالغة في اهتمامك للأمور ولا تحمل نفسك فوق طاقتها، تبدأ بمراقبـة الحيـاة مـن خـلال الإطـار ولـيس الأحـداث والأشـخاص، تنتبـه لألوان اللحظات أكثر، لن تخاف بنفس القدر سابقًا، رغم أن خوفك قد يكون أعمق.

ستتقن الهروب من العبارات المؤذية، ستحب أن تعطي لأنك تستمتع بالعطاء، وتضحك دون حذر كما تبكي دون أن تخشى، ستلتقط لحظاتك أكثر من خوفك من عيون الناس، تترك الجدل باسمًا ، ولا تهتم لرأي الآخرين ، العمر يصبح مجرد رقم لن تهتم لـه طالما تحمل قلبًا يافعًا، وإن قل عدد الأصدقاء، سيمر الجميع عليك بسلام دون أن يستوطنك

أحد، ستتساقط كل تلك الإطارات التي حجزتك لفترات طويلة واحداً تلو الآخر.

ابني الحبيب الغائب البعيد ، أعتذر إليكَ بشدة؛ لأنني لم أتمكن من بذل ذلك المزيد الذي حلمت به من أجلك، أخاف عليك من الغضب الناجم عن ذلك، إن البشر تعاني إذا لم تشعر بتلك العدالة التي تتوقعها، أريدك أن تكون على استعداد لخوض المعركة مع غضبك وتحويله طاقة تستوعب الآخرين، إن فعلت ذلك قد يصبح عالمك أكثر رحمة، أو تحولها طاقة لخوض المعارك من أجل نفسك ومستقبلك.

وأعتذر لكَ أيضًا عن كل هذا التخبط والتردد والعبث قبل أن أكتشف قلة حيلتي في استعادتك، لكني فهمت الآن أن أقصى ما استطعت تقديمه لك هو تنفيذ إرادة الله، اعتقد أن الحياة هي مَن ستهديك الجذور التي لم أهدِها لك وأيضًا الأجنحة، تلك الجذور التي تشعرك بالأمان والأجنحة لتكون حرًا في البحث عن ذاتك، مهمتك ببساطة أن تثق بحواسك وتستزيد من الحكمة التي تجعلنا بشرًا.

(يوسف) لقد أوشكت على الموت، ما يؤلمني حقًا ليس فكرة الموت نفسها بل فكرة أنني لم أعش بجوارك، فكل لحظة كنت بعيدًا عن أحضاني كان موتًا بطيئًا بمنتهى القسوة، كنت أخاف عليك كثيرًا وأخشى عليك؛ لأني لم أستطع تربيتك كما توقعت وكما خططت لك، لكني قابلت رجلًا حكيمًا يومًا، قال لي أني شديدة السذاجة إن اعتقدت

أن الأم تربي أبناءها، قال لي الأم تحنو وتحب وتدعم وتدعو وتصبر ، أما المربي الحقيقي فهو الله، يختص بهداه مَن يشاء، وأنا صدقته، فلم يكن في وسعي لك سوى الحب والدعاء والصبر.

أكثر ما أتمناه لك هو السكينة، عندما أموت سينتابك الحزن؛ لكني أتمنى أن يغمرك شعور البهجة والحب عند تذكري أكثر من ذلك الحزن القاسي، إن الحزن يهزم الإنسان فلا تجعلني سبب انهزامك، أما الحب سيساعد جراحك على الالتئام، لقد رأيت أشخاصًا عانوا بحياتهم يتجاوزون الألم، يفتحون قلوبهم ويواجهون حزنهم بشجاعة بينما يظل البعض أسرى آلامهم إلى الأبد  قابعين في غيابة الجُبِ، صدقني الوقت سيغمر ذلك الشعور بالأسى الذي تراه أحيانًا على السطح، إنها الأيام كفيلة بمداواة كل ألم شعرت به مهما بلغ عمقه، في الأخير ما أريد أن أنقله إليك الآن هو شعور تعجز كلماتي عن التعبير عنه، ذلك الشعور الذي نشعره عند النظر إلى عيون شخص نحبه.

كم أحبك يا (يوسف)، مرت أيام كان هدفي الوحيد ذلك السلام الداخلي الذي ظننته موجودًا في التواصل مع حبيب؛ لكني اليوم فقط اكتشفت الحبيب الحقيقي الذي لا يخذل أبدًا بهذه الحياة.

إنه الله يا (يوسف).

(أمك صفاء)

## (٣٥)

(يوسف)

- لم ينسَها أبي يومًا ولم يكف عن الحديث عنها، كان دائمًا يقول لي أمك التي لم يحملك رحمها.

قالتها (ياسمين) وأنا أطوي الرسالة بين يدي، أنظر إليها وأتأمل براءتها الطفولية، وأنا الآن أعلم سر هذا الارتباط القوى بها....
لا أصدق كل ما حكت هي وأبيها د/(إبراهيم)، لكني أستمع لهما بآذان متشوقة لكل تفصيلة مهما بدت صغيرة ، ربت د/(إبراهيم) على كتفي قائلًا:

- لقد أسعدتنا زيارتك اليوم يا ( يوسف).
جلست بينهم أبادلهم النظرات، رجل طويل خمري اللون بشعر متجعد بدأ الشيب يتسلل إليه، فتاة هادئة رقيقة تغلفها هالة وقار غير مألوفة ومحبوبة، كنت أشعر دائمًا أن (ياسمين) قريبة جدًا من نفسي، لكني لم أتخيل أنها أختي التي لم أعرف عنها يومًا، قلبت نظري داخل هذا المنزل رغم كونه بسيطًا لكن يغلفه جو من الرقي والعراقة، شعرت أني انتقلت بالزمن إلى منزل بالعصور القديمة، هناك لوحات رائعة بالخط العربي تزين الجدران وكراسي من الأرابيسك القديمة وسجاجيد

من الأشغال اليدوية رائعة الألوان ورائحة البخور العربية تتصاعد في المكان دون أن ترى منها أثرًا، منزل يغلفه جو من الراحة والسكينة، والجمال الهادئ، ورائحة المكان كانت الأشد سطوة وديمومة وسحرًا وإدهاشًا، اِلتقتطها منذ أن خطت فيها قدمي هذا البيت، تعطي نشوة وثقة، رائحة كريمة، تستعمرك بكل سعادة واستسلام، ما أن تمكث قليلًا داخل المنزل حتى تصبح جزءًا لا يتجزأ منك ومن شعورك، من وجدانك العميق لتعبر عن حضورها الفخم حولك.

نظر إلى أبيها مبتسماً، تتجلى على قسمات وجهه شعور الراحة، شعور الأبطال ، شعور من وصل لغايته أخيراً وهو يحدثني بكل ود :

- عندما عثرت عليك (سارة) صدفة على الفيس بوك كنتُ سعيدًا جدًا، فقد كنتُ أبحث عن مكانك منذ رحيل أمك، ولم أستطع الوصول إليك، لم أعرف كيف أصارحك أو أتحدث إليك، كيف أوصل إليك خطاب أمك خاصة بعد أن قرأت ما كنت تكتبه وعلمت باتجاهاتك الدينية، خفت أنك لن تهتم لكني كنتُ أحمل أمانة ثقيلة عليَّ يجب توصيلها بكل الأحوال.

ثم أشار إلى سارة قائلًا:

- لم تستسلم سارة، بدأت بالتعرف عليك بالتدريج، فلم يكن سهلًا تعريف نفسها بأنها أختك.

مازلت أجلس أنظر إليهما ولا أنطق، تركت لهما دفة الحديث كاملة، أنا أريد أن أعرف كل تفصيلية، وهو ظل يحكي ويحكي....

-لم أكن يومًا لأحاول مقابلتك، أو أفتح تلك القصة التي بدا أنك لا تعرفها، لكني كنتُ ملزمًا بإعطائك أمانتك، أرادت أن تحصل عليها عندما تستطيع فهمها وتقدير قيمتها، قالت لي في كل الأحوال إن الموت كان قدري.

نعم كان موت أمي قدرًا لكن تعجله أبي، كان علي أن أعترف بذلك وهو يجلس جواري كصديق قديم يحكي لي عن أمي،التي يعرفها أكثر مني، كيف قابلها، وكيف حاول مساعدتها وكيف تزوجا وكيف كانت رحلة مرضها، أريد حقًا أن أكره ذلك الرجل من أعماقي لكني لم أستطع أن أكرهه رغم ذلك، سارق أمي من حياتنا، توقعت أن أقتل ذلك الرجل الذي قطع علينا الأمل لرجوع أمي، لكني شعرت منه الكثير والكثير من الألم لقاء فقدانها، يبدو أنه أفضل ما أهدت الحياة لأمي في رحلة مرضها، ولا أدري ما الذي أغرى رجلًا في مقتبل حياته في امرأة تحتضر سوى أنه أحبها بصدق، كيف ألومه أنه أهدى أمي الحب والسعادة في أصعب أوقاتها حين تخلت عنها كل الدنيا ، لم أستطع أن أهدي له هذا الكره ولم أَلُمْه، أشعر تجاهه بامتنان أغار منه وأقاومه، كان جوارها، وأنا لم أكن هناك.

سألته مباشرة دون مقدمات كثيرة بعد أن أنهى حديثه الطويل :

- لماذا تزوجتها؟

كان سؤالي مباغتًا، كان سؤالًا يلح بمرارة داخل صدري....

- لا تحاول دائمًا تفسير العلاقات الإنسانية يا (يوسف).

رددت بكل ثقة :

- لا أؤمن بشيء يسمى العلاقات الإنسانية.

هز رأسه أسفاً ونظر إلى مباشرة من تحت عدسات نظارته قائلا :

-أنت لا تؤمن بالعديد من الأشياء المميزة بهذه الحياة، العلاقات الإنسانية تشبه من يزرع نبتة وينتظر جوارها حتى تنبت وتُخرج ثمارها، عليك بذر الكثير من الحب والتقبل واحترام الاختلاف، مع بعض الري بالثقة والتضحيات والصبر، الصبر على رعايتها واحتضانها بالمودة حتى تصل يومًا إلى ثمارها، قد يكون المجهود مضنيًا لكن النتيجة تستحق يا (يوسف)، هذا الدرس يتعلمه الناس بعد فوات الأوان يفقدون الحصول على ثمرة طيبة بالحياة.

لم أستطع مقاومة السؤال التالي بداخلي، قلت له :

- لماذا كلفت نفسك محاولة مساعدتي ومساعدة (ياسمين) في إيجاد أجوبة لأسئلتي الكثيرة؟

- عندما تريد الاقتراب والحب من أحدهم عليك أن تتشارك معه شيئًا ما يكون رابطًا، كان هذا الرابط الوحيد الذي يصلني إليك، كنتُ أود حقًا رؤيتك والتعرف بك.

كلماته قذفت كسهام مباشرة إلى قلبي، لم أفهم لماذا، لكن هذه الجملة أشعرتني براحة غريبة لم أستطع تفسيرها ، مكثت باقي اليوم معهما تحت إلحاح شديد ألا أرحل، أجلس بينهما، أسمعهما ولا أعِي كل الكلام، فقد كانت جملته تلك لا تفارق ذهني.

"عندما تريد الاقتراب والحب من أحدهم عليك أن تتشارك معه شيئًا ما يكون رابطًا "

حلَّ المساء، ألحوا عليَّ للبقاء معهم، لم أعترض كثيرًا، فقد كان الأمر مغريًا أن أبيت ليلتي على الفراش الذي يحمل أثر أمي، نمت كما عادتي بعد الحديث مع (ياسمين) ، يغلفني هدوء وسكينة، نمت على فراش أمي وبلل دمعي فرش وسادتها، أبحث رائحتها بين تلك الوسائد، شعرت ذلك التأثير الذي يملأ نفسي بالحنين إلى بقايا ذكريات بعيدة من الماضي كما الأطفال، شعرت السكينة ودفء العائلة التي لم أجربها يومًا وأنا أحتضن سريرها.

لا أدري كيف استسلمت جفوني للنوم لكني استيقظت في الصباح بعد نوم ليس بقصير، فتحت عيوني وتأملت كل ما حدث معي، تطوف بذهني العديد من المواقف والذكريات،و الأحداث المتوالية، والأفكار

مـرض أمــي، وحــدة أبــي، مــوت( أحمــد) ، غربــة ( حُــور) وثقــة ( ياسمين) .

الأفكار القديمة تتراص أمام عيني وتتهافت على عقلي بصورة مفاجئة، غير متوقعة؛ كـأني حاسـب آلـي يعيد برمجـة ذاتـه و ترتيب محتوياتـه، أجزاء تلك الأحجية المستعصية تتراص أمـامي دون عنـاء كبير وعلـى رأسـهم رحلـة الشـهور الأخيـرة مـع القـرآن، ذلـك الكتـاب أعطـاني كـل الإجابات لكني كنت أتجاهلها، تجاوزتها أكثر من مرة وهي أمـام عينـي وعدت لبداية الخيط، كيف وصف الله نفسه؟ الله لا يمكن مقارنته بأحد، ليس كمثله شيء، لم يكن له كفوًا أحد.

لا نسـتطيع أن نحيطـه بحـدود عقولنــا، يختلـف عنَّــا كثيـرًا ولا مجـال للالتقاء؛

إنه لا يفنى أما نحن فنفنى.

لا يحده الزمان ولا المكان، أما نحن فعالقين بين المكان والزمان،

لا يوجد أي وسيلة مقارنـة أو تقارب بين الإنسـان وربـه ويصـر القـرآن دائمًا أننا لن نستطيع فهم كنة الله أو هكذا اعتقدت، أنه يبالغ في الوصف ،لكنه ظل يعطيني الإشارات.

الغفـور الـودود، السـميع العلـيم، الحميـد المجيـد، البـر الـرحيم، الـولي النصير، العدل، الحق، الكريم، السلام، العديد من الصفات تترامى عبر

كل الآيات بهذا الكتاب لتخبرني عن ذلك الإله وفي نفس الوقت يخبرني عن نفسي وذاتي وكينونتي أنا الإنسان وأعطاني كل المفاتيح.

الإنسان بداخله كل ما يبحث عنه ويحتاج،

داخله التعاطف، داخله الرحمة، داخله العطف، داخله العدل، يحمي الضعيف، يدافع عن المظلوم، متعلم، حكيم، الإنسان محب ، كيف لم ألتفت؟

إنها نفس الصفات التي يتمتع بها المؤمنون الذين يحبهم الله ويحبونه، تلك القائمة التي نتمتع بها ونحملها بداخلنا مصدرها الأساسي، هو نفحة من الله تجمعت آخر أجزاء الأحجية وبدأت تتضح أمامي الأمور.

إنها الطريقة الوحيدة للتقارب في علاقة الحب الإلهية، إنها الطريقة الوحيدة لنتقرب من الله، أن تشارك بشيء ما نستطيعه كما قال لي د/ إبراهيم

((عندما تريد الاقتراب والحب من أحدهم عليك أن تتشارك معه شيئًا ما يكون رابطًا))

وقد أعطانا الله ذلك القاسم المشترك، التجارب المتماثلة تولد المشاعر المشتركة و لنا الخيار إما أن ندنس تلك النفخة ونقتلها أو نزكيها،ننمي قدراتنا للاستمتاع بكل هذا الجمال بالدنيا من حولنا، تلك الخبرات المتتالية من السلام والسكينة والرحمة التي نكتشفها بداخلنا، نكون على استعداد تام لاستقبلال وتذوق ذلك الجمال الخفي اللامتناهي في الحب

والرحمة والود والتعاطف والسلام التي تأتي كلها من ذلك المصدر المثالي للنفخة الروحية العليا كلما جاهدنا للوصول إلى هذه الصفات كلما تمتعنا بجمالها؛ إنها المكافأة الحقيقية التي نتغافل عن إدراكها.

علينا طوال الوقت أن نوازن بين نتائج اختياراتنا، بين قول الحقيقة أو ضياع الفرص، بين الأمانة أو ضياع الغنيمة، نحن نختلف عن الملائكة؛ لأنها مجبولة ومبرمجة على ذلك وخلقت لذلك، أما الإنسان فيختار هذا الحب بكامل إرادته الحرة، الإنسان حر، صاحب اختيار.

إن برمجة إنسان على قول الحقيقة لا يعني أنه صادق أو أمين، إن جبلته على المساعدة لا يعني أنه متسامح وعاطفي ورحيم، برمجة الإنسان على حب خالقه لا يعني أنه محب، إنها صفات تولد من الاختيار الحر، من المعاناة والكسر والسقوط والتعافي والألم والجبر ورحيل الأحبة، من السقوط في غيابة الجُبِ ومحاولات البقاء، الصعود والصمود، من إعطاء الآخرين جزءًا من نفوسنا، من المفاضلة بين رغباتنا، من الصراع العقلي والنفسي، من استخدام عقولنا وأفكارنا، من إدراك قيمتنا الحقيقية.

اكتشفت اليوم مَن كنت على وشك أن أخون مع (حُور)، كنت أخون إنسانيتي، تلك النفخة الروحانية التي تحب أن تتزكى بداخلي.

تأمل المواقف كانت رسائل متتالية أن هناك من ينظم الحركة الإنسانية والنفسية لهذا الكون؛ فقد كان هذا وقت مناسب لكل هذه الاكتشافات،

كي أجد بداخلي تلك القدرة لمسامحة أبي؛ نعم سامحته فللجميع أخطاء بهذه الحياة وقد دفع الثمن سنين طويلة من ابتعادي عنه ونفوري منه، من حنينه إليها ووحدته دون حب ودون ونيس، لقد دنس جزءًا من روحه ودفع ثمنه طوال حياته أما أنا فهدفي الآن أن أستمتع بالحياة، وأتذوق ذلك الجمال الخفي اللانهائي من الكفاح للوصول لتلك الصفات الروحية السامية، أن أزكي روحي بالمسامحة والحب والتعاطف، كلما جاهدنا لنصرة الحق لنتحلى بالحق، كلما اقتربنا من الحقيقة لأن الحقيقة لا تأتي إلا من عند الحق، من عند الخالق.

الآن أنا على يقين تام أن تلك الدموع لا تذهب سُدى، وأن الشر لن يفلت دون رادع والصبر لن يأتي إلا بالفرج، الآن اِطمئن قلبي لتلك المعاني التي قذفها الله داخل صدري، وعجز عقلي عن إدراكها.

الآن يسكن فؤادي؛ لأن الإيمان الحقيقي تتذوقه قلوبنا قبل أن تتوقعه عقولنا.

لا عبث في هذا الكون، فلكل شيء حكمة، للمعاناة حكمة، للفشل حكمة، للمرض حكمة، للموت حكمة
للفراق حكمة.

إنها السكينة التي لا توهب إلا للمؤمن، تلك التي تهبه القدرة لطرد الإشارات السلبية وتغيير الزاوية التي يتطلع منها لهذا العالم، ولهذه

الحياة ، تعطيه قدرة التحكم في مملكته الداخلية، تلك السكينة التي تخرجه من......

# غيابة الجُبِ.

# تمت بحمد الله تعالى